الدرس النحوي

في بغداد

الدكتور مهدي المخزومي

دار الرائد العربي
بيروت ـ لبنان

الدرس النحوي

في بغداد

الدكتور مهدي المخزومي

دار الرائد العربي
بيروت ـ لبنان







طبعة ثانية ١٤٠٧ - ١٩٨٧

أجازت طبعه دائرة الرقابة العامة
ودائرة الشؤون الثقافية العامة
بوزارة الثقافة والأعلام العراقية

دار الرائد العربي ـ بيروت ـ لبنان

مقدمة

تردد اسم «البغداديين» كثيرا في أثناء القرن الرابع بازاء الكوفيين والبصريين، حتى ليخيل للدارس أن البغداديين كانوا يمثلون جماعة ثالثة لهم طريقتهم الخاصة، ومذهبهم المتميز.

وجاء المتأخرون من النحاة فرأوا اسم «البغداديين» يذكر الى جانب الكوفيين والبصريين، فذهب بهم الوهم بعيدا، وراحوا يركبون الصعب في تصوير مذهب ثالث يقف بازاء مذهب أهل البصرة ومذهب أهل الكوفة، وهو مذهب البغداديين.

ووقع المحدثون والمعاصرون فيما وقع فيه المتأخرون من وهم، وراحوا يبالغون في تصنيف النحاة حتى تجاوزوا ثلاثة المذاهب الى اكثر من ذلك. وزعموا أن هناك مذهبا أندلسيا وآخر مصريا.

أكبر الظن ان الذاهبين الى وجود مذهب نحوي ثالث يستندون الى ما ذكره ابن النديم وغيره، فقد صنف ابن النديم النحاة ثلاث جماعات:

الأولى: جماعة البصريين.

والثانية: جماعة الكوفيين.

والثالثة: الجماعة التي خلطت المذهبين، ويعني بها جماعة النحويين الذين أخذوا عن الكوفيين والبصريين.

ويبدو أن فلوجل الذي حقق الفهرست ونشره هو الذي أوقع المحدثين والمعاصرين في مثل هذا الوهم، فقد كان نشر له بحث عن المدارس النحوية اشار اليه بروكلمان في «تاريخ الادب العربي» وكوتولدفايل في مقدمة (الانصاف) وعنوان البحث يدل على تعدد المدارس او المذاهب عنده، وكان الدارسون العرب يصدرون عن هذا في أكبر الظن منذ اتصالهم بكتابات المستشرقين. وكان كوتولدفايل على صواب حين ذكر ان (فلوجل) لا بد أن يكون قد عانى كثيرا من الجهد للوصول الى هذه النتيجة، وهي القول بتعدد المذاهب والمدارس، وإنعام النظر في حقيقة الامر يجعل أمثال هذه المحاولات المعاصرة من قبيل الاوهام التي لا وجود لها إلا في اذهان اصحابها.

واكبر الظن ان اسم الكوفيين لم يعرف الا في القرن الرابع، وان الكوفية اسم اخترعه البغداديون الذين أخذوا بمذهب البصريين، وسمّوا أنفسهم بالبصريين تمييزا لانفسهم عن مخالفيهم من البغداديين الذين اخذوا بمذهب البغداديين الأوائل.

أما الكسائي والفراء وثعلب واصحابهم وتلاميذهم فلم يسموا بالكوفيين، لم يسموا هم انفسهم بهذا الاسم، ولم يسمهم البصريون الأوائل به أيضا، لان الكوفة، مِصْراً، لم تعرف درسا نحويا مستقلا يقف بازاء الدرس البصري، ولم تكن منافسة للبصرة في الدرس اللغوي عامة. والمصر الذي وقف ينافس البصرة هو بغداد، وفي بغداد ومجالس الدرس فيها رسمت حدود الدرس النحوي الجديد الذي وقف بازاء الدرس البصري منافسا قويا، وهو الدرس الذي سُمّي فيما بعد وفي غضون القرن الرابع بالدرس الكوفي، وسُمِّيَ حملته والداعون اليه بالكوفيين، ولم تخلص الكوفية لاتباع البغداديين الاوائل الا في العصور المتأخرة، فلم يزل اكثر الدارسين من اتباع المذهب البصري في القرن الرابع يسمون مخالفيهم بالبغدادية حينا، وبالكوفية حينا آخر، ونجد ذلك واضحا في كتابات ابن جني في

الخصائص وغيره، فقد كان يورد اسم البغداديين والكوفيين، ولم يرد بهما جماعتين مختلفتين، بل كان يورد إحيانا رأيا ينسبه الى البغداديين في موضع ثم يورده منسوبا الى الكوفيين في موضع آخر، كما يأتي بيانه، وهذا يدل على ان البغدادية والكوفية عند ابن جني جماعة واحدة تقف بازاء البصرية.

ومما يدل على ان البغدادية والكوفية جماعة واحدة أن الدارسَ لا يكاد يقف على خلاف مذهبي بين البغداديين والكوفيين، وأن الخلاف انما يتمثل فيما بين الكوفيين والبصريين وبين البغداديين والبصريين، وأن الدارسين المتأخرين الذين عنوا بأمر الخلاف كانوا يعرضون للخلاف بين الكوفيين والبصريين، ولم يشيروا قط الى خلاف بين البغداديين والكوفيين.

فالبغداديون إذن هم الكوفيون، وطريقة البغداديين في الدرس النحوي هي طريقة الكوفيين، ولم تمثل البغدادية مذهبا يختلف عن مذهب الكوفية فالمذهب واحد، والطريقة واحدة.

على أن الذين ذهبوا الى وجود مذهب بغدادي كانوا يرسلون مقالاتهم مزاعم ظاهرة التكلف، كما سيأتي بيانه في ثنايا فصول هذا الكتاب.

وبلغ من وهم القائلين بوجود مذهب بغدادي مستقل أن جعلوا في مقدمة البغداديين: ابن قتيبة، ولم يتلمذ للبغداديين الاوائل او الكوفيين، ولعل كل ما أوهم هؤلاء هو أنه كان يحكي في كتبه أحيانا عن أوائل البغداديين، وخاصة الكسائي والفراء، والحكاية عنهما أحياناً لا تكفي أن تجعله من اصحاب مذهب جديد.

وبلغ من وهم بعض المعاصرين ان جعل ابا علي الفارسي وابا الفتح بن جني من البغداديين، مع أنهما كانا يسلكان انفسهما في البصريين، وينتهجان منهج البصريين.

أما مذهب الاندلسيين، أو مذهب المصريين، او غيرهما فمذاهب لا وجود لها الا في اوهام القائلين بها، المرسلين القول مزاعم ومدعيات لا

تنهض بها حجة، ولا يقوم عليها دليل.

ولم أجعل عنوان هذا الكتاب: مدرسة بغداد، أو مذهب بغداد في النحو، لأن مدرسة الكوفة أدق في الدلالة على ما يراد بمدرسة بغداد، لأن البغداديين بعد أبي العباس ثعلب اختلفوا فيما بينهم، فذهب بعضهم مذهب أهل البصرة كالزجاج وابن السراج وتلاميذهما، ولزم بعضهم مذهب البغداديين الأوائل أو الكوفيين، كما سموا أخيرا، كأبي بكر بن الانباري وأبي عمر الزاهد وأبي بكر بن شقير وتلاميذهم.

فالدرس النحوي في بغداد منذ بداية القرن الرابع لا يمثل اتجاها واحدا او مذهبا واحدا، بل يمثل اتجاهين مختلفين سارا في خطين متوازيين الى أن تغلب الاتجاه البصري في بغداد في عصورها المتأخرة، لغلبة الفكر الكلامي والفلسفي على الدرس النحوي حتى لم يعد له صلة بالدرس اللغوي.

مهدي المخزومي

بغداد في ٢٢ من تموز ١٩٧٤

تمهيد

سار الدرس النحوي منذ اواسط القرن الثاني للهجرة في اتجاهين مختلفين، كان سيبويه وتلاميذه يمثلون اتجاها، وكان الكسائي وتلاميذه يمثلون اتجاها آخر، وكان الدارسون القدماء يعرفون هذا، ويدركون الأسس المذهبية التي كان عليها الاتجاهان. كان الاتجاه الاول هو اتجاه البصريين الذين سبقوا الى الدرس النحوي، وكان الاتجاه الثاني هو اتجاه الكوفيين الذين خرجوا الى بغداد واقاموا فيها.

وكان بين الكوفة والبصرة، منذ تمصيرهما، تنافس يقوم على أساس الإقليم أو المِصْر، وكانت دوافعه في الغالب سياسية، فكانت الكوفة منزل الصحابة، وحفظة القرآن، وحملة الحديث، ومعسكر المسلمين، ومنطلق الجيوش الاسلامية الى الاقطار لنشر الدين الجديد، وقاعدة الخلافة في عهد علي بن أبي طالب، ووراء كل هذا عوامل كان لها تأثير كبير في الخلاف بين المِصْرَين، تلك هي الاختلافات السياسية التي عمقتها طبيعة المجتمع في المصرين، والاحداث التي وقعت بينهما.

كان عرب الكوفة اكثرهم من اليمانيين، وعرب البصرة اكثرهم من المضريين، وكان عرب الكوفة أضعف اتصالا بالاجانب من عرب البصرة، لان عرب الكوفة كانوا يمثلون الطبقة الحاكمة، وقد شغلتهم الفتوحات عن النزوع الى حياة الحضر فلم يشاركوا الجماعات الاخرى التي كانت قوام

الحياة لشعب الكوفة، أما عرب البصرة فكانوا يشاركون غير العرب فيما كانوا يعملون، ويخوضون معهم فيما كانوا فيه يخوضون.

كان هذا الاختلاف بين طبيعتي المصرين، والقبائل التي نزلت كلًّا منهما مثار تنافس جديد، وتكاثر من نوع خاص يستند الى عصبية أساسها المصر، حتى صارت القبيلة الواحدة تنزع منزعين مختلفين، فهناك تميم الكوفة، وهناك تميم البصرة، وهناك قيس الكوفة، وهناك قيس البصرة[1]، وكأن الروابط القبليّة قد تقطعت في القبيلة الواحدة.

كانت الكوفة تكاثر بالبيوتات العربيّة التي نزلتها، وهم آل زرارة، الدارميّون، وآل زيد الفزاريّون، وآل ذي الجدين الشيبانيون، وآل قيس الزبيديون[2].. وبمن هبط فيها من صحابة الرسول ممن شهدوا بدرا، ومن أصحاب الشجرة الذين صارت الكوفة بهم «كنز الايمان، وجمجمة الاسلام، وسيف الله ورمحه يضعه حيث يشاء»[3].

وكانت البصرة تكاثر بالرجالات الذين لم ينجب مثلهم مصر فقاهة وبلاغة وتديُّناً وزهدا وأدبا، كالحسن البصري، والاحنف بن قيس، وطلحة ابن عبدالله، ومحمد بن سيرين، ومالك بن دينار، والخليل بن احمد.

وشهدت مجالس الخلفاء والامراء كثيرا من المناظرات التي كانت تجري بين وفود من المصرين، وفي كتب البلدان كثير من الامثلة التي تعرض التنافس بين المصرين الكبيرين.

ثم كانت بغداد، وصارت قاعدة الخلافة، فأخذت تجتذب اليها التجار وذوي المال لينشئوا المصر الجديد ويعمروه، والادباء والشعراء والعلماء واللغويين ليبنوا حضارة وفكرا.

(١) مختصر كتاب البلدان ١٧٠ ليدن.
(٢) مختصر كتاب البلدان ١٧١ ليدن.
(٣) مختصر كتاب البلدان ١٦٣ ليدن.

وكان الاوائل من الخلفاء واولادهم من العلماء والادباء والشعراء، فأبو جعفر المنصور «كان مقدما في علم الكلام، ومكثرا من كتاب الاثار، ولكلامه كتاب يدور في أيدي الوراقين معروف عندهم»[٤].

وكان ابراهيم بن المهدي معدودا في الشعراء وأهل الفن والموسيقى، وكان له معرفة بالجدل، وتصرف في الفقه واللغة، الا أن الموسيقى والغناء غلبا عليه، وكان اسحاق الموصلي يقول: «ما ولد العباس بن عبد المطّلب بعد عبدالله بن العباس رجلا أفضل من ابراهيم بن المهدي فقيل له: مع ما تبذل له من الغناء؟! فقال: وهل تم فضله الا بذاك»[٥].

وكان هارون الرشيد اكثر الخلفاء الذين سبقوه رغبة في العلم واكراما للعلماء، وكان يحفظ الشعر وينقده، وكان «يحفظ شعر ذي الرمة حفظ الصبا، ويعجبه ويؤثره، فاذا سمع غناء أطربه»[٦].

أما المأمون فمن فضول القول أن يشار الى علمه وحبه العلماء، وكان له اهتمام خاص بعلوم اليونان وفلسفاتهم، وكان يشجع المترجمين، ويجري عليهم الجرايات، وأسس مكتبته المعروفة ببيت الحكمة، فأودع فيها كنوز العلوم العربية، وكنوز العلوم الاجنبية، وبتشجيعه برزت أعمال الكندي فيلسوف العرب، وأحد العقول البارزة في تاريخ الفكر، وبتشجيعه ظهرت أعمال الفراء، فقد ألف له كتاب الحدود، وأملى تفسيره الكبير: معاني القرآن.

كان تمصير بغداد، ونموها السريع في العمران والسياسة والاقتصاد، والحياة العقلية قد استرعى انتباه العلماء والادباء والرواة والشعراء الذين حفل بهم المصران الكبيران، الكوفة والبصرة، فشدوا الرحال اليها، وأخذ النابهون من الدارسين من الافاق البعيدة يهاجرون اليها ويفدون منها، ثم

---

(٤) البيان والتبيين ٣/٢٩٨.

(٥) الاغاني ٩/٤٩ بولاق.

(٦) الاغاني ٥/٣٩ بولاق.

يعودون الى ديارهم وعيابهم ملأى بصنوف المعرفة.

وكان الخلفاء انفسهم يشجعون على الاقامة في بغداد، وربما كانوا يبعثون بالرسل ليحملوا العلماء اليها حملا، كما فعل المهدي مع علي بن حمزة الكسائي، فلم يكد يستقر بالكسائي المقام في الكوفة بعد عودته من البوادي حتى ذاعت شهرته العلمية في القراءة واللغة والنحو في بغداد، فأرسل المهدي لاحضاره الى بغداد ليؤدب اولاده، ويذيع فيها قراءته ولغته ونحوه، وعرفت بغداد بقدومه اليها واقامته فيها أول مقرىء للقرآن، واول علم من اعلام اللغة والنحو، وكان قدومه اليها وامتداد شهرته في بيئات الدرس، وتقريب الخلفاء اياه قد حفز نحاة البصرة الى الهجرة الى بغداد وقوى آمالهم في الدنو من الخلفاء.

وكان سيبويه الذي شهر في الدارسين، وعرف بأنه أنبه تلاميذ الخليل ووارث علمه، من اوائل البصريين الذين عقدوا النية على الاقامة في بغداد، غير ان مكانة الكسائي في القراءة واللغة والنحو، ومنزلته في نفوس الخلفاء حالت دون أن يصل سيبويه الى ما أراد بل قطعت الطريق على الآخرين، فلم يوفق أحد من منافسيه الى زحزحته أو اضعاف منزلته.

ولم ينجح سعيد بن مسعدة الاخفش فيما اخفق فيه سيبويه الا بعد ان وضع نفسه وعلمه في خدمة الكسائي يصاحبه ويؤدب أولاده، وكان اخفاق سيبويه مثار خصومة بين البصريين والبغداديين، فهم في نظر البصريين «حشو عسكر الخليفة» تارة، ومفسدو اللغة والنحو تارة أخرى.

ولعل ما حدث في مجلس آل برمك من مناظرة بين الكسائي وسيبويه في المسألة المشهورة: «قد كنت أظن أن العقرب اشد لسعة من الزنبور، فاذا هو هي او فاذا هو إياها» التي انتهت باخفاق سيبويه كان امتدادا لذلك التنافس الذي كان يحدث بين وفود الكوفة والبصرة في مجالس الخلفاء قبل تمصير بغداد، غير أن المناظرة بين الرجلين في هذه المسألة كانت ذات طابع علمي:

ثم تبعت هذه المناظرة مناظرات أخرى بين كوفيين استقروا في بغداد، وبصريين رغبوا في الاستقرار فيها.

كالمناظرة التي جرت بين الكسائي وأبي محمد اليزيدي في مجلس الرشيد.

والمناظرة بين الاصمعي البصري، وأبي عمرو الشيباني الكوفي.

والمناظرة بين الكسائي والاصمعي.

والمناظرة بين الاصمعي والفراء.

والمناظرة بين ثعلب والمازني.

والمناظرة بين ثعلب والرياشيّ.

والمناظرات التي جرت بين ثعلب والمبرد في مجلس محمد بن عبدالله بن طاهر.

الى غيرها من المناظرات التي جرت بين بصريين وبغداديين، وكأن المنافسة القديمة بين الكوفة والبصرة حالت الى منافسة بين البصرة وبغداد، ولعل ذلك يرجع الى أن الكوفة لم يعد لها من المكانة السياسية ما كان لها من قبل.

ولم يعد اسم الكوفة في مقابل اسم البصرة، ولم يطلق أحد من قدماء البصريين، اسم (الكوفيين) على الكسائي والفراء وثعلب واصحابهم وتلاميذهم ولم ينسب النحاة الذين انتهجوا نهج الكسائي والفراء الى الكوفة الا بعد اشتداد المنافسة التي أثارها المبرد بعد وروده بغداد عقب مقتل المتوكل، المنافسة التي أشتد أوارها بين تلاميذ ثعلب وتلاميذ المبرد، وكان هؤلاء التلاميذ كلهم بغداديين، فأراد اتباع المبرد البصري من البغداديين أن يميزوا أنفسهم من أتباع ثعلب البغداديين أيضا فسموهم بالكوفيين، وصارت النسبة الى الكوفة او الى البصرة تعني النسبة الى مذهب دراسيّ بعينه، فاذا قيل هذا الدارس كوفي كان هذا يعني أنه يذهب في دراسته اللغويّة والنحوية مذهب الكسائي والفراء وثعلب، واذا قيل هذا الدارس

بصري كان يعني أنه يذهب في ذلك مذهب سيبويه وتلاميذه.

ومهما يكن من أمر فقد عرفت بغداد بالكسائي وتلاميذه درسا نحويا جديدا لم تألفه البصرة ولا الكوفة من قبل، أما البصرة فقد عرفت الدرس النحوي قياسا وتعليلا، وأما الكوفة فلم يكن لها تاريخ في الدرس النحوي، والنحاة الذين عرفتهم الكوفة كانوا تلاميذ للبصريين لم يتعمقوا في الدرس، ولم يبرعوا فيه، واكتفوا من محصولهم النحوي أن يشتغلوا في الكوفة بتأديب اولاد الامراء والموسرين، ولم يضيفوا الى ما تلقوه عن أشياخهم البصريين جديدا ولم يغيروا من أسلوبه شيئا، وقد ذكرت كتب الطبقات من هؤلاء الدارسين الكوفيين الذين أدركتهم حرفة الادب رجلين هما أبو جعفر الرواسي وخاله معاذ الهراء، وقد رفعتها المزاعم الى مكان لم يكونا أهلا له، فلا نكاد نعرف شيئا عن علمهما ولا شيئا عن مصنفاتهما، وكل ما رددته المزاعم أن لابي جعفر الرواسي كتابا اسمه (الفيصل)، وتمادت هذه المزاعم في الافتيات حتى زعمت ان الخليل، وهو من هو ذكاء وعلما وعبقرية، أرسل عليه فأفاد منه في وضع كتابه. ولم يرفعهما الى تلك المنزلة من العلم والاصالة والرئاسة الا تعصب مذهبي اساء الى تاريخ هذا الدرس بافتياته وتخرصاته وزعماته.

فاذا أعرضنا عن مثل هذا اللغو لم يبق من الكوفيين من تنسب اليه الرئاسة في النحو الكوفي غير الكسائي، ولكن الكسائي لم يخطط لمذهبه النحوي في الكوفة، فلم يكد يقيم فيها بعد عودته من رحلته حتى كتب المهدي «بازعاجه من الكوفة» للافادة منه في تأديب ولده[7] وأقام في بغداد، ولم يرجع الى الكوفة، وهناك وضع أصول مذهب جديد في النحو عرف في مجالس الدرس في بغداد.

وقد وقف المذهب النحوي الجديد منافسا قويا للمذهب النحوي

---

(٧) انظر: معجم الادباء ١٣/١٧٤.

البصري، لا لأن رجاله كانوا في حمى الخلافة او السلطان، كما زعم ابو حاتم، فيما روى أبو الطيب اللغوي عنه[8]، بل لانه كان يعبر عن واقع الاستعمال اللغوي، وتعبيرات الفصحاء في محادثاتهم ومخاطباتهم، ويسبر أغوار الاستعمالات والاساليب، ويعتدّ بمختلف البيئات اللغوية واللهجات التي تثبت عنده فصاحتها وسلامة عربيتها، ويعتمد السماع والنقل أصلا من أصول الدرس.

ولم يكن هذا الدرس الجديد الذي عرفته بغداد لينهج هذا النهج الا لان اعلامه كانوا من القرّاء وليس للقراء، سبيل في دراستهم الى غير الرواية والنقل الصحيح، أما الاعتبارات العقليّة التي أخذ بها البصريون فحكموها في تقعيد قواعدهم، ووضع أصولهم فلا سبيل لها الى القراءة ولا الى نحو القراء الجديد.

وهذا في رأينا هو منشأ الاختلاف بين المذهبين النحويين الكبيرين اللذين عرفهما تاريخ هذا الدرس.

---

(٨) مراتب النحويين ٧٤.

الكسائي

علي بن حمزة (توفي سنة ١٨٩ هـ)

نشأ في الكوفة، وتعلم مبادىء العربية على المؤدبين أمثال أبي جعفر الرواسيّ، ومعاذ الهراء، واخذ القراءة عن حمزة بن حبيب الزيات، وصار يقرأ بقراءته، ثم اتخذ لنفسه قراءة خاصة عرف بها، وبرع في هذا الميدان حتى صار سابع ستة من قراء العالم الاسلامي، وثالث اثنين من قراء الكوفة، قاعدة الخلافة، وموفد الصحابة، ومنزل حملة الحديث.

واراد الكسائي ان يلم بالعربية لتخدم قراءته، فتعلم مبادئها على المؤدبين في الكوفة، ثم شد الرحال الى البصرة، لانّ العربية في البصرة كانت قد تم لها النضج باعمال اللغويين والنحويين الذين كانت مجالس الدرس في البصرة حافلة بهم، وفي مقدمة هؤلاء ابو عبد الرحمن الخليل بن أحمد الفراهيديّ شيخ العربية، وواضع اصولها، وراسم منهجها.

وفي البصرة جلس مع من كان يجلس الى الخليل، ولازم الخليل، وأخذ عنه نحواً كثيرا، ولم يكتف بما سمع من الخليل، ولا بما تلقاه من تفسيرات وقياسات، فاراد ان يدعم ذلك بالرواية، ومشافهة الفصحاء، ويحذو حذو الخليل في سماعه ومشافهته، وسأله يوما عن مصادر علمه، فقال له الخليل: بوادي نجد والحجاز وتهامة، فشد الرحال اليها، ومكث بين الاعراب فيها يسمع منهم، ويشافههم ويدوّن كثيرا مما كان يسمع، وعاد مليء العياب بالمسموعات والمكتوبات والمحفوظات.

كان الكسائي في رحلته الى تلك البوادي منسجما مع نفسه، ومع المنهج الذي درج عليه، وقامت عليه ثقافته الاولى، وصار له بذلك شأن كبير في الدرس النحوي، وشهد له أبو زيد الانصاري يوم أتاه نعيُ الكسائي بقوله: «مات بموته علم كثير»[1].

عاد الكسائي من رحلته، ولم يكن له همّ غير البصرة والخليل، غير انه وجد الخليل قد مات، وجالس في موضعه يونس بن حبيب البصري النحوي، واتصل بيونس، ولكنه لم يكن اتصال المستفيد، و«جرت بينهما مسائل أقرَ له يونس فيها، وصدره في موضعه»[2]، ثم عاد الى الكوفة، ولكنه لم يستقر فيها، فقد دُعي الى بغداد ليؤدب اولاد الخليفة، وليقرىء القرآن فيها ويجد في مجالس الدرس فيها بيئة صالحة لتأسيس مذهب في العربية جديد.

وكان لانصراف الكسائي الى الدرس النحوي، والرواية اللغوية بعد رحلته، ثم مقامه في بغداد، وتصدره مجالس الدرس فيها اثر واضح في شيوع مذهب نحوي جديد في بغداد، لان الكسائي كان قد شرع يرسي قواعد النحو على أسس جديدة اشتقها من ثقافته القرآنية، وبدا ذلك واضحا للدارسين مما كان يثار في مجالس النظارة التي كانت تعقد بين الوافدين من الكوفة، والوافدين من البصرة، للنقاش في مسائل نحوية ولغوية كانت وجهتا النظر المختلفتان تطبقان فيها تطبيقا.

وكان السلوك الكسائي في دراسة النحو على غرار ما جرى عليه في دراسة القرآن وتحمّل القراءة أن أخذ النحو الجديد يتجه اتجاها بدأ يبعد عن الاتجاه البصري قليلا في اعمال الكسائي، ثم اخذ يبعد كثيرا في اعمال تلميذه الفراء حتى صار اتجاها متميزا باصوله، وبطبيعة قواعده، وبمصطلحاته، فاذا كان الكسائي واضع الاساس لهذا الاتجاه فالى الفراء

---

(١) انباه الرواه ٢/٢٧٤.

(٢) نزهة الألباء ٨٤. القاهرة ـ الطبعة الحجرية.

يعود اتمام العمل، وكانت مخالفة الكسائي لكثير من الاراء البصرية من البوادر الاولى التي آذنت بنشوء المذهب الجديد في بغداد، المذهب الذي سمي فيما بعد بالمذهب الكوفي.

ولعل المسألة النحوية المشهورة: «قد كنت أظن ان العقرب أشد لسعة من الزنبور فاذا هو هي، أو: فاذا هو اياها» التي أثارها الكسائي عند مناظرته سيبويه كانت متحولا فاصلا للمنهجين النحويين، ورسما داعيا لمفترق طريقتين تسلك احداهما في تصويب وجه دون اخر طريق القياس، وهي التي سلكها سيبويه في اصراره على وجوب الرفع، وتسلك الثانية في تصويب الوجهين طريق السماع، وهي التي سلكها الكسائي في التسوية بين قولهم: (فاذا هو هي) وقولهم: (فاذا هو اياها) معبرا عن ذلك بقوله: «العرب ترفع ذلك كله وتنصبه»[٣].

كان لاختلاف الرجلين في المنشأ والثقافة أثر في اختلاف مذهبيهما في تناول موضوعات الدرس، وتفسيرها وتخريجها، وبدا ذلك واضحا في هذا اللقاء الذي طرحت فيه هذه المسألة للنقاش. وقد ادرك القدماء من النحاة هذا الاختلاف في وجهتي النظر، فأخذ فريق منهم بمذهب سيبويه، وأخذ فريق بمذهب الكسائي، وتعصب كل فريق لمذهبه.

وكانت عناية الكسائي بالقرآن، واعتداده بالقراءات منطلقاً للآراء التي صدرت عنه مخالفا فيها البصريين الذين أرجعوا القراءات الى النحو، وحكموا قواعدهم الموضوعة فيها.

ومن الاراء التي خالف فيها البصريين، صادرا فيها عن اعتداده بالقراءات:

تجويزه في السعة حذف النون من المثنى «فيجوز عنده: قام الزيدا بغير نون». وقد تابعه من المتأخرين أبو حيان مستشهدا بما سمع من قولهم:

(٣) مجالس العلماء ٩.. معجم الادباء ١٣/١٨٧، ١٦/١٢٠.

بيضك ثنتا، وبيضي مئتا[4] معتمدا في تجويزه هذا قراءة بعضهم: «غير معجزي الله» بنصب (الله)، وقراءة بعضهم: «لذائقو العذاب» بنصب العذاب[5].

ورأيه أن يكون من معاني (لعل): التعليل، صدورا عن فهمه قوله تعالى ﴿لعله يتذكّر أو يخشى﴾، أي: ليتذكر[6].

ورأيه ان يجوز توسط (الّا) بين الفعل ومعموله، احتجاجا بقوله تعالى: ﴿وما أرسلنا من قبلك الا رجالا نوحي اليهم فاسألوا أهل الذكر ان كنتم لا تعلمون، بالبينات والزبر﴾.. فقد توسطت (الا) بين (أرسلنا) وما تعلق بها، وهو قوله تعالى: ﴿بالبينات والزبر﴾.

وذهابه الى جواز زيادة (من) في الايجاب، احتجاجا بقوله تعالى: ﴿يغفر لكم من ذنوبكم﴾، وقوله تعالى: ﴿ولقد جاءك من نبأ المرسلين﴾[7].

ورأيه في جواز حذف الفاعل اذا دل عليه دليل من سياق القول، ولعله استند في ذلك الى قوله تعالى: ﴿ثم بدا لهم من بعد ما رأوا الآيات﴾، وقوله تعالى: ﴿أو اطعام في يوم ذي مسغبة يتيما﴾ فيتيما مفعول المصدر، وفاعل المصدر محذوف وقد تابعه ابن مضاء القرطبي في جواز حذف الفاعل، فقد عرض لمسألة ما سمّي بالتنازع، وذكر آراء النحاة في الفعل الاول اذا (أعمل) الفعل الثاني. فالفراء لا يجيز خلوه من الفاعل لأنه يرى ان الفاعل المذكور فاعل للفعلين جميعا، والكسائي يجيزه على الحذف، وغيره يجيزه على الاضمار. قال ابن مضاء: «وأما أي الرأيين أحق فرأي

---

(٤) الهمع ١/٥٠.
(٥) الهمع ١/٥٠.
(٦) الهمع ١/١٣٤.
(٧) الهمع ٢/٣٥.

الكسائي»[٨]. وزعم السيوطي ان السهيلي من الاندلسيين كان يرى رأي الكسائي ايضا[٩].

وذلك نحو: أحسن وأساء زيد، فالفراء يرى أن (زيد) فاعل للفعلين جميعا، والكسائي يرى أن (زيد) اذا جعل فاعلا لأساء، فان (احسن) خلو من الفاعل. قال الرضي: ومذهب الكسائي هو أن يحذف الفاعل من الفعل الاول اذا اعمل الثاني، حذرا من الاضمار قبل الذكر[١٠].

ومن آرائه التي خالف فيها البصريين:

اجازته حذف المضاف اليه وابقاء المضاف غير منون، احتجاجا بما حكاه عن العرب من قولهم: «أفوق تنام أم اسفل. بالنصب، على تقدير: أفوق هذا تنام أم أسفله»[١١].

وذهابه الى أن الفعل في مثل قولهم: لالزمنك أو تقضيني حقي، منصوب بـ (أو) نفسها، لا بـأن مضمرة بعد (أو) كما يقول البصريون[١٢].

وذهابه الى أن (يفعل) ـيعني الفعل المضارعـ انما يرتفع بحروف (أنيت)، «فأقوم مرفوع بالهمزة، ونقوم مرفوع بالنون، وتقوم مرفوع بالتاء، ويقوم مرفوع بالياء»[١٣].

وهذا قليل من كثير خالف فيه الكسائي البصريين، وهو خلاف كان لا بد منه، لانه انعكاس للخلاف في الاسس المذهبية، وانّ مذهبا يعتمد القراءات، ويترخص في قبول ما سُمّي شاذا، او نادرا، او غير مسموع،

---

(٨) الرد على النحاة ١٠٩.
(٩) الهمع ١/١٦٠.
(١٠) شرح الرضى ١/٧٩.
(١١) همع الهوامع ١/٢١٠.
(١٢) همع الهوامع ٢/١٠.
(١٣) همع الهوامع ١/١٦٥.

ويبعد الاعتبارات الفلسفية عن التدخل في الدرس النحوي، لا بد أن يخالف في النتائج مذهبا يرجع القراءات الى النحو، ويترخص في رفض القراءات التي لا تنسجم مع أصوله الموضوعة، ويفتح باب الطعن على القراء والقراءات، ويتمحّل في حمل القرآن على مطابقة القواعد، واكراه النص القرآني على قبول معنى خاص ويحكّم في أصول الدرس اللغوي والنحوي الاعتبارات الفلسفية الى أبعد حدود التحكيم، بحجة احكام الاصول وضبطها، واستواء المنهج وتخليصه من الاضطراب.

اصحاب الكسائي

وتلمذ للكسائيّ جماعة من الدارسين في بغداد كان لهم أثـر في تثبيـت قواعد المذهب الجديد الذي وضع الكسائيّ رسومه، وبرّز من هؤلاء أبـو زكريا الفراء الذي أكمل البناء، وهذبه، وأضاف اليه، ومنحه الحياة وملامح الشخصية المستقلة، وسأخصه بشيء من التفصيل بعد قليل. ومن هؤلاء:

علي بن المبارك الاحمر (توفي سنة ١٩٤ هـ)، أخذ النحو والمعاني والغريب عن الكسائي، وكان هذا هو الغالب عليه، وحكى الازهري أنه كان «يحفظ ثلاثين ألف بيت من المعاني والشواهد»[١]. وكان الاحمر أحد الذين اشتركوا في المناظرة التي جرت بين سيبويه والكسائي، وزعم الازهري أن الاحمر ناظر سيبويه فأفحمه[٢]. وكان الاحمر من جملة مصادر الازهري في التهذيب، وكان من الحفظ في منزلة كان الفراء معها، فيما زعم الازهري، يأخذ عنه، وكان اول من دون عن الكسائي، كان يسأله ويكتب عنه في ألواح.

ومن آرائه التي كان يتفرد بها:

جواز الفصل بين أداة الاضافة والمخفوض استنادا الى ما حكاه الكسائي

(١) تهذيب اللغة ١/١٨.
(٢) المصدر نفسه.

من قول العرب: «اشتريته بوالله درهم» وقاس عليه الفصل بين (رُبَّ) وما تدخل عليه، نحو: رُبَّ واللهِ رجلٍ عالم لقيته[٣].

وذهابه الى أن (ما) قد يستثنى بها كإلاّ، وخرّج عليه ما روي عن العرب من قولهم: «كل شيء مهمة ما النساء[٤]، أي: إلا النساء.

ومما ينسب اليه قوله: «يقال للذئب: ذؤالة ودؤالة لشدة ذألانه ودألانه»[٥]، والذألان والدألان هما: المشي السريع الخفيف.

ومنهم: أبو عبدالله هشام بن معاوية الضرير (توفي سنة ٢٠٩ هـ) شهر بصحبة الكسائي، وعنه أخذ النحو، وكان من أحذق تلاميذه.

له مصنفات في النحو لم تصل الينا، منها: كتاب الحدود في العربية[٦] وكان ابن النديم قد رأى منه قطعة بخط أبي جعفر الطبري[٧]، ومنها: كتاب المختصر في النحو:

ويبدو من تتبع اقواله وآرائه التي تتناقلها كتب النحو أنه كان من النحاة المبرزين، ولم يكن بالمقلد المتابع، فقد خالف أستاذه في كثير من آرائه، فقد جوز أن تكون صلة الموصول مصدرة بليت ولعل وعسى، نحو: الذي ليته منطلق زيد، والذي لعله منطلق عمرو، والذي عسى أن ينطلق بكر[٨].

وجوز الاخبار بـ (وحده) في قولهم: زيد وحده، حملا على قولهم: زيد عنده وفاقا ليونس في هذا، وهو عندهما منصوب انتصاب الظرف[٩].

---

(٣) همع الهوامع ٢/٣٧.
(٤) همع الهوامع ١/٢٣٣.
(٥) طبقات النحويين واللغويين ١٤٧.
(٦) معجم الادباء ١٩/٢٩٢.
(٧) الفهرست ١٠٤.
(٨) همع الهوامع ١/٨٥.
(٩) همع الهوامع ١/١٠٠.

وذهب الى أن الفاعل مرفوع بكونه مسندا اليه[١٠]، وهو رأي يدل على أن له فكرا نحويا صائبا.

وأجاز الفصل بين (ما أحسن) و(زيدا) من قولهم: ما أحسن زيدا بالحال فيقال: ما أحسن مقبلا زيدا[١١] وتابعه الجرمي في هذا. ومنع العطف بـ (بل) في الاثبات، وكان يقول: محال ضربت عبدالله بل اياك[١٢].

واثبت العطف بكيف بعد نفي، نحو: ما مررت بيزيد فكيف عمرو[١٣].

وأجاز نصب المجموع بألف بالفتحة في المعتل خاصة، كلغة وثُبَة، وقد «حكى: سمعت لغاتَهم»[١٤].

وأجاز حذف النون من المثنى لغير اضافة، في نحو قولهم: هذا مكرمك وهذان مكرماك، وهؤلاء مكرموك، وكان يرى أن التنوين والنون يحذفان للطافة الضمير، فاذا قيل هذا ضاربك فالضمير في موضع نصب «لأن موجب النصب المفعولية، وهي محققة، وموجب الجرّ الاضافة، وهي غير محققة اذ لا دليل عليها الا حذف النون، ولحذفها سبب آخر غير الاضافة، وهو صون الضمير المتصل من وقوعه منفصلا»[١٥]. وهو في هذا وغيره انما يصدر عن السماع وعما وقف عليه من كلام العرب.

وكثيرا ما كان يقرن اسمه باسم الكسائي او باسم الفراء، وذلك يدل على وضوح شخصيته وأصالته.

---

(١٠) همع الهوامع ١/١٥٩.
(١١) همع الهوامع ٢/٩١.
(١٢) همع الهوامع ٢/١٣٦.
(١٣) همع الهوامع ٢/١٣٨.
(١٤) همع الهوامع ١/٢٢.
(١٥) همع الهوامع ١/٥٠.

ومنهم: القاسم بن معن (توفي سنة ١٧٥ هـ) ولي قضاء الكوفة، وكان يشبه بعامر بن شراحيل الشعبي في سعة حفظه ومعرفته بالحديث والفقه والشعر وأيام الناس، وكان صاحب نحو، وأظنه صحب الكسائي في الكوفة، وكان يحيى بن معين يقول: «كان القاسم بن معن نبيلا»[١٦].

وترجم له ابن قتيبة في (ولد عبدالله بن مسعود)، لأنه ابن معن بن عبد الرحمن بن عبدالله بن مسعود، وقال: «كان على قضاء الكوفة، ولم يرتزق شيئا حتى مات، وكان عالما بالفقه والحديث والشعر وأيام الناس والنسب، وكان يقال له: شعبي زمانه»[١٧]. وكان الفقه والحديث والرواية واللغة أغلب عليه، وكان محمد بن زياد الاعرابي اللغوي الرّواية يأخذ عنه، أما النحو فلا أظنه كان صاحبه، ولم أقف له فيما وقفت عليه على رأي نحوي.

ومنهم: سلمويه النحوي الكوفي، تلمذ للكسائيّ، وأخذ عنه النحو، وتصدّر لتدريسه[١٨]، ولم يذكر الزبيدي عنه شيئا الا أنه «أخذ عن الكسائي أيضا»[١٩].

ومنهم: أبو طالب المكفوف. كان أخذ عن الكسائي النحو، وكان له مصنفات منها: حدود الحروف، والعوامل، والافعال واختلاف معانيها[٢٠]، ولم أقف له على رأي نحوي.

ومنهم: قتيبة النحوي (توفي بعد المئتين). كان قد أخذ النحو عن الكسائي، ولم أقف على رأي له في النحو، غير أن الزبيدي حكى أن أبا عبدالله المهدي قال: «قرى عربية فنون. فقال شبيب بن شيبة: انما هي

---

(١٦) طبقات النحويين ١٤٦. وفي تحديد سنة وفاته: تهذيب التهذيب ٣٣٩/٨.

(١٧) المعارف ١٠٩.

(١٨) انباه الرواة ٦٤/٢.

(١٩) طبقات النحويين واللغويين ١٤٨.

(٢٠) طبقات النحويين واللغويين ١٤٧.

قرى عربية، غير منونة. فقال أبو عبدالله لقتيبة النحوي الجعفي الكوفيّ: ما تقول؟ فقال ان كنت أردت القرى التي بالحجاز يقال لها قرى عربية فانها لا تنصرف، وان كنت أردت قرى من قرى السواد فهي تنصرف. فقال: انما أردت التي بالحجاز. قال: هو كما قال شبيب »[٢١].

ومنهم: أعلام آخرون يبدو أنهم لم يكن النحو يغلب عليهم، ولم يكن لهم في البيئات النحوية مقام ملحوظ، وانما كانوا رواة أدب أو شعر أو قراءة، أو لغة. وبهؤلاء وغيرهم استطاع الدرس البغدادي الكوفي أن يثبت أقدامه، ويقف منافسا قويا للدرس البصري، ويطبع الدارسين في بغداد بطابعه.

---

(٢١) طبقات النحويين واللغويين ١٤٩.

الفرّاء

ابو زكريا يحي بن زياد (توفي سنة ٢٠٧ هـ)

نشأ في الكوفة، وتعلم مبادىء العربية فيها، وألم بالقراءات بأخذه عن القراء، وشافه الفصحاء من علماء البادية الذين كان علماء المصرين يعتمدون عليهم، ويأخذون عنهم.

والدارسون يعرفون أن الكوفة بلد القراءة والحديث، ورواية الاخبار والشعر والادب، وأنَّ للقراءة في الكوفة مقاما خاصا، لان الكوفة منزل الصحابة والتابعين، وكان مسجدها الجامع قد شهد حلقات القراءة منذ تمصيرها. وكان أبو عبد الرحمن السلمي في مقدمة الذين أقرءوا القرآن، وكان قد قعد للاقراء قرابة أربعين عاما، وكان زر بن حُبَيش يعاصره، ويُعنى بالقراءة ورواياتها، وكانا يرويان القراءة عن علي وعثمان وابن مسعود وغيرهم، واليهما يرجع القراء في الكوفة، وقراءة عاصم بن أبي النجود، وحمزة بن حبيب الزيات، وعلي بن حمزة الكسائي انما ترجع اليها.

في هذه البيئة نشأ الفراء، وأقبل على القراءة، كما كان يقبل عليها الدارسون في الكوفة، وقد توافرت لديه السبل التي تقفه على القراءات المختلفة، واستطاع بحذقه ان يلمّ باطراف هذه الثقافة، وأن يكون في مقدمة العلماء الذين تفقهوا في القرآن وقراءاته المختلفة.

وشعر أبو زكريا كما شعر غيره بالحاجة الى تعلم العربية لانها السبيل الى فهم القرآن وقراءاته، فتعلم مبادئها على جماعة منهم: أبو جعفر الرواسي،

وكان أبو الحسن الكسائي قبله قد أخذ عنه أيضا، غير أن الكسائي لم يجد في علم أبي جعفر شيئا، فانقطع عنه، وارتحل الى البصرة، ولقي فيها شيخ العربية أبا عبد الرحمن الخليل بن أحمد الفراهيدي، ولازم مجلسه، واستكثر عنه، وبعد أعوام قضاها في الاخذ عن الاعراب في بواديهم، يشافههم، ويسمع منهم، حتى اذا عاد الى البصرة وجد الخليل قد مات، ثم عاد الى الكوفة، ولكنه لم يلبث أن حمل الى بغداد ليؤدب أولاد الخليفة، واتخذ من بغداد مستقرا ومقاما.

وكان خروج الكسائي الى البصرة، ثم مقامه في بغداد، وانقطاعه عن أبي جعفر مثار جفوة بين الرجلين، لهذا حسّن أبو جعفر للفراء أن يذهب الى بغداد، وقال له: «قد خرج الكسائي الى بغداد، وأنت أميز منه»[1].

ويبدو من فحوى هذا الخبر الذي رواه أبو البركات الانباري أن جفوة كانت بين أبي جعفر والكسائي، وأن هذه الجفوة هي التي دفعت الرواسي الى أن يحسّن للفراء الخروج الى بغداد ليكون منافسا للكسائي هناك.

وخرج الفراء الى بغداد، واتصل بالكسائي، وجرت بينهما مسائل من مسائل الرواسّي، فأجابه باجابات أنكرها الفرّاء، ثمّ أقنعه الكسائيّ بعد أنْ أتى على مسائل الرواسي مسألة مسألة فخطأها بما سمع من العرب، فأعجب به الفراء، ولزمه ورأى فيه ما لم ير في الرواسي وأخذ عنه، وانقطع عن أبي جعفر، وصار الفراء من أنبه أصحاب الكسائي، وانتهت الرئاسة في النحو اليه بعد الكسائي، وكان الكسائي يختصه برعايته، ويكبر فيه عقله وذكاءه، وسئل الكسائي يوما عن رأيه في الفراء وعلي بن المبارك الاحمر فقال: «الأحمر اكثر حفظا والفراء أحسن عقلا، وأبعد فكرا، وأعلم بما يخرج من رأسه»[2].

---

(١) نزهة الالباء ٦٥.
(٢) نزهة الالباء ٦٣٥.

ولم يكن الفراء ليجهل ما كان الدارسون يخوضون فيه في الكوفة والبصرة وكان فيه ما في الدارسين النابهين من طموح الى الوقوف على ما كان في البصرة، والاخذ عن أعلام الدرس فيها، ولقي سيبويه في البصرة فلم يرَ فيه ضالته، واتصل بيونس بن حبيب، وأخذ عنه، كما يدل عليه حكايته عنه في (معاني القرآن)، ولم يلق الخليل، لان الخليل كان قد مات قبل ذهابه الى البصرة، ولكنه وقف على آراء الخليل، وتلمذ له بوقوفه على الكتاب.

ولا يغض من مكانة الفراء أن يقف على ما وصل اليه العلم عند البصريين وأن يأخذ عنهم، ولا يعني أخذه عنهم متابعتهم أو تقليدهم، وليس في أقوال الرجل، ولا في أعماله العلمية، ولا في طريقة تناوله موضوعات الدرس ما يدل على أنه كان يتابع البصريين، فقد كان يسلك في دراسته سبيلا أخرى، كان منطلقه فيها ما كان أفاده من ثقافته الاولى في الكوفة، ومن تلمذته للكسائي، وانتهاجه نهجه في تناوله موضوعات النحو واللغة بالدرس، لذلك كان معنيا بالرواية، ومقدما السماع على القياس، وقد امتزجت في دراسته موضوعات القراءة بموضوعات النحو، وتلاقت مسائلها، وتشابكت أصولها، حتى صار يضبط القراءات بالعربية، ويحكم القراءة في أصوله النحوية، وكان كتابه (معاني القرآن) حقل التجربة على حد التعبير الحديث.

وكانت الذخيرة الضخمة التي آلت اليه من مرويات ومسموعات وقراءات، والموهبة الفذة، والفكر المبدع، قد صنعت من الفراء دارسا من طراز خاص، وأعدته ليكون باني مذهب، وراسم اتجاه.

وكان بينه وبين معاصريه مثل ما كان بين الخليل ومعاصريه أصالة وابتكارا واستيعابا لثقافات عصره يشهد بذلك اعجاب أبي بشر ثمامة بن الاشرس به، فقد حكي عنه أنه قال: «فاتشته - يعني الفراء - عن اللغة فوجدته بحرا، وعن الفقه فوجدته فقيها عارفا باختلاف القوم، وفي النجوم

ماهرا، وبالطب خبيرا، وبأيام العرب وأشعارها حاذقا »[٣].

وكان الفراء أحد الذين كان الكوفيون يكاثرون بهم، ويقولون: « لنا ثلاثة فقهاء، في نسق لم ير الناس مثلهم، ابو حنيفة وأبو يوسف ومحمد بن الحسن، ولنا ثلاثة نحويين كذلك، وهم: أبو الحسن علي بن حمزة الكسائي وأبو زكريا يحيى بن زياد الفراء، وأبو العباس أحمد بن يحيى ثعلب »[٤].

وكان أبو العباس ثعلب يقول: « لولا الفراء لما كانت اللغة، لانه حصلها وضبطها، ولولا الفراء لسقطت العربية لانها كانت تتنازع ويدعيها كل من اراد، ويتكلم الناس على مقادير عقولهم وقرائحهم فتذهب »[٥].

وكان أبو بكر بن الانباري يقول: « لو لم يكن لاهل بغداد والكوفة من علماء العربية إلا الكسائي والفراء لكان لهم بهما الافتخار على جميع الناس إذ انتهت العلوم اليهما »[٦].

وهذا، مع ما فيه من غلو، يشير الى اعجاب الدارسين به، ويدل على ما كان للفراء من مكانة في نفوس الدارسين، وكان له في الوقت نفسه رد فعل عنيف عند البصريين، تمثّل في حملات وتهجّمات تنمّ على عصبية زائدة على الكوفيين عامة، وعلى الفراء خاصة، ولكنها حملات لم تغض من شأنه، ولا قللت من اعجاب الدارسين به، لانها لم تعدُ أن تكون مزاعم، ولم تتجاوز حدود الكلام.

وليس كثيرا على الفراء أن يكون موضع الاعجاب والتقدير، فهو هو الذي عرفه الدارسون نموذجا عاليا علما وفقاهة وحديثا ورواية، وحفظا، وقد أملى كتبه، ومنها معاني القرآن من الذاكرة، وفي (معاني القرآن)

---

(٣) نزهة الالباء ١٣٢، ١٣٣.
(٤) معجم الادباء ١٤٣/٥.
(٥) نزهة الالباء ١٢٧.
(٦) نزهة الالباء ١٣٤.

خاصة من الرواية والحديث والقراءة ما لا يسعه الا ذهن حافظ، وعقل مستوعب ضابط.

ولم أقف، في حدود ما أعلم، على مساءلة جرت بينه وبين أحد معاصريه، ولا على رد لرأي من آرائه رد به عليه أحد من البصريين الذين عاصروه، اللهم الا بعض الروايات التي تتحدث عن لقاءات كانت تجري بين الفراء وبعض البصريين، وكانت تنتهي بالاعجاب به.

فقد اجتمع به أبو عمر الجرمي، وسأله عن مسائل، فأجابه عنها، وعرّفه الالزامات فيها، ونهض أبو عمر من مجلسه، وهو يقول لابي محمد سلمة بن عاصم الذي جمعه بالفراء: «يا أبا محمد: ما هذا الا شيطان، يكرر ذلك ثلاثا»[7].

وذكر الزجاجي في مجالسه مجلسين للفراء، احدهما مع الاصمعي، والثاني مع أبي توبة بن دراج.

أما مجلس الاصمعي معه فقد بدأ بسؤال الاصمعي، وانتهى بجواب للفراء أقنعه، وقول الاصمعي له: «أنت أعلم الناس»[8].

وأما مجلس ابن دراج معه فلم يكن مجلس مناظرة، ولكنه كان مجلس افادة، كان ابن دراج يسأل الفراء، وكان الفراء يجيبه عن سؤاله ثم كان يستزيده، فيواصل الفراء كلامه، وينتهي المجلس على مثل هذا[9].

كان الفراء قد أعد نفسه لاتمام العمل الذي بدأه الكسائي الذي رأى الفراء فيه طرازا خاصا جديدا، وكان المذهب الجديد الذي رسمه الكسائي قد لقي في نفسه قبولا، لانه كان كالكسائي قد ألم بالقراءة، وتمثل في نفسه نهج القراء والمحدثين، النهج الذي كان يقوم على اساس من الاعتماد

---

(٧) نزهة الالباء ١٣٦.
(٨) مجالس العلماء ١٧٨.
(٩) مجالس العلماء ١٨٤.

على النقل والاعتداد بالسماع، وكان له من هذا، ومما استوعبه من مذهب أستاذه في الدرس هذه الاصالة الكوفية في دراسته.

ولم يكن الفراء ليتعبد بما أخذ عن البصريين، أو بما وقف عليه من آرائهم، ولا بما أخذه عن الكسائي، ولكنه كان يشارك الدارسين فيما كانوا يخوضون فيه، فقد كان مقرئاً، وكان له قراءة خاصة به رواها تلاميذه في القراءة، هارون بن عبدالله، ومحمد بن عبدالله بن مالك وغيرهم[10]، وكان يأخذ عن علماء البادية، ويشافه الاعراب، ويسمع من العرب، ويروي، ويحدث، وفي كتابه (معاني القرآن) خاصة أمثلة لكثير من رواياته الخاصة في القراءة، وطرقه الخاصة في الحديث، وسماعه من الأعراب، ومشافهته للفصحاء.

فمن رواياته في القراءة:

قوله: «حدثني شريك بن عبدالله عن الاعمش عن ابراهيم أنه خفض الارحام، يعني الارحام في قوله تعالى: ﴿تساءلون به والارحام﴾[11].

وقوله: «وحدثني أبو بكر بن عياش عن الكلبي عن أبي صالح عن ابن عباس أنه قرأ (المعذرون) بالتخفيف في قوله تعالى: ﴿وجاء المعذرون﴾[12].

وقوله: «حدثنا محمد بن عبد العزيز التيمي عن مغيرة عن مجاهد أنه قرأ: (تبلو) بالباء[13].

وقوله: «حدثني قيس عن أبي اسحاق عن عبد الرحمن بن الاسود بن

---

(١٠) ابو زكريا الفراء ١٣٩.
(١١) معاني القرآن ١/٢٥٢.
(١٢) معاني القرآن ١/٤٤٨.
(١٣) معاني القرآن ١/٤٦٣.

يزيد النخعي عن أبيه أنه كان لا يجري (ثمود) في شيء من القرآن » [١٤] .

ومثل هذا كثير .

ومن سماعه من الاعراب :

قوله : « أنشدني بعض العرب » [١٥] .

وقوله : « سمعت بعض العرب يقول » [١٦] .

وقوله : « أنشدني بعض بني أسد » [١٧] .

وقوله : « أنشدني أبو الجراح العقيلي » [١٨] . وقد ذكر ابن النديم أبا الجراح العقيلي في فصحاء العرب المشهورين الذين سمع العلماء منهم [١٩] .

وقوله : « سمعتها من أبي فقعس الاسدي وأبي الهيثم العقيلي » [٢٠] .

وقوله : « وانشدني العكلي ابو ثروان » [٢١] .

وقوله : « وقال لي بعض بني سُلَيم » [٢٢] .

وقوله : « وسمعت أنا (موضَع) بالفتح » [٢٣] .

وقوله : « قد سمعت ذلك من العرب » [٢٤] .

وقوله : « وسمعت أبا السفاح السلّولي يقول : هذا أبو صعرورَ قد جاء ،

---

(١٤) معاني القرآن ٢/٢٠ .
(١٥) معاني القرآن ١/٤٤ .
(١٦) معاني القرآن ١/٥١ .
(١٧) معاني القرآن ١/٦٨ .
(١٨) معاني القرآن ١/٤٢٧ .
(١٩) فهرست بن النديم ٧٠ .
(٢٠) معاني القرآن ٢/٣٤ .
(٢١) معاني القرآن ٢/٣٧ .
(٢٢) معاني القرآن ٢/٣٩ .
(٢٣) معاني القرآن ٢/١٥٠ .
(٢٤) معاني القرآن ٢/٣٧٣ .

فلم يُجْر [٢٥]، لانه ليس من عادتهم في التسمية » [٢٦]. ومثل هذا كثير أيضا.

ان هذه الحصيلة الضخمة التي توافرت للفراء، والتي عززت بعقل مبتكر، وذكاء ناقد كانت قد هيأت الفراء ليكون دارسا له رأيه، وله تفسيره، واذا وازنّا بين سيبويه الذي انتهت اليه الرئاسة في النحو الكوفي البغدادي رأينا الفراء يتجاوز الحد الذي وقف عنده سيبويه الى حد أبعد كان فيه مبتكرا وموجها، وصاحب رأي واجتهاد، تؤيده تلك الموارد الضخمة من القراءات والمسموعات، وكان له من ذلك مادة خصبة لدرس نحوي خصب، وتهيأ له بعد أن توافر لديه كل ذلك أن يعيد النظر فيما وصل اليه النحو البصري من نتائج.

واذا اختلفت أصول الدرس عنده، وتفاوت منهجه عن المنهج الذي سلكه البصريون كان لا بد أن تختلف النتائج، وقد اختلفت فعلا، فاذا بالقواعد الجديدة تتفاوت مع القواعد البصرية القديمة، واذا بالنحو في بغداد يعيد النظر في المنهج والاصول والمسائل، فلم يعد للقياس عنده ما كان له عند البصريين من مكانة في الدرس، ولم يعد للعامل عنده اعتبار، ولم يكن للمصطلحات البصرية التي تقوم على أساس الاعتبارات العقلية، مفهوم في الدرس الجديد، واذا بالنحو في بغداد يعيد النظر في تقسيم الكلمة، فهي: فعل واسم وأداة، وفي تقسيم الفعل فهو: ماض ومستقبل ودائم، وفي فكرة العامل فلم يعد للعامل ذلك السلطان الذي كان له في النحو البصري.

فالفاعل عند الكوفيين البغداديين قد يتقدم على فعله، ويظل فاعلا [٢٧].

والفاعل قد يتأخر عن فعلين ويكون فاعلا للفعلين جميعا في نحو قولهم: أكل وشرب خالد.

---

(٢٥) أي: لم ينون.

(٢٦) معاني القرآن ٢/٢٩٠.

(٢٧) همع الهوامع ١/١٥٩. شرح الاشموني ٢/٣٤.

والمبتدأ والخبر مترافعان اذا كان الخبر هو المبتدأ، ولم يبالوا بما أخذ البصريون به أنفسهم من منح العامل ما للعلة من قوة، ومن أن سبيل العامل «أن يقدر قبل المعمول، وأن القول بترافعهما محال» [٢٨].

والظرف والمجرور في قولهم: زيد أمامك، وعمرو في الدار، هما الخبر لا ما تعلقا به كما قال البصريون.

وأعاد النظر في المصطلحات التي سبق للبصريين أن استخدموها، فتوصل الى مصطلحات أخرى بازائها رآها أوضح دلالة على المقصود، وأقرب الى طبيعة الدرس.

كالنسق بازاء العطف بالحرف.

وكالصلة (صلة الموصول) بازاء الحشو.

وكالعماد بازاء ضمير الفصل.

وكالجحد بازاء النفي. والاقرار بازاء الاثبات.

وكالتبيين بازاء البدل.

وكالاداة بازاء الحرف.

والمحل بازاء الظرف.

والمكنى بازاء الضمير.

والفعل الدائم بازاء اسم الفاعل واسم المفعول.

والفعل بازاء المصدر.

ويجري ولا يجري بازاء ينصرف ولا ينصرف، أي: ينون ولا ينون.

والمردود بازاء المعطوف..

والخلاف، والصرف، والتقريب، وليس لها ما يقابلها عند البصريين.

---

(٢٨) الانصاف في مسائل الخلاف ـ المسألة الخامسة.

الى غير ذلك من المصطلحات التي شاعت في الدرس النحوي في بغداد بعد أن استقل منهجا وموضوعا، ولم يأخذ الفراء بهذه المصطلحات رغبة في المخالفة أو المعارضة كما زعم بعض المتعصبين على الفراء[٢٩]، ولكنه كان في ذلك دارسا واعيا يعرف ما يأخذ وما يترك، ودارسا من طراز جديد خرج على حدود التقليد الذي اتسمت به الدراسة البصرية، وقد كبر ذلك على البصريين، وكان مثار تعصب حاقد، وقد تصدى المتعصبون له بالحملات التي تنم على جمود الفكر وقصور الهمة، وقال قائلهم[٣٠]، حين ذُكِرَ الفراء وأصحابه عنده: «أهل بغداد حشو عسكر الخليفة، لم يكن بها من يوثق به في كلام العرب، ولا من يُرتضى روايته، فان ادعى أحد منهم شيئا رأيته مخلّطاً صاحب تطويل وكثرة كلام ومكابرة، ولا يفصل بين علماء البصرة بالنحو بين الرواسي والكسائي، ولا بين قراءة أهل الحرمين وقراءة حمزة، ويتحفظ أحدهم مسائل من النحو بلا علل ولا تفسير، فيكثر كلامه عند من يختلف اليه، وانما همّ أحدهم اذا سبق الى العلم أن يسيّر اسما يخترعه لينسب اليه، فيسمّى الجر خفضا، والظرف صفة، ويسمون حروف الجر حروف الصفات، والعطف النسق و(مفاعلين) في العروض: (فعولان)، ونحو هذا من التخليط»[٣١].

وليس فيما جاء هنا غير دعاوى مرسلة، تنضح حقدا وعصبية، وتنم على جمود وجدب هما سمة هؤلاء المدعين المقلدين الذين لم يروا أن في الامكان أن يأتي الزمان بأحسن مما كان.

وقد وقع صاحب هذه المقالة في خطأ وتخليط:

فقد نعى على البغداديين أنهم لا يفصلون بين قراءة أهل الحرمين وقراءة

---

(٢٩) أبو زكريا الفراء ٤٤١. مراتب النحويين ١٠١، ١٠٢.

(٣٠) القائل هو: أبو حاتم السجستاني.

(٣١) مراتب النحويين ١٠١، ١٠٢.

حمزة، وكان على خطأ لانهم هم أهل القراءة ومنهم الكسائي أحد القراء السبعة. والفراء الذي كان له قراءة خاصة به.

وعاب عليهم أنهم يحفظون مسائل النحو بلا علل ولا تفسير، ولم يدرك أن ما عابه عليهم ليس بعيب.

وتحامل عليهم لانهم كانوا يسمون الجر خفضا، فدلل على انه كان يصدر عن مرة محترقة، وعلى أنه كان يجهل أن (الخفض) ليس من أوضاعهم، ولا مبتكراتهم، لانه من اوضاع الخليل[٣٢].

كان الفراء، بالرغم من هذا التحامل، من أحذق الدارسين بعد الخليل، وكان من اتساع الذهن أن ألم بثقافات عصره، كما شهد له أحد كبار النظار وهو ثمامة بن الاشرس في الخبر الذي أوردناه قبل هذا، وقد كان الدارسون يعجبون به، ولم يستطع المتعصبون عليه أن ينالوا منه أو يضعفوا من مكانته في نفوس الدارسين.

وكان له تأثير في تطوير الدرس، وتوجيهه وجهة لغوية، وآلت اليه الرئاسة فيه بعد وفاة الكسائي عام ١٨٩ هـ، وجلس للاقراء، وتصدّر مجالس الدرس، واجتمع للاخذ عنه خلق كثير.

وقد روى علمه بالقرآن محمد بن الجهم السمّري[٣٣]، وروى علمه باللغة والنحو أبو عبدالله الطوال الذي وصفه أبو العباس ثعلب بأنه كان حاذقا في العربية[٣٤] وأبو محمد سلمة بن عاصم الذي كان مختصا بالفراء ملازما ايّاه متعصبًا للكوفيين، «على ورع كان فيه شديد، وتأله عظيم»[٣٥].

والى سلمة بن عاصم آل كتاب الفراء في الحدود، وعنه أخذه أبو

---

(٣٢) مفاتيح العلوم للخوارزمي ص ٣٠.
(٣٣) معاني القرآن ص ١.
(٣٤) فهرست ابن النديم ص ١٠١.
(٣٥) مراتب النحويين ص ٩٤.

العباس ثعلب كما أخذ عنه سائر كتب الفراء، ولم يصل الينا كتاب الحدود في النحو، ولكنّ ابن النديم كان قد وقف على نسخة منه بخط سلمة بن عاصم، وذكر لنا ما كان يحتويه من حدود، وأولها: حد الاعراب في أصول العربية، وآخرها: حد ما يجري وما لا يجري، وكانت عدة الحدود التي ذكرها ابن النديم خمسة واربعين حدّاً [٣٦].

ومهما يكن من أمر عدة الحدود فكتاب الحدود كتاب في النحو، ولكنا لا نعرف تفصيل ما تضمنه من آراء، لان الكتاب لم يصل الينا ولا أظن أن المراد بالحد في هذا الكتاب ما يعنيه المناطقة بهذا المصطلح، فالحد عند المناطقة هو بيان الماهية أو الحقيقة، وهو التعريف الجامع المانع، وهو الذي يتألف من الجنس والفصل كقولهم في حد الانسان: (حيوان ناطق) فالحيوان جنس، والناطق فصل، لان هذا المعنى، في أكبر الظن، لم يعرف في بيئات الدرس في عهد الفراء ومعاصريه. ولعل المراد بالحد في كتاب الحدود ما كان يريده الكسائي منه، فقد سئل الكسائي عن حد الفاعل، وحد المفعول، فقال: « حد الفاعل: الرفع أبدا، وحد المفعول به: النصب أبدا » [٣٧] أو ما كان يريده الفراء نفسه بقوله: « مات الكسائي وهو لا يحسن حد (نعم وبئس)، ولا حد (ان) المفتوحة، ولا حدّ الحكاية.. ولم يكن الخليل يحسن النداء، ولا كان سيبويه يدري حد التعجب » [٣٨].

ولعل ما جاء في الهمع يسلط بعض الضوء على ما كان الفراء يعنيه من الحد، فقد جاء فيه: « وألحق الفراء بها (يعني بكان وأخواتها): أسحر وأفجر، وأظهر » [٣٩]، يريد بأسحر: وجد في السحر، وبأفجر وجد في الفجر، وبأظهر: وجد في الظهر، كما كان (أضحى) يعني: وجد في

---

(٣٦) فهرست ابن النديم ص ١٠٠.

(٣٧) معجم الادباء ١٣/١٩٥.

(٣٨) معجم الادباء ١٣/١٨٥.

(٣٩) همع الهوامع ١/١١٢، ١١٣.

الضحى، و(أمسى): وجد في المساء. وليس هذا بالحد في معناه المنطقي المعروف.

وكان الفراء إذا جلس للاملاء في النحو والتفسير اجتمع اليه من الدارسين خلق كثير، وكان يوم تصدى لاملاء (معاني القرآن) هُرِعَ الدارسون الى مجلسه حتى عسر تعدادهم، وحتى كان عدد المستملين من القضاة فقط ثمانين قاضيا [٤٠].

وللفراء من الآراء ما احتل مكانه في أذهان الدارسين، وتردد على ألسنتهم وشاع حتى في الدرس البصري، حتى كان وكأنه منه، فمن ذلك:

رأيه في رفع (يفعل) بأنه يرفع لتجرده من الناصب والجازم، وأخذ أتباع البصريين يرددونه في تعليل رفع (يفعل = الفعل المضارع)، ولم يعد لتعليل البصريين رفعه بوقوعه موقع الاسم أثر في كتاباتهم أو محاوراتهم [٤١].

وله آراء بارزة في النحو البغدادي الكوفي:

كالنصب على الخلاف، أو على الصرف، كنصب الاسم الواقع بعد واو المعية نحو: سار خالد وشاطىء النهر، ونصب الخبر ظرفا نحو: خالد أمامك، وعمرو خلفك، ونصب (يفعل) بعد الواو نحو: «لا تَقْطَعَنْ ذَنَبَ الافعى وتتركها»، او بعد الفاء، نحو: «لا تكسل فتنجحَ»، وكان الفراء قد طبقه على عدة آيات، فاذ عرض لتفسير قوله تعالى: ﴿لم تلبسون الحق بالباطل، وتكتمون الحق﴾ قال: «لو أنك قلت في الكلام: لم تقوم وتقعد يا رجل على الصرف لجاز، فلو نصب (وتكتموا) كان صوابا» [٤٢].

وفسر الصرف بقوله: «أن تأتي بالواو معطوفة على كلام في أوله

---

(٤٠) تاريخ بغداد ١٤/١٥٠.

(٤١) شرح الرضى على الكافية ٢/٢٣١.

(٤٢) معاني القرآن ١/٢٢١.

حادثة لا تستقيم اعادتها على ما عطف عليها، فاذا كان كذلك فهو الصرف، كقول الشاعر:

لا تنه عن خلق وتأتيَ مثله   عار عليك، اذا فعلت، عظيم

ألا ترى أنه لا يجوز اعادة (لا) في (تأتي مثله) فلذلك سمي صرفا، اذ كان معطوفا، ولم يستقم أن يعاد فيه الحادث الذي قبله »[٤٣].

وجوز الفراء الجزم على العطف، والنصب على الصرف في قوله تعالى: ﴿ولا تلبسوا الحق بالباطل وتكتموا الحق﴾، وقوله تعالى: ﴿ولا تكونوا أول كافر به، وتشتروا بآياتي ثمنا قليلا﴾، وقوله تعالى: ﴿ولا تأكلوا أموالكم بينكم بالباطل، وتدلوا بها الى الحكام﴾، وقوله تعالى: ﴿لا تخونوا الله والرسول وتخونوا أماناتكم﴾[٤٤].

وكالرفع بعد (لولا)، فقد رأى الفراء ـ وصار رأيا كوفيا بغداديا ـ أن (لولا) هي الرافعة، فقد قال في تفسير قوله تعالى من سورة الفتح: ﴿ولولا رجال مؤمنون ونساء مؤمنات﴾: « رفعهم بلولا. ثم قال: أن تطئوهم، فأن في موضع رفع بلولا »[٤٥].

وقال الرضي: « قال الفراء: لولا هي الرافعة للاسم الذي بعدها، لاختصاصها بالأسماء »[٤٦].

وحين نعرض لنحو الكوفة أو بغداد، ومنهج الدارسين البغداديين في دراستهم النحو نكون قد أوفينا الكلام في آراء الفراء، لان النحو البغدادي الكوفي انما هو نحو الفراء.

وربما نسبوا الى الفراء من الاقوال ما لم يقله، ومن الاراء ما لم يره،

---

(٤٣) معاني القرآن ١/٣٤.
(٤٤) معاني القرآن ١/٣٣.
(٤٥) معاني القرآن (ورقة ٦٠).
(٤٦) شرح الرضى على الكافية ١/١٠٤.

وكأنهم يتعمدون ذلك ليجعلوا منها مسألة خلافية يتبارون في الاحتجاج عليها، وربما أجروا ذلك على لسان أبي العباس ثعلب لينطلي ذلك على الدارسين لعلمهم بشدة لزوم ثعلب لاراء الفراء. فقد نسب الزجاجي القول باسمية (نعم وبئس) الى الفراء نقلا عن ثعلب في مجلس له مع الرياشي[٤٧]، وردده النحاة المتأخرون، وكأنه أمر مسلّم به.

ونسب أبو البركات الأنباري القول باسميتها الى الكوفيين عامة، وجعل مسألة (نعم وبئس) احدى مسائل الخلاف، وهي المسألة الرابعة عشرة من مسائل (الانصاف).

غير أن الذي يقف على أقوال الفراء يستغرب أن يسير التمويه أو التدليس أو الخطأ، ويشيع حتى لكأن ذلك حقيقة واقعة. لقد عرض لنعم وبئس في أكثر من موضع من كتابه (معاني القرآن)، ولم يكن في كلامه ما يشير الى أنهما اسمان.

قال الفراء في تفسير قوله تعالى: ﴿فساء قرينا﴾: «ويجوز ألا تذكر الرجلين، فتقول: بئسا رجلين، وبئس رجلين، وللقوم نعم قوما، ونعْموا قوماً وكذلك من المؤنث، وانما وحدوا الفعل، وقد جاء بعد الاسماء، لان (بئس ونعم) دلالة على مدح أو ذم، لم يرد منهما مذهب الفعل مثل قاما وقعدا»[٤٨].

وقال في تفسير قوله تعالى: ﴿وبئس القرار﴾، وقوله تعالى: ﴿بئس للظالمين بدلا﴾: «والعرب توحد نعم وبئس وإن كانتا بعد الاسماء، فيقولون أما قومك فنعموا قوما، ونعم قوما، وكذلك (بئس). وانما جاز توحيدها، لانهما ليستا بفعل يلتمس معناه انما أدخلوهما لتدلا على المدح

---

(٤٧) مجالس العلماء ٥٩.

(٤٨) معاني القرآن ١/٣٦٨.

والذم، ألا ترى أن لفظها لفظ (فعل) وليس معناها كذلك »[٤٩].

فلم يشر الفراء فيما نقلنا له من آراء وأقوال الى أن (نعم وبئس) اسمان، والذي يفهم من هذه الاقوال أن الفراء كان يرى أنهما فعلان جامدان، وأنهما لم يرد بهما الى معنى الفعل، لانهما خلصا للمدح والذم، وليس معنى هذا أنهما اسمان.

على أنه كان يرى أنهما ينصبان ويرفعان، وتلحقهما تاء التأنيث الساكنة، وألف الاثنين وواو الجمع كسائر الافعال، فقد قال في تفسير قوله تعالى: ﴿فساء قرينا﴾: « بمنزلة قولك: نعم رجلا، وبئس رجلا، وكذلك: « ساءت مصيرا » و« كبر مقتا »، وبناء نعم وبئس ونحوهما أن ينصبا ما وليهما من النكرات، وأن يرفعا ما يليهما من معرفة غير مؤقتة[٥٠]، وما أضيف الى تلك المعرفة، وما أضيف الى نكرة كان فيه الرفع والنصب »[٥١].

ومهما يكن من أمر فان الرجل كان من علو المنزلة في العلم ما جعل خصومه يتحامون لقاءه ونظارته، ويلوذون بالتعصب عليه، فلم يضره ذلك، ولم يمس مكانته بسوء، وارتد التعصب والتحامل الى صدور خصومه لتزداد حسرة واتقادا.

---

(٤٩) معاني القرآن ٢/١٤١.
(٥٠) يريد بالمعرفة غير الموقتة ما كان معرفة بأل. أو بالاسماء الموصولة.
(٥١) معاني القرآن ١/٢٦٧.

اصحاب الفرّاء

وتلمذ للفراء كثير من الدارسين كانوا يحضرون مجالس الاملاء، ويلازمونه، ويستكثرون عنه، وبرز من تلاميذه اعلام حملوا الامانة وشاركوا في تثبيت قواعد المذهب. وكان من أشهرهم:

أبو محمد سلمة بن عاصم (توفي بعد سنة ٢٧٠ هـ). تلميذ الفراء، وحامل علمه، وراوي كتبه. روى كتاب معاني القرآن، وكتاب الحدود في النحو وكان ثعلب أخذ معاني الفراء وحدوده عن سلمة، وكان يقول: «كان سلمة حافظا لتأدية ما في الكتب»[1].

لم يكن سلمة بن عاصم يحضر مجلس الفراء يوم املاء المعاني، وكان يأخذه ممن كان يحضره، وربما فاتش الفراء فيما كان يراه سهوا فيه. أما كتاب الحدود فقد أخذه عن الفراء اذ كان الفراء صَنَّفَه. وكتاب الحدود كتاب في النحو الخالص، والحدود فيه ستون حدًّا، ولكن ابن النديم عرض لها، وعدتها عنده خمسة وأربعون حدًّا[2]، واثبت هذه الحدود عن نسخة بخط سلمة أولها: حد الاعراب في أصول العربية، وآخرها: حد ما يجري وما لا يجري[3]. فاين ذهبت الخمسة عشر حدًّا وهي فرق ما بين عدة ابن

---

(١) طبقات النحويين واللغويين ١٥٠.
(٢) طبقات النحويين واللغويين ١٥٠. انباه الرواة ٢/٥٧. نزهة الالباء ٢٠٤.
(٣) فهرست ابن النديم ١٠٠.

النديم وعدة غيره؟

لعل مرد هذا الاختلاف في العدد هو من فعل النسّاخ، وميل بعضهم الى الايجاز بدمج أكثر من حد في حد واحد، كما استظهر الدكتور الانصاري[٤] أو ميل بعضهم الى التفصيل بفك الحدود التي تنتظم أكثر من موضوع واحد مثل (حد مِنْ ورُبَّ) و(حد الذي ومَنْ وما) و(حد إِذْ واذا واذن) كما استظهر، لان رواية ابن النديم أولى بالاعتبار، لانه ذكر الحدود حدًّا حدًّا، ولانه نقلها من نسخة وقف عليها بخط سلمة بن عاصم نفسه.

على أن الدارس لا يكاد يقف على رأي لسلمة في كتب النحو، وقد يكون الامر كما فطن أبو العباس ثعلب حين قال: «كان سلمة حافظا لتأدية ما في الكتب»، فكان سلمة بن عاصم حافظا ضابطا ثقة، يؤدي ما في الكتب ولا يشارك برأيه فيما يؤديه.

وأبو عبدالله الطوال محمد بن أحمد بن عبدالله (توفي سنة ٢٤٣ هـ). كان من جلة أصحاب الفراء، كما ذكر القفطي[٥] وغيره، وكان أحد الثلاثة المشاهير من أصحاب الفراء الذين ذكرهم ثعلب فيما نقل عنه، ولم يشتهر للطوال تصنيف، غير أن كتب النحو تناقلت بعض آرائه، ومن آرائه:

أنه أجاز تقديم الفاعل الذي اتصل به ضمير المفعول، نحو: (ضرب غلامه زيدا) في اختيار الكلام[٦]، لوروده في النظم كثيرا، كقول الشاعر:

جزى ربه عني عدي بن حاتم جزاء الكلاب العاويات وقد فعل

---

(٤) أبو زكريا الفراء ١٨٣.

(٥) انباه الرواة ٢/٩٢.

(٦) همع الهوامع ١/٦٦.

وقول الشاعر:

جزى بنوه أبـا الغيلان عـن كبر وحسن فعل كما يُجـزَى سنمّـار

وذهب الى أن اللام في نحو قولهم: ان زيدا لشاعر « جواب قسم مقدر قبل انّ»[7]، ولم يبعد هذا عن تسمية اللام عند الكوفيين بلام التوكيد، لان اللام الواقعة في جواب القسم هي لام التوكيد.

وابن قادم أبو جعفر أحمد بن عبدالله بن قادم، صاحب الفراء « كان يؤدب ولد سعيد بن قتيبة الباهلي »[8]، وقد أخذ عنه ثعلب، وربما كان ثعلب يفضله على سلمة بن عاصم وأبي عبدالله الطوال، اذْ قال: « وكان ابن قادم حسن النظر في العلل »[9].

ولم أقف على رأي له، غير أن المترجمين له ذكروا أنه سئل يوما: « كيف يقال: وهذا المال مالا، أو هذا المال مال»، فقال: الوجه « وهذا المال مال »، ويجوز « وهذا المال مالا ». ولا ريب أن تجويزه النصب في قولهم: « وهذا المال مالا » انما يصدر عن مذهب بغدادي كوفي هو النصب على التقريب، وقد جاء فيما حكى ثعلب قولهم: « كيف أخاف الظلم وهذا الخليفة قادما، أي الخليفة قادم، فكلما رأيت (هذا) يدخل ويخرج والمعنى واحد فهو تقريب.. من كان من الناس مرزوقـا فهـذا الصيـاد محرومـاً، والصيّادُ محرومٌ، باسقاط (هذا) بمعنًى، فقد دخلت لتقرب الفعـل مثـل (كان) »[10].

ولم أجد من نص على السنة التي توفي فيها ابن قادم، غير أن المترجمين له ذكروا أنه خرج من بيته لتلبية أمر المعتز بالله بمثوله بين يديه، ولم يعد

(٧) همع الهوامع ١/١٤٠.

(٨) معجم الادباء ١٨/٢٠٧.

(٩) طبقات النحويين واللغويين ١٥٠.

(١٠) مجالس ثعلب ٣٥٩، ٣٦٠.

الى البيت. وذكر ياقوت أن ذلك في سنة احدى وخمسين ومئتين[11]، وهو في أكبر الظن، وهم من ياقوت لان ابن قادم كان شوهد في مجلس ثعلب شيخا يتوكأ على عصا سنة ٢٥٥[12]، ولان خلافة المعتز كانت بين سنة ٢٥٢، وسنة ٢٥٥[13].

ولابن قادم من المصنفات: كتاب الكافي في النحو، وكتاب غريب الحديث.

وأبو جعفر محمد بن سعدان (توفي سنة ٢٣١ هـ). كان مقرئا، وكان نحويا «أخذ القراءة عرضا عن سليم بن عيسى عن حمزة، وعن يحيي بن المبارك اليزيدي عن أبي عمرو، وعن اسحاق بن محمد المسيبي عن نافع، وعن معلى بن منصور عن أبي بكر بن عاصم، فقد أخذ بهذا عن أهل المدينة والكوفة والبصرة[14].

ولمحمد بن سعدان آراء في مسائل النحو تتناقلها كتب النحو، منها:

ذهابه الى أن (ربَّ) هي للتقليل[15].

وذهابه الى أن (كلا) بمنزلة (سوف)[16].

وانكاره أن يعطف بـ (لا) نداء، وكان يرد على سيبويه في اجازته نحو قولهم: يا ابن أخي لا ابن عمي، وكان يقول: ليس هذا من كلامهم»[17]. وكان سيبويه يقول: «وتقول: يا زيد وعمرو ليسَ إلّا أنهما قد اشتركا في النداء في قوله (يا)، وكذلك يا زيد وعبدالله ويا زيد لا

---

(١١) معجم الادباء ٢٠٩/١٨.
(١٢) طبقات النحويين واللغويين ١٥١. انباه الرواة ١٥٧/٣.
(١٣) المعارف ١٧٢. تاريخ الطبري ١٦٦٨/١٢ فما بعدها.
(١٤) معجم الأدباء ٢٠٢/١٨.
(١٥) همع الهوامع ٢٥/٢.
(١٦) همع الهوامع ٧٥/٢.
(١٧) همع الهوامع ١٣٧/٢.

عمرو، ويا زيد أو عمرو، لان هذه الحروف تُدخِل الرفع في الآخر كما دخل في الاول، وليس ما بعدها بصفة، ولكنه على (يا)»[18].

وذهابه في نحو قولهم: خاصم زيد عمرا الكريمان والكريمين الى جواز اتباع كل منهما، «لان كلا منهما مخاصم ومخاصم، فهو فاعل ومفعول به»[19].

وأبو جعفر محمد بن حبيب (توفي سنة ٢٤٥ هـ) من علماء بغداد باللغة والشعر والاخبار والانساب الثقات[20]، وكان أبو الطيب اللغوي يرى أنه «صاحب اخبار، وليس في اللغة هناك»[21]. ويبدو ان ابا الطيب كان ينظر اليه كما كان ينظر الى الدارسين في بغداد جملة، على أنهم «حشو عسكر الخليفة، لم يكن بها من يوثق به في كلام، ولا من يرتضي روايته»، بل كان ينظر الى بغداد أنها «مدينة ملك وليس بمدينة علم، وما فيها من العلم فمنقول اليها، ومجلوب للخلفاء وأتباعهم ورعيّتهم، ونيتهم بعد ذلك في العلم ضعيفة[22].

غير أن ابن النديم يراه غير ذلك. كان يقول في ترجمته: «كان من علماء بغداد بالانساب والاخبار واللغة والشعر والقبائل وعمل قطعة من أشعار العرب. روى عن ابن الاعرابي وقطرب وأبي عبيدة وأبي اليقظان وغيرهم، وكان مؤدبا وكتبه صحيحة[23]. وكان أبو سعيد السكري يستكثر عنه[24].

---

(١٨) الكتاب ٣٠٥/١.
(١٩) همع الهوامع ١١٩/٢.
(٢٠) معجم الادباء ١١٢/١٨.
(٢١) مراتب النحويين ٩٦.
(٢٢) مراتب النحويين ١٠١.
(٢٣) فهرست ابن النديم ١٥٥.
(٢٤) انظر: معجم الادباء ١١٣/١٨.

ثبت ابن النديم له عدة مصنفات منها: كتاب الامثال على أفعل، وكتاب المحبر وكتاب نقائض جرير والفرزدق، وأكبر كتبه هو كتاب القبائل الكبير جمعه للفتح بن خاقان، وكان ابن النديم قد رأى النسخة بعينها في نيف وعشرين جزءا، ويظن أنها تبلغ في العدة أكثر من هذا، وذكر أن لهذه النسخة فهرستاً بخط التستري بن علي الوراق [٢٥].

وكان ثعلب يوثقه، ويرى أن يعقوب بن السكيت أعلم منه باللغة، ولكنه أحفظ للأنساب والاخبار من يعقوب [٢٦].

---

(٢٥) فهرست ابن النديم ١٥٦.

(٢٦) تاريخ بغداد ٢/٢٧٨. معجم الادباء ١٨/١١٤.

ثعلب

ابو العباس أحمد بن يحي (توفي سنة ٢٩١ هـ)

دخل المأمون بغداد سنة اربع ومئتين للهجرة، وكان بين شهود الركب رجل يحمل على يده طفلا له لا يتجاوز عمره أربع سنوات، فلما مر المأمون قال الرجل لطفله: « هذا المأمون، وهذه سنة أربع »[١].

وبقي الطفل الذكي يتذكر هذه العبارة، فكان يؤرخ لحياته ويقول: « كان أبي قد حملني على يده، فلما مر المأمون رفعني وقال لي: هـذا المأمـون وهذه سنة أربع، فحفظت ذلك الى هذه الغاية، وحذقت العربية، وحفظت كتب الفراء كلها حتى لم يشذ عني حرف منها، ولي خمس وعشرون سنة »[٢].

وكان يقول: « مات الكرخي معروف سنة مئتين، وفيها ولدت، وطلبت العربية سنة ست عشرة ومئتين، وابتدأت بالنظر في حدود الفراء ولي ثماني عشرة سنة، وبلغت خمسا وعشرين سنة، وما بقي علي للفراء مسألة الا وأنا أحفظها، وأضبط موضعها من الكتاب، ولم يبق من كتب الفراء في هذا الوقت شيء الا وأنا قد حفظته »[٣] وعُمِّر أبو العباس طويلا حتى تجاوز عمره تسعين سنة، وكان سبب موته أنه كان يسير في الطريق

---

(١) نور القيس ٣٣٤.
(٢) معجم الادباء ١٠٣/٥.
(٣) نزهة الالباء ٢٩٤، ٢٩٥.

وهو يقرأ كتابا، فصدمته دابة لم يسمع وقع حوافرها لصمم ألم به « فسقط على رأسه في هوة من الطريق أخذ ترابها، فلم يقدر على القيام »[٤]، وكان قد بلغ من العمر تسعين سنة وأشهرا وكان ذلك سنة احدى وتسعين ومئتين للهجرة « وكان قد رأى أحد عشر خليفة، أولهم المأمون، وآخرهم المكتفي »[٥].

هذا هو أبو العباس أحمد بن يحي ثعلب الذي انتهت اليه الرئاسة في بغداد بعد الفراء، بعد أن لم يملأ الفراغ الذي تركه في بيئات الدرس أحد من تلاميذه الكثر الذين لازموه، واستكثروا عنه.

وتصدر أبو العباس ثعلب مجالس الدرس، واختلف الدارسون الى مجلسه، وهو حدث لم يتجاوز الخامسة والعشرين من عمره[٦]. وقد عرف مذ هو حدث بالحفظ والضبط والصدق وغزارة العلم، ورواية الغريب والشعر القديم حتى « إن أبا عبدالله بن الاعرابي (وهو أحد الشيوخ الذين أخذ عنهم ثعلب) كان يشك في الشيء فيقول له: ما عندك يا أبا العباس في هذا؟ ثقة بغزارة حفظه »[٧].

ولم ير أبو العباس ثعلب الفراء لان عمره كان يوم توفي الفراء لا يزيد على سبع سنوات، ولكنه تلمذ له بقراءة كتبه على سلَمة بن عاصم، وقد ألم بآرائه وآراء الكسائي أيضا، وحفظ لنا أقوالها التي وقف عليها فيما فقد من كتبهما، ككتاب المعاني للكسائي، وكتاب الحدود في النحو للفراء.

وقد تأثر أبو العباس نهجهما في احترام القراءات، والاعتداد بالسماع، والاحتجاج بكلام العرب، ولم يكن معتدا بالقياس ولا طالبا له، ولا معنيا بالتعليل والتأويل، « وكان يقول: قال الكسائي والفراء، فاذا سئل عن

---

(٤) معجم الادباء ١٠٧/٥.
(٥) معجم الادباء ١٠٥/٥.
(٦) تاريخ بغداد ٢٠٩/٥.
(٧) تاريخ بغداد ٢٠٥/٥.

الحجة والحقيقة في ذلك لم يعرف النظر »[8].

وقد أخذ أبو العباس عن أعلام عصره في النحو واللغة والادب والحديث والقراءة، فكان يأخذ النحو عن سلمة بن عاصم، كما ذكرنا، واللغة عن أبي عبدالله محمد بن زياد الاعرابي، والادب عن محمد بن سلام الجُمَحي.

قال أبو الطيب اللغوي: «كان ثعلب يعتمد على ابن الاعرابي في اللغة، وعلى سلمة بن عاصم في النحو، ويروي عن ابن نجدة كتب أبي زيد، وعن الاثرم، كتب أبي عبيدة، وعن أبي نصر كتب الاصمعي، وعن عمرو بن أبي عمرو كتب أبيه »[9].

وذكر الخطيب البغدادي أنه «سمع ابراهيم بن المنذر الحزامي[10]، ومحمد بن سلام الجمحي، ومحمد بن زياد الاعرابي، وعلي بن المغيرة الاثرم، وسلمة بن عاصم، وعبدالله بن عمر القواريري، والزبير بن بكار »[11].

وتلمذ له أكثر أعلام الدرس الذين نبهوا بعده في بيئات الدرس في بغداد، وكان من أوائل الدارسين عليه: أبو اسحاق الزجاج، وأبو الحسن ابن كيسان، وعلي بن سليمان الاخفش، وأبو بكر بن الانباري، وأبو عمر الزاهد، وأبو بكر بن شقير، وأبو بكر محمد بن عبد الملك التاريخي السراج البغدادي، وغيرهم.

وكان أبو العباس ثعلب في دراسته -من وجهة النظر اللغوية الحديثة- أقرب ما يكون الى الدرس النحوي الحق، فقد عرف حدود الدرس النحوي، فوقف عندها، ولم يضره ولا ضار منهجه ما ظنه البصريون طعنا

(٨) معجم الادباء ٥/١٢٠.
(٩) مراتي النحويين ٩٦.
(١٠) وفي معجم الادباء ٥/١٠٨: الحراني.
(١١) تاريخ بغداد ٥/٣٠٤.

عليه، فعدم اعتداده بالقياس او بالتعليل، واعتماده السماع والنقل جعل منه دارسا نحويا أصيلا. وهذا هو السبب الذي جعله يتحامى لقاء المبرد، كما قيل، لانه لم يبن دراسته على أسس عقلية، ولا حذق أساليب المتكلمين في الجدل والنظارة، فاذا اجتمع هو والمبرد للمناظرة مال الناس الى المبرد، لالتزامه اساليب الفلسفة واتسامه بقوة المنطق. وكان أبو العباس ثعلب في بغداد مرجع الدارسين غير منازع، حتى اذا ورد المبرد بغداد اخذ بعض الدارسين من تلاميذه ينقطعون عنه، لانهم رأوا في المبرد طرازا جديدا من الدارسين، وبمجلس الدرس الذي يتصدره نحوا جديدا أيضا لم يألفوا مثله فيما كانوا يسمعون من ثعلب.

وكان من تلاميذه الذين انقطعوا عنه أبو علي الدينوري زوج ابنته، وكان أبو علي يخرج من دار ثعلب يحمل محبرته ودفتره فيتخطى أصحابه الى مجلس المبرد، وكان ذلك يغيظه، وربما عاتبه على ذلك، وقال له: «إذا رآك الناس تمضي الى هذا الرجل، وتقرأ عليه يقولون ماذا»[١٢]، ولكن أبا علي كان يمضي لا يلوي على شيء ولا يلتفت اليه.

وكان أبو اسحاق ابراهيم بن السري الزجاج من الدارسين الذين كان اعتمادهم على ثعلب أولاً، فلما ورد المبرد بغداد أراد أن يناظره، فذهب اليه، واستأذنه في المفاتشة فأذن له، وكان يعتزم اعناته، فلما باحثه ألجمه المبرد بالحجة، وألزمه بإلزامات لم يهتد الزجاج اليها، فتيقن فضله، واسترجع عقله، ثم انقطع عن ثعلب ولازم المبرد، وكان الزجاج هو الذي يتحدث عن هذا[١٣]، ولم يسمع ـ مع ذلك ـ من الزجاج ما يغض من علم ثعلب، أو يمس مكانته في العلم والحفظ والصدق. والمسألة عند الزجاج، كما يفهم من كلامه، مسألة احتجاجات والزامات وتعليلات، وهذه أمور لم

---

(١٢) طبقات النحويين واللغويين ١٥٦.

(١٣) معجم الادباء ١٩/١١٧، ١١٨. نزهة الألباء ٢٩٠.

يعهدها في ثعلب، لان ثعلباً كان يصدر عن مذهب لغوي لا مكان للقياس فيه، ولا صلة له بالاعتبارات العقلية والاساليب الكلامية، فلم يكن النحو ليكون ميداناً للصراع العقلي، ولا موضوعاً من موضوعات الفلسفة والكلام.

ولم يكتف المبرد بملازمة الزجاج اياه، وانقطاعه عن استاذه، وكأن نفس المبرد لم تجد الهدوء فيما تم له من ملازمة الزجاج اياه، وانقطاعه عن منافسته، ففرض عليه أن يقطع كل الاسباب التي تشده الى استاذه، وأمره أن يطرح كتبه وكتب أصحابه [١٤]، واستجاب الزجاج له في كل ما أمره به، وكان ذلك للمبرد خير هبة، وخيراً من الثلاثين درهماً التي كان يجريها الزجاج عليه كل شهر.

وباشتداد المنافسة بين الرجلين، واضطرام العصبية بين أصحابها برزت شخصية سيبويه، وظهر كتابه في بغداد، وكانت أقوال البصريين في (الكتاب) تمهد لهذا الظهور، فقد كان أبو عثمان المازني يقول: «من أراد أن يصنف كتاباً كبيراً بعد كتاب سيبويه فليستحي» [١٥] وكان المبرد يقول لمن يريد أن يقرأ عليه كتاب سيبويه: «هل ركبت البحر! تعظيماً له، واستصعاباً لما فيه» [١٦].

ولا أظن المبرد كان يعني ما يقول، ولكنه رأى في الدعوة للكتاب ما يحقق رغبته في الغلبة، ولو عنى ما قال حقاً لما تصدى له هو فنقض بعض ما جاء فيه، ثم انتصر له أحد تلاميذه وهو ابن ولاد.

والحق أن الكتاب جدير بأن يتسنم هذه المنزلة في نفوس الدارسين، لأنه المورد العظيم الذي صدر عنه الدارسون كل الدارسين، فهو اذن كتاب

---

(١٤) طبقات النحويين ١١٩ ... انباء الرواة ٣/٢٥٠.

(١٥) اخبار النحويين البصريين ٣٩.

(١٦) أخبار النحويين البصريين ٣٩.

الدارسين وإمامُهم، لا أستثني أحداً منهم، ولم يكن هذا ليعني الالتزام بمنهجه والاكتفاء بما جاء فيه، فقد كان للبغداديين فعلاً وجهة نظر أخرى، وأسس مذهبية خاصة، ولذلك تفاوتت النتائج، واختلف خط المسير، وكانت افادة البغداديين الأولين من الكتاب سبيل البصريين للتكاثر عليهم والتضعيف من شأنهم، حتى لكأن العلم حكر على البصريين، لا ينبغي أن يجترىء دارس آخر فيدلي برأي يخالف آراءهم، أو ينهج منهجاً يعارض منهجهم.

ومات أبو العباس أحمد بن يحيى ثعلب فَخَلَّفَ مصنفات كثيرة منها: كتاب معاني الشعر، وكتاب الفصيح، وكتاب (المجالس) وهو «مجالسات وأمال أملاها على أصحابه في مجالسه، تحتوي على قطعة من النحو واللغة والأخبار ومعاني القرآن والشعر رواها عنه جماعة»[17]. وخلف فوق ذلك علماً كثيراً، ونهجاً قويماً، ودرساً نحوياً حيّاً، ولم تستطع ادعاءات الخصوم أن تخفي السمات التي اتسم بها الرجل وهي الحفظ والضبط والصدق وغزارة العلم، ولم يستطع غمط هذا حتى المبرد الذي كان أعنف المنافسين له فقد كان يقول: «أعلم الكوفيين ثعلب»[18]. وسأل أبو عمر الزاهد أبا بكر بن السراج فقال له: «أي الرجلين أعلم؟ ثعلب أم المبرد؟ فقال: ما أقول في رجلين العالم بينهما!»[19].

---

(١٧) فهرست ابن النديم ١١١.

(١٨) نزهة الالباء ٢٩٥.

(١٩) معجم الادباء ١٣٨/٥.

خصائص المذهب البغدادي

لا بد، لكي نرسم خطوط المذهب البغدادي (الكوفي). أن نثبت الخطوط الرئيسة للمذهب البصري. ثم الخطوط الرئيسة للمذهب البغدادي، ليتسنى لنا أن نوازن بين المذهبين، ونقف على أسس الخلاف بينهما.

وبالرجوع الى النحو البصري، والى الشيوخ الذين يمثلونه تطالعنا أمور:

أن من خصائص الدرس النحوي البصري تحكيم المنطق في الظواهر اللغوية، واخضاع الاصول الى أحكام العقل، واصطناع أساليب المتكلمين في تثبيت أصل، أو توضيح قاعدة.

وخير ما يمثل هذا ما دار بين محمد بن يزيد المبرد الذي انتهت اليه الرئاسة في النحو البصري، وأحمد بن يحي ثعلب، الذي انتهت اليه الرئاسة في النحو البغدادي، من مناظرة في مسائل لغوية أو نحوية في مجلس محمد بن عبدالله بن طاهر، فقد طرح ابن طاهر في ذلك المجلس أسئلة تتعلق باللغة والنحو ليتناقش فيها الرئيسان...

ومن جملة هذه الاسئلة سؤال يتعلق بهمزة (بين بين). ساكنة ام متحركة؟». قال احمد بن يحي: لا ساكنة، ولا متحركة، فقال ابن طاهر للمبرد: ما تقول يا محمد؟ قال المبرد «قوله: لا ساكنة، قد أقرّ أنّها متحركة، وقوله لا متحركة قد اقر انها ساكنة، فهي ساكنة لا ساكنة،

متحركة لا متحركة». فقال ابن طاهر «فلم سميت بين بين؟ قال المبرد: «لانها اذا خففت فقد جعلت بين الهمزة وبين ما منه حركتها»[1].

بمثل هذا الاسلوب كان المبرد يتناول موضوعات الدرس النحوي أو اللغوي، وبهذه الالزامات العقلية كان ينشد الغلبة على منافسه، ولم يكن المبرد في مناظرته مع ثعلب الا سوفسطائياً يتذرع بالبهرجة ليحظى باعجاب ابن طاهر وجلاسه، وقد نجح في الوصول الى الغاية، فقد ضمه ابن طاهر اليه واختصه في مجلسه.

ولم يحكم البصريون المنطق في الدرس النحوي الا لانهم كانوا يعتقدون ان اللغة تجري وفق منطق العقل لا تحيد عنه، وهو اعتقاد خطأ لا يقره الدرس اللغوي، لان للغة منطقاً خاصاً لا علاقة له بمنطق العقل، ولو أراد نحوي أن يحكم منطق العقل في اللغة وقوانينها لما وصل الى تفسير صحيح للظواهر اللغوية، ولكان انتهى درسه الى مثل ما انتهى اليه الدرس البصري.

٢ ـ وأن الدرس البصري يعتد بالقياس، ويجعله أصلاً من أصول الدرس والقياس هو الانتقال من الكليّ إلى الجزئيّ، وقد أدّى به هذا إلى احترام الأصول العامة الموضوعة، ومن أجل احترام هذه الاصول كانوا لا يلتفتون الى كل مسموع، فاذا واجههم مسموع صحيح موثوق بقائله ولا ينتظمه الاصل لجئوا الى التأويل والتقدير، فان خضع للاصل الموضوع وإلّا وصفوه بالشذوذ وجعلوه من الشّاذّ الذي يحفظ ولا يقاس عليه، واذا لم تصح روايته عندهم ردوه.

بهذا يفسر موقفهم من القراءات، فقد كانوا يتناولونها كما يتناولون المسموعات من العرب، فان انتظمتها الاصول قبلوها وان لم تخضع لتلك الاصول وصفوها بالشذوذ، او بالخطأ واللحن، وطعنوا على القراء،

---

(١) مجالس العلماء ـ الزجاجي ١٢٣.

ورموهم بالجهل بالعربية.

فإذا تناولوا قوله تعالى: ﴿إنّ هذان لساحران﴾ بالالف وقوله: ﴿زُيِّنَ لكثير من المشركين قتلُ أولادَهم شركاؤهم﴾ بنصب الاولاد وقوله تعالى: ﴿تَساءلون به والأرحامِ﴾ بالخفض، رفضوه لانه يخالف الاصول، وتمسكوا بمقالة جاءتهم عن بعض الصحابة: «إنّ في المصحف لحناً وستقيمه العرب»[٢]، كما تمسك أبو عمرو بن العلاء، ورفض قراءة الآية بالالف، وكان يقول: «اني لاستحي من الله تعالى أن أقرأ: «إنّ هذان»[٣] مع أن هذه القراءة جاءت موافقة للغة بني الحارث بن كعب، وزبيد، وخثعم وبني كنانة اذ يجعلون الاثنين في رفعها وخفضها بالالف، وهي لغات حكاها أبو الخطاب الاخفش، وأبو زيد الانصاري والكسائي والفراء[٤].

ومن اليسير أن نتصور موقفهم من الاحاديث التي تخالف أصولهم، ورفضهم الاستشهاد بها بحجة ان الاحاديث انما رويت بالمعنى وان كثيراً من حملتها لم يكونوا عرباً، فلم يؤمن اللحن ان يتطرق الى رواياتهم، وان لم يتعمدوه. غير انهم كانوا على وهم في الموقفين.

١ - أمّا موقفهم من القراءات فلأن القراءات انما تعتمد صحة النقل وسلامة الرواية، وهذا هو طريقها، وعلى حين كان البصريون يدعون أنهم يتشددون في الرواية، ويزعمون أنهم يأخذون اللغة عن الاعراب الموثوق بفصاحتهم كانوا يترددون في قبول القراءات اذا خالفت أصولهم، ويطعنون على القراء، وينسبون اليهم الجهل بالعربية، مع ان «ائمة القراء لا تعمل في شيء من حروف القرآن على الافشى في اللغة والاقيس في العربية بل على الاثبت في الاثر والاصح في النقل، والرواية إذا ثبتت عنهم لم يردها قياس

---

(٢) معاني القرآن ٢/١٨٣.
(٣) تفسير القرطبي ١١/٢١٦.
(٤) معاني القرآن ٢/١٨٤.

عربية ولا فشو لغة »[٥].

وكان ابن خالويه يقول في مقدمته لكتاب (الحجة): « وبعد، فإني تدبرت قراءة الائمة السبعة من أهل الامصار الخمسة المعروفين بصحة النقل، واتقان الحفظ، المأمونين على تأدية الرواية واللفظ، فرأيت كلاً منهم قد ذهب في اعراب ما انفرد به من حرفه مذهباً من مذاهب العربية لا يدفع، وقصد من القياس وجهاً لا يمنع، فوافق باللفظ والحكاية طريق النقل والرواية، غير مؤثر للاختيار على وجب الآثار »[٦].

وعرض أبو حيان لتفسير قوله تعالى ﴿وكذلك زُيِّنَ لكثير من المشركين قتلُ أولادِهم شركاؤهم﴾ وهي قراءة عبدالله بن عامر، فقال: « جمهور البصريين يمنعونها، متقدموهم ومتأخروهم، ولا يجيزون ذلك إلا في ضرورة الشعر. وبعض النحويين اجازها وهو الصحيح لوجودها في هذه القراءة المتواترة المنسوبة الى العربي الصريح المحض، الآخذ القرآن عن عثمان بن عفان قبل أن يظهر اللحن في لسان العرب »[٧].

٢ ـ وأما موقفهم من الأحاديث فلأن كثيراً من رواة الحديث كانوا من الفصحاء كالصحابة والتابعين، ومن هؤلاء: عامر بن شراحيل الشعبي الذي كاثر به أبو بكر بن عياش مناظره في مجلس ابي العباس: « واين انت عمّن لم ترَ عينُك مثله في زمانه من اصحاب النبي، ولا احفظ، ولا افقه في الدين، ولا اصدق، ولا اعرف بمغازي النبي ﷺ، وايام العرب، وحدود الاسلام والفرائض والغريب والشعر، ولا اوصف لكل أمر من عامر بن شراحيل الشعبي »[٨].

---

(٥) النشر في القراءات العشر ١/١٠.
(٦) الحجة في القراءات السبع ـ ابن خالويه ٣٧، ٣٨ بيروت.
(٧) البحر المحيط ٤/٢٢٩.
(٨) مختصر كتاب البلدان ١٧١ ليدن.

وعبدالله بن شبرمة الذي تحدث عنه الجاحظ فقال: « كان فقيهاً عالماً قاضياً، وكان راوية شاعراً، وكان خطيباً ناسكاً وكان حاضر الجواب مفوهاً، وكان لاجتماع هذه الخصال فيه يشبه بعامر الشعبي »[(٩)].

وأيوب بن أبي تميمة الذي قال الحسن البصري متحدثاً عنه « أيوب سيد شباب أهل البصرة »[(١٠)] والذي كان يقول: « تعلموا النحو فإنه جمال الوضيع، وتركه هجنة للشريف »[(١١)].

وحماد بن سلمة الذي كان يقول: « من لحن في حديثي فقد كذب علي »[(١٢)].

فترْك الاستشهاد بالحديث تعنّت اتسمت به حذلقتهم وتقصرهم، وهدر لجانب كبير من مصادر الدرس النحوي.

والبصريون باعتمادهم على القياس انما يصدرون عن اعتقاد بأن اللغة منطقية، وعن اعتداد بالعقل وأحكامه، وقد أومأنا الى أن ذلك خطأ في المنهج لأن اللغة لا تخضع للاحكام العقلية، ولا تجري وفق الاسس المنطقية، لأنها ليست ثابتة، ولأنها ظاهرة حيوية اجتماعية، تتطور بتطور الحياة نفسها، وتسير وفق قوانين يحدد الاستعمال اتجاهاتها، فهي اذن متغيرة لا تبقى على حال، بل التغير من مقومات وجودها، ولولا اعتقادهم بثباتها، وعدم تغيرها لما اصطنعوا التأويلات والتقديرات، لأن التقديرات انما تهدف الى رد الكلمة الى قالبها الذهني المتطور.

ومن أجل هذا لم يكونوا يعتدون بالسماع، والسماع المقبول عندهم ما انتظمته الاصول العامة، والاعتبارات العقلية التي اصطنعوها، ومن أجل

---

(٩) البيان والتبيين ١/٣٢٣.

(١٠) البيان والتبيين ٣/هامش ١٥٤.

(١١) البيان والتبيين ٢/٢٣٣.

(١٢) أخبار النحويين البصريين ٤٣ بيروت.

هذا ايضاً لم يقبلوا السماع إذا لم يرد بالتعليل الى تلك الاصول الموضوعة.

أما خصائص الدرس البغدادي (الكوفي) فألخصها فيما يأتي:

١ ـ الأول أن البغداديين كانوا يعتدون بالسماع والنقل، ويتخذون من المسموعات أساساً لوضع قواعدهم، وكان من عادتهم «أنهم اذا سمعوا لفظاً في شعر او نادر كلام جعلوه باباً»[١٣]. وانهم «لو سمعوا بيتاً واحداً فيه شيء مخالف للاصول جعلوه اصلاً وبوبوا عليه»[١٤]. وان مذهبهم «لواؤه بيد السماع، لا يخفر له ذمة، ولا ينقض له عهداً، ويهون على الكوفي نقض أصل من أصوله، ونسف قاعدة من قواعده، ولا يهون عليه اطراح المسموع»[١٤].

وكان لهم من القراءات موقف خاص يتميزون به من البصريين، فقد كانوا يجعلون من القراءات مصدراً مهماً من مصادر علمهم، لا يرفضون قراءة صح سندها، ولا يطعنون على قارىء ولا يرمونه بالجهل إذا كانت تخالف الاصول الموضوعة. ويرجع اعتدادهم بالقراءات، وجعلها في مقدمة المصادر التي يستندون اليها الى:

١ ـ أن البغداديّيْن الكسائي والفراء كانا قد نشآ في الكوفة، وأن الكوفة كانت مهبط الصحابة ومنزل التابعين، وقد نزل فيها عدد كبير، وصارت الكوفة بهم موطن القراءات وكان فيها من ائمة القراءة: عاصم بن أبي النجود، وحمزة بن حبيب الزيات، وعلي بن حمزة الكسائي، وترجع قراءاتهم جميعاً إلى أبي عبد الرحمن السلمي وزر بن حبيش، وكان هذان مرجع القراءة في الكوفة والبصرة. وقد عرف هؤلاء القراء بالضبط والاتقان، وبالالمام الواسع باللغة.

فقد كان عاصم بن أبي النجود يجمع «بين الفصاحة والاتقان

---

(١٣) جمع الهوامع ١/٤٥.

(١٤) نظرة في النحو/مجلة المجمع العلمي بدمشق م ١٤ جـ ٩، ١٠ ص ٣١٩.

والتجويد »[١٥].

وعرف عن حمزة بن حبيب الزيات أنه « كان ثقة كبيراً، حجة رضياً، قيّماً بكتاب الله، مجوِّداً، عارفاً بالفرائض والعربية »[١٦].

أما الكسائي فحاله معلومة فهو إمام من أئمة العربية، مع أنه من أئمة القراءة، وهو رأس مدرسة بغداد في النحو.

وكان للقراءات تأثير كبير في النحو البغدادي، وفي النتائج التي توصل اليها البغداديون مما كان مخالفاً لما انتهى اليه البصريون، ولم يعد للاصول البصرية الموضوعة ذلك الاعتبار لدى الدارسين الجدد، ولا للسيطرة العقلية على القواعد البصرية تأثير في القواعد البغدادية.

فـ (انَّ) مثلاً عند البصريين حرف له قوة الفعل في العمل، لأنها تشبه الفعل من خمسة أوجه:

« الاول: أنها مبنية على الفتح، كما أن الفعل الماضي مبني على الفتح.

والوجه الثاني: أنها على ثلاثة أحرف، كما أن الفعل على ثلاثة أحرف.

والوجه الثالث: أنها تلزم الاسماء، كما أن الفعل يلزم الاسماء.

والوجه الرابع: أنها تدخل عليها نون الوقاية، كما تدخل على الفعل، نحو انني، وكأنني، ولكنني.

والوجه الخامس: أن فيها معاني الأفعال، فمعنى (انَّ وأَنَّ)، حقَّقْت. ومعنى (كأن): شبَّهْت، ومعنى (لكن): استدرَكْت ومعنى (ليت): تمنيت، و(لعل): ترجيت »[١٧].

وعلى ما لأنَّ من شبهٍ بالفعل عندهم منحت تأثير الفعل، وعملت نصباً

---

(١٥) غاية النهاية ١/٣٨٦.

(١٦) النشر ١/١٦٦.

(١٧) أسرار العربية ـ الأنباري ٦١ ليدن.

ورفعاً، كما عمل الفعل، وصارت (إنّ) عند البصريين وكأن العمل من لوازمها، فإذا ورد من كلام العرب ما يخالف هذا ردوه، فإذا لم يستطيعوا رده، لشيوعه في الاستعمال، وكثرته في الكلام راحوا يتأولون ويقدرون حتى تستقيم القاعدة، ويبقى لـ (إنّ) سلطانها في الكلام.. يفعلون ذلك حتى فيما كان منه في القرآن.

ومن الأمثلة على تمسكهم بهذه القاعدة: موقفهم من قراءة أهل الكوفة قوله تعالى: ﴿إنّ هذان لساحران﴾ فقد كان أبو عمرو يقرأ: «ان هذين لساحران» ويرى أن قراءة «إنّ هذان لساحران» لحن، محتجاً بأنه «بلغه عن بعض أصحاب محمد ﷺ أنه قال: «إنّ في المصحف لحناً وستقيمه العرب»[18]، وكان يقول: «اني لأستحي من الله أن أقرأ: أن هذان»[19]. ومن قرأها بالالف منهم لجأ الى التأويل، فبعضهم أضمر الهاء - ضمير الشأن - والمعنى: «إنّه هذان لساحران»[20]، ومن لم يضمر الهاء قدر أن تكون (إنّ) في هذه الآية بمعنى نعم، وحمل عليه قوله ﷺ: «إنّ الحمدُ - بالرفع - لله نحمده ونستعينه»[21].

وتناول الفراء هذه الآية بالتفسير، وعرض للقراءات المختلفة فيها. للمروي عن عائشة: «هذا خطأ من الكاتب»[22]، ولقراءة أبي عمرو واحتجاجه بما بلغه عن بعض الصحابة مما ذكر من قوله: «ان في المصحف لحناً وستقيمه العرب»... تناول الفراء ذلك، وعرض لكل ذلك، ولكنه جرى على ما كان في المصحف، وقال: «ولستُ أشتهي ان أخالف

(١٨) معاني القرآن ١٨٣/٢، تفسير القرطبي ١١/.

(١٩) القرطبي ٣١٦/١١. البحر المحيط ٢٥٥/٦، وجاء في البحر المحيط: أنه «قال الزجاج: لا أجيز قراءة أبي عمرو لأنها خلاف المصحف».

(٢٠) تفسير القرطبي ٢١٩/١١.

(٢١) تفسير القرطبي ٢١٨/١١.

(٢٢) معاني القرآن ١٨٣/٢.

الكتاب »[٢٣].

وأكبر الظن أن هذا وما شابهه كان سبيل البغداديين (الكوفيين) الى ما ذهبوا اليه، من أن (إنّ) لا تعمل إلا في الاسم، أما الخبر فيرتفع على الأصل، وذلك لضعفها. والى ما ذهب اليه الفراء والكسائي من جواز العطف على اسم (انَّ) بالمرفوع قبل أن تُسْتَكْمَلَ الجملة، إلا أن الفراء يقيد ذلك بأن يكون الاسم بعد (إنّ) مما لا يظهر فيه النصب، كقوله تعالى من سورة المائدة: ﴿أن اللذين آمنوا والذين هادوا والصابئون والنصارى الآية﴾.

قال الفراء: « فان رفع (الصابئين) على أنه عطف على (الذين)، و(الذين) حرف على جهة واحدة في رفعه ونصبه وخفضه، فلما كان اعرابه واحداً، وكان نصب (ان) نصباً ضعيفاً، وضعفه أنه يقع على الاسم، ولا يقع على خبره ـ جاز رفع الصابئين، ولا استحب ان أقول: إنّ عبدالله وزيد قائمان، لتبين الاعراب في (عبدالله)، وقد كان الكسائي يجيزه لضعف (إنّ) »[٢٤].

والفاعل في عبارة الشرط ـ مثلاً آخر ـ قد يتقدم على الفعل حتى يلي أداة الشرط، نحو قوله تعالى من سورة النساء: ﴿إنِ آمرؤ هَلَكَ﴾ وقوله تعالى من سورة التوبة: ﴿وإنْ أحدٌ من المشركين استجارك﴾، وغيرها من الآيات، وهو كثير.

فالبصريون يعربون الفاعل المتقدم فاعلاً لفعل محذوف يفسره المذكور، ويكون تقدير الآيتين عندهم: إن هلك امرؤ هلك، وإن استجارك احد من المشركين استجارك، ولا يجوز عندهم ان يكون فاعلاً للفعل المذكور، لأن تقديم الفاعل عندهم ممتنع « لأن الفاعل تنزّل منزلة الجزء من الكلمة،

---

(٢٣) المصدر نفسه.
(٢٤) معاني القرآن ١/٣١٠، ٣١١.

وهو الفعل» [٢٥].

أما البغداديون أو الكوفيون، كما سموا فيما بعد، فلا يلتزمون الاعتبارات العقلية، وليس للمنطق سلطان على دراستهم، ولذلك اجازوا تقديم الفاعل على الفعل تمسكاً بهاتين الآيتين، وما أشبههما، وبقول الزبّاء:

ما للجمال مشيُها وئيدا ... أجندلا يحملن أم حديدا

وأكبر الظن أن المرفوع من الآيتين فاعل عندهم، وعند الفراء خاصة للفعل المذكور، وقد تناول الفراء هاتين الآيتين بالتفسير، وذهب الى جواز ان يجزم الفعل فيهما لو جاء مكانهما (يفعل)، وتجويزه جزم الفعل بإنْ مع فصلها عن الفعل بالاسم المتقدم يدل في وضوح على أنه لم يتصور قط أن يكون هناك فعل محذوف مفسر بالمذكور، فقد قال الفراء: وقوله: ﴿إن امرؤ هلك﴾: (هلك) في موضع جزم، وكذلك قوله: ﴿وإن أحد من المشركين استجارك﴾، لو كان مكانها (يفعل) كانتا جزماً، كما قال الكميت:

فان أنت تفعلْ فللفا عليـ ... ـن أنت، المُجيزين تلك الغمارا

وأنشد بعضهم:

صعدة نابتة في حائر ... اينما الريح تميّلْها تَمِلْ

الا أن العرب تختار اذا أتى الفعل بعد الاسم في الجزاء أن يجعلوه (فَعَلَ) لأن الجزم لا يتبين في (فعل)، ويكرهون أن يفترض شيء بين الجازم وما جزم» [٢٦].

فلم يبد في كلامه هذا ما ينمُّ على أن الاسم المرفوع في الآيتين فاعل لفعل محذوف. وقوله: «ويكرهون أن يعترض شيء بين الجازم وما جزم» يشير الى أن الاسم مقحم بين الفعل وأداة الشرط، وأنه فاعل للفعل الذي تأخر عنه.

---

(٢٥) أسرار العربية ٣٥ ليدن.

(٢٦) معاني القرآن ١/٢٩٦، ٢٩٧.

٢ ـ وأن البغداديَّيْن الكسائي والفراء أنفسهما كانا من القرّاء.

أما الكسائي فأمره معروف، لأنه كان مقرئاً قبل أن يكون نحوياً، ولم يتعلم النحو إلا على كبر [٢٧]، وكان أحد السبعة الأئمة في القراءة. قرأ على حمزة مذاكرة، كما قال ابن حجر، ثم قرأ عليه القرآن أربع مرات [٢٨]، وكان قد سمع القراءة من سليمان بن أرقم، وأبي بكر بن عياش، وسفيان ابن عيينة، وأقرأ الناس في بغداد بقراءة حمزة زماناً، ثم اتخذ لنفسه قراءة.

وقد تلمذ له في القراءة ببغداد خلق كثير، في مقدمتهم: أبو زكريا الفراء، وأبو عبيد القاسم بن سلام، وأبو عمر حفص بن عمر الدوري [٢٩].

وأما الفراء فقد عني بالقراءة عناية كبيرة، وكان قد أخذ القراءة عن الكسائي، وروى القراءات بطرقه الخاصة، وقد أشرنا اليها في غير هذا المكان، والدارس الذي يقف على أقوال الفراء ورواياته وحكاياته يتّضح له عمق اتصاله بالقراءات، بل كان له قراءة خاصة، وأماليه في معاني القرآن يتوزعها علمه بالعربية، وعلمه بالقرآن وقراءاته.

كان يقول في قوله تعالى ﴿خلق الأولين﴾: «قراءة الكسائي» «خَلْق الأولين». قال الفراء: وقراءتي «خُلُق الاولين» [٣٠].

ويقول في قوله تعالى: ﴿ثلاث عورات لكم﴾: «نصبها عاصم والأعمش، ورفع غيرهما، والرفع في العربية أحب الي، وكذلك أقرأ، والكسائي يقرأ بالنصب» [٣١].

وقد يختار قراءة على قراءة بعد أن يعرض للقراءات المختلفة، فإذا

---

(٢٧) تاريخ بغداد ١١/٤٠٣.

(٢٨) تهذيب التهذيب ٧/٣١٣.

(٢٩) تاريخ بغداد ١١/٤٠٣.. مرآة الجنان ١/٤٢٢.

(٣٠) معاني القرآن ٢/٢٨١.

(٣١) معاني القرآن ٢/٢٦٠

اختار قراءة وجهها توجيهاً، وربما علل لها بشيوع استعمالها عند العرب، أو بشيوعها عند القراء.

ومن ذلك قوله في تفسير قوله تعالى: ﴿ولا يأتون البأس الا قليلاً أشِحَّةً﴾: يقول: جبناء عند البأس، أشحة عند الانفاق على فقراء المسلمين، وهو أحبها الي، والرفع جائز على الائتناف، ولم أسمع أحداً قرأ به »[٣٢].

وقوله تعالى: ﴿فهل ترى لهم من باقية﴾: « تدغم اللام عند التاء من بل وهل، وأجل، ولا تدغم في اللام التي قد تتحرك في حال، واظهارها جائز، لان اللام ليست بموصولة بما بعدها، كاتصال اللام من النار وأشباه ذلك، وانما صرت أختار « هل تستطيع » و« بل نظنكم » فأظهِرُ لان القراءة من المولدين مصنوعة، لم يأخذوها بطابع الاعراب، انما أخذوها بالصنعة، والاعرابي ذلك جائز له، لما يجري على لسانه من خفيف الكلام وثقيله »[٣٣].

ومثل هذا قوله في تفسير قوله تعالى: ﴿قل هل تَرَبَّصون بنا إلا إحدى الحُسْنَيَيْن﴾: « يقول: هل تدري، وهتَّدري، فقرأها القرّاء على ذلك، وأنا أستحب في القراءة خاصة تبيان ذلك، لأنها منفصلان ليسا من حرف واحد، وإنما بني القرآن على الرسل والترتيل واشباع الكلام »[٣٤].

وقوله في قوله تعالى: ﴿شهد الله أنّه لا إله إلا هو وأنَّ الديـن عنـد الله الاسلام﴾: « قد فتحت القراء الالف من (أنه) ومن قوله: ﴿ان الدين عنـد الله الاسلام﴾... وان شئت استـأنفـت (إن الديـن) بكسرتها، وأوقفـت الشهادة على « أنه لا اله الا هو » وكذلك قرأها حمزة، وهو أحب الوجهين اليَّ »[٣٥].

---

(٣٢) معاني القرآن ٢/٣٣٨.

(٣٣) معاني القرآن ٢/٣٥٣.

(٣٤) معاني القرآن ١/٤٤١.

(٣٥) معاني القرآن ١/١٩٩، ٢٠٠.

أما أحاطته بالقراءات فغير خاف، فلا تكاد تمر به قراءة أُجمع عليها، او اختلف فيها إلا نص على الاجماع، أو نسب الاختلاف الى أصحابه.

والبغداديون من أجل ما سبق بيانه يجعلون القراءات أعلى مراتب المصادر التي كانوا يصدرون عنها في استخلاص الاصول النحوية، وإنْ كانت القراءة مما يعارض الاصول الموضوعة، أو مما يعارض ما جاء في صحيح الشعر وأبيات الشواهد التي بنى النحاة عليها قواعدهم أو بعض قواعدهم، فلم يرد الفراء أن يخالف الكتاب وإنْ تعارض مع الاصول المتعارف عليها. وان لم يكن لها وجه في العربية (الرسمية)، فقد غمز الفراء أبا عمرو اذ قرأ: إن هذين لساحران، محتجاً بما بلغه عن بعض أصحاب محمد ﷺ أنه قال: «إن في المصحف لحناً وستقيمه العرب» فقال الفراء بعد أن ذكر ذلك: «ولست أشتهي على أن أُخالف الكتاب»[٣٦].

وحين عرض لاختلاف القراء في قوله تعالى: ﴿ان هذان لساحران﴾، ولزعم بعضهم ـ ولا أظنه الا أبا عمرو ـ أنه لحن، قال: ولكنا نمضي عليه لئلا نخالف الكتاب»[٣٧].

وحين أراد أن يوجه الخفض في قراءة بعضهم قوله تعالى: ﴿يطوف عليهم ولدان مخلدون بأكواب وأباريق وكأس من معين، لا يُصَدَّعون عنها ولا ينزفزن، وفاكهة مما يتخيرون، ولحم طيرٍ مما يشتهون، وحورٌ عِينٌ﴾، أعني في قوله: (وفاكهة)، وقوله: (ولحم طير)، وقوله: (وحور عين) قال: «فخفض بعض القراء، ورفع بعضهم الحور العين. قال الذين رفعوا: الحور العين لا يطاف بهن، فرفعوا على معنى قولهم: وعندهم حور عين، أو: مع ذلك حور عين، فقيل: الفاكهة واللحم لا يطاف بهما، انما يطاف بالخمر وحدها، والله أعلم، ثم أتبع آخر الكلام أوله، وهو كثير في كلام

---

(٣٦) معاني القرآن ٢/١٨٣.

(٣٧) معاني القرآن ٢/١٨٣.

العرب وأشعارهم، وأنشدني بعض بني أسد يصف فرسه:

علفتهــا تبنــاً ومــــاء بـــارداً حتى شتـت همّـالـة عينـاهـا [٣٨]

وعقب على ذلك بما يدل دلالة واضحة على تحكيمه القراءة فيما يصار اليه من أصول وقواعد: «والكتاب أعرب وأقوى في الحجة من الشعر» [٣٩] يريد أنه لا حاجة بالدارس الى أن يُلتمس الحجة من الشعر ما دامت القراءة على ذلك لأن القراءة أقوى في الحجة من الشعر.

ومما هو بسبب من اعتدادهم بالقراءة أن يعتدوا بالحديث، ويحتجوا به في اثبات حكم، أو تقرير قاعدة، ولكنهم فيما بدا لي من استقراء آرائهم واقوالهم أن احتجاجهم بالحديث قليل، ولا أعني بهذا أنهم لا يحدثون، أو لا يأخذون عن المحدثين، فلم يكن هذا ليكون من مذهبهم ولا من أسلوبهم في الدرس.

واكبر الظن أنهم، أو في الاقل اوائلهم، كانوا من القراء أو المعنيين بالقراءات، وقد وجدوا في رواية اللغة وفي رواية القراءة من مذاهب الكلام، والوان التعبير ما كفاهم مئونة البحث في الحديث.

أو لعلهم رأوا أن الاحاديث لم تكن لتقرأ أو تُجوّد، كما كان القرآن يُقرأ ويُجوّد فتتسرب الى القراءات خصائص اللهجات التي انضوت تحت لهجة قريش التي اتخذت لغة الشعر والخطابة وغيرهما من فنون الكلام.

أو لعلهم رأوا أن الاحاديث لا تقتصر على قول النبي الكريم بل تشمل فعله واقراره أيضا، ولذلك جاز رواية الحديث بالمعنى، أما القرآن فلا يجوز تغيير نصه، ولا تبديل كلماته، ولا قراءته بالمعنى، ولم يكن اختلاف القراءات ليعني تغييرا في النص ولا تبديلا للفظ، ولكنه يعني التيسير على المسلمين أن يقرءوه بما كان يتيسر لهم، ربما تضطرهم اليه عاداتهم اللغوية

---

(٣٨) الشاهد هنا هو عطف الماء على التبن، والماء لا يعلف ولكنه يشرب.

(٣٩) معاني القرآن ١/١٤.

التي تعودوها من ادغام أو بيان، أو فتح أو امالة، أو همز، أو تسهيل، أو ترقيق، أو تفخيم، أو نحو ذلك، ربما دخل في السبعة الاحرف اختلاف في وجوه الاعراب[٤٠]. ومن أجل التخفيف على المسلمين والتيسير عليهم أباح النبي ﷺ للمسلمين أن يقرءوا من القرآن ما تيسر لهم، وجاء عنه الحديث المشهور: «أنزل القرآن على سبعة أحرف فاقرءوا ما تيسر منه»[٤١]. أو قال: «ان هذا القرآن أنزل على سبعة أحرف فاقرءوا ولا حرج ولكن لا تختموا ذكر رحمة بعذاب، ولا ذكر عذاب برحمة»[٤٢]، أو قال: «ان القرآن أنزل على سبعة أحرف كلها شاف كاف»[٤٣]. وزعم الزركشي أن الخليل بن أحمد كان يفسر الحرف بالقراءة[٤٤]، وجاء في اللسان: «روى الازهري عن أبي العباس ولعله يعني ثعلبا ـ أنه سئل عن قوله: «نزل القرآن على سبعة أحرف» فقال: «ما هي الّا لغات»[٤٥].

غير أن في الاحاديث ثروة لغوية ضخمة لفتت انتباه اللغويين فأقبلوا عليها يصنفون فيها المصنفات على غرار المصنفات التي صنفت في غريب القرآن. ومن هذه المصنفات:

كتاب غريب الاحاديث والاثار لابي عبيد القاسم بن سلام المتوفى سنة ٢٢٤ للهجرة.

وكتاب الغريبين غريبي القرآن والحديث لابي عبيد الهروي المتوفى سنة ٤٠١ للهجرة.

وكتاب الفائق في غريب الحديث لابي القاسم الزمخشري المتوفى سنة ٥٨٣ للهجرة.

---

(٤٠) مناهل العرفان ـ الزرقاني ١
(٤١) صحيح البخاري ٦/٢٢٨
(٤٢) البرهان في علوم القرآن ١/٢١٢.
(٤٣) مناهل العرفان ١/١٣٢.
(٤٤) البرهان في علوم القرآن ١/٢١٤.
(٤٥) لسان العرب ٩/٤١.

وكتاب المجرد للغة الحديث لموفق الدين البغدادي المتوفى سنة ٦٢٩ للهجرة.

وكانت هذه المصنفات وغيرها منبعا ثرا للمعجمات اللغوية، أفادت منها كثيرا، وأغنت منها كثيرا، ولو شئنا لاوردنا مما جاء فيها من غريب كثيرا من الامثلة لولا أن ذلك يخرج بنا عن حدود موضوعنا.

غير أن الاحاديث التي تتعلق بالدرس النحوي قليلة جدا، ولم أجد عند الفراء وثعلب من البغداديين من الاحاديث التي لها صلة بالدرس النحوي شيئا ذا بال اذا قرنت بالاحاديث التي تتعلق بالقرآن والقراءات، وفي معاني القرآن من هذه الاحاديث ما يعسر حصره.

ومن الاحاديث التي احتج بها الفراء لتقرير مسألة تشبه أن تكون نحوية ما جاء في (معاني القرآن) حين عرض الفراء لقوله تعالى من سورة البقرة: ﴿إِلَّا أن يخافا أَلَّا يقيما حدود الله﴾، فقد عرض للقراءات المختلفة، قراءة عبدالله بن مسعود: «الا أن تخافوا» وقراءة حمزة: «الا أن يُخافا» ببناء الفعل لما لم يسم فاعله، وقراءة أُبَيّ «الا أن يظنا ألا يقيما حدود الله»، لم يرد الفراء قراءة منهن على اختلافهن، وكل ما عقب به على قراءة حمزة أنه قال: «ولا يعجبني ذلك»[٤٦]، أما قراءة أُبَيّ فقال في تصحيحها: «والخوف والظن متقاربان في كلام العرب، من ذلك: أن الرجل يقول: قد خرج عبدك بغير اذنك، فتقول أنت: قد ظننت ذاك، وخفت ذاك، والمعنى واحد»[٤٧]. ثم استشهد بقول الشاعر:

أتاني كلام من نُصَيْب يقوله ... وما خفت يا سلّام أنك عائبي

وبقول الآخر:

اذا مت فادفني الى جنب كرمة ... تروّي عظامي في الممات عروقها
ولا تدفنني في الفلاة فانني ... أخاف اذا ما مت أن لا أذوقها

---

(٤٦) معاني القرآن ١/١٤٥.
(٤٧) معاني القرآن ١/١٤٦.

قال الفراء: «والخوف في هذا الموضع كالظن لذلك رفع (أذوقها)، كما زفعوا «وحسبوا أن لا تكونُ فتنة» وقد روي عنه ﷺ: «أمرت بالسواك حتى خفت لادردنّ، كما تقول: ظن ليذهبَنَّ»[٤٨].

وقد استقريت ما جاء عند ثعلب في مجالسه من أحاديث فاذا هي كثيرة، ولكنني لم أقف منها على جديد في هذه المسألة، يذكر ثعلب الحديث ليفسره، أو ليذكر مناسبته، أو ليشرح غريبه، أما الاحتجاج به على حكم نحوي، أو على تصحيح مسألة فشيء - في حدود علمي - لم أقف عليه.

وكنت من قبل وأنا أدرس منهج مدرسة الكوفة قد تابعت الزاعمين أن أئمة الدارسين من الكوفيين والبصريين كانوا قد رفضوا الاستشهاد بالحديث، أمثال البغدادي في (خزانة الادب) فقد رأيته يزعم أن الحديث لم يعن به أئمة النحو المتقدمين من المصرين في الاحتجاج، أو الاستشهاد، وأن المتأخرين افترقوا فرقتين، فمنهم من منع الاستدلال به، ومنهم من جوزه.

ومن المانعين: ابن الضائع وأبو حيان، وسندهما أمران:

أحدهما: أن الاحاديث لم تنقل كما سمعت من النبي وانما رويت بالمعنى، كما جاء عن سفيان الثوري قوله: «ان قلت لكم اني أحدثكم كما سمعت فلا تصدقوني انما هو المعنى[٤٩]»: وأن كثيرا من رواتها كانوا من غير العرب، وقد تعلموا العربية بالصناعة «فوقع اللحن في كلامهم وهم لا يعلمون»[٥٠].

وثانيهما: أن أئمة النحو المتقدمين من المصرين لم يحتجوا بشيء منه[٥١]،

---

(٤٨) معاني القرآن ١/١٤٦.

(٤٩) مقدمة الخزانة ص ٥.

(٥٠) مقدمة الخزانة ص ٦.

(٥١) مقدمة الخزانة ص ٥.

وقد رددت هذا في فصل خاص به[٥٢].

ومن المجوزين: ابن مالك، والرضيّ الاسترابادي، وجاء الشاطبي فتوسط، وجوّز الاستدلال بالاحاديث التي اعتُني بنقل ألفاظها[٥٣].

ولا أظن المقصود من الاحتجاج بالاحاديث أن يستخلص منها النادر من كلم، أو يشرح الغريب منها، فذلك ما لم يدر في ذهن المانعين، ففي كتب الاقدمين، وفي المعجمات اللغوية من الاحاديث ما يعسر حصره، ولم يرفضه الائمة، ولم يثنهم عن الاحتجاج به مقالة المحدث الكبير سفيان الثوري ولا غيره.

ويبدو لي أن المانعين كانوا قد اجتهدوا فأخطئوا، وكانت حججهم في المنع افتراضات لا تتصل بواقع الحال بسبب، لان رواية الحديث بالمعنى ليست سبيل المحدثين جميعا، ولو كانت سبيلهم فعلا لما حال ذلك دون الاحتجاج بها، لان كثيرا من حملة الحديث ورواته كانوا في مرتبة عالية من الفصاحة كالصحابة والتابعين والحفاظ الضابطين. ولان المحدثين من غير العرب لم يجازوا الا بعد الاطمئنان الى أنهم كانوا غاية في الضبط والاتقان، ولذلك كان يونس بن حبيب النحوي يحتج بكلام أبي علي الاسواري فيما حكى الجاحظ في البيان والتبيين، وكان الخليل بن أحمد على جلالة قدره يأخذ الحديث عن أيوب بن أبي تميمة السختياني.

على أن المسألة فيما يبدو لي لا تعني الافادة من غريب الحديث، وانما تعني الاحتجاج به لاصل نحوي أو قاعدة عامة، وهو ما لم يظهر له أثر فعلا في كلام الائمة المتقدمين، أو لم يكن مأخوذا به على نطاق واسع كما أخذ بالرواية عن الاعراب وعلماء البادية، أو بقراءات القرآن.

٢ ـ ومن الخصائص المذهبية للدرس النحوي في بغداد أنه كان يخضع

---

(٥٢) مدرسة الكوفة ص ٥٩.

(٥٣) مقدمة الخزانة ص ٦.

القياس للنقل، ويعمل البغداديون جاهدين أن يغيّروا الاصول لتكون وفق الامثلة المسموعة، وهو دليل واضح على اعتدادهم بالسماع واعتدادهم بالرواية، واتساع دائرة النقل عندهم، ولكن البصريين كانوا ينفذون من هذا الى الطعن عليهم، فقد عدوا ترخصهم في قبول ما يأباه القياس إفسادا للنحو، حتى قال ابن درستويه غامزا الكسائي: « كان الكسائي يسمع الشاذ الذي لا يجوز الا في الضرورة فيجعلــه أصلا ويقيس عليــه فــأفسـد النحو »[٥٤]، وحتى كان الرياشي يعيب على الكوفيين منحاهم في قبول كل ما يصح لديهم من كلام العرب فيقول: « انما أخذنا اللغة عن حرشة الضباب، وأكلة اليرابيع، وهؤلاء أخذوا اللغة عن أهل السواد أصحاب الكواميخ وأكلة الشواريز »[٥٥].

وقال أبو نصر الفارابي اللغوي: « والذين عنهم نقلت اللغة العربية، وبهم اقتدي، وعنهم أخذ اللسان العربي من بين قبائل العرب هم: قيس وتميم وأسد، فان هؤلاء هم الذين عنهم أكثر ما أخذ ومعظمه، وعليهم اتّكِلَ في الغريب، وفي الاعراب والتصريف، ثم هـذيـل، وبعـض كنـانـة وبعـض الطائيين، ولم يؤخذ عن غيرهم من سائر قبائلهم. وبالجملة فانه لم يؤخذ عن حضري قط، ولا عن سكان البراري ممن كان يسكن أطراف بلادهم المجاورة لسائر الامم الذين حولهم »[٥٦].

قيل كل هذا ليغمزوا البغداديين تصريحا أو كناية، ولكن لا ينبغي أن يجوز هذا ونحوه على الدارسين، فلغة الحواضر في الحجاز هي اللغة الفصحى التي نزل بها القرآن، وهي التي كان أهلها يتعهدونها بما كانوا يستحسنون من لغات القبائل التي كانت تفد على مكة وغيرها في المواسم، ويتخيرون من كلامهم وأشعارهم أحسن ما في لغاتهم، وأصفى ما في كلامهم، ثم

(٥٤) بغية الرعاة ٣٣٦.

(٥٥) أخبار النحويين البصريين ٩٠ بيروت.

(٥٦) المزهر ١/٢١٢.

يضيفون ذلك الى ما طبعوا عليه فصاروا من أجل ذلك أفصح العرب، كما أشار اليه الفراء وغيره[٥٧]. ولم تكن قريش بمعزل عن الاتصال بالامم الاجنبية في الشمال والجنوب. فلا وجه لمقالة أبي نصر وزعمه أن العلماء من المصرين لم يأخذوا عن حضري قط، ولا عمن سكن أطراف بلاد العرب المجاورة لسائر الامم الذين حولهم. ويبدو أن آخر كلامه يخالف أوله، فمن القبائل التي أخذ العلماء عنها اكثر ما أخذوا ومعظمه: أسد، وأسد من القبائل التي جاورت النبط والفرس، ولم تحُل مجاورتها اياهم دون أن تكون من القبائل التي وصفت لغتها بالفصاحة.

يؤيد هذا أن الكسائي لما طلب النحو، ووفد على البصرة، واختلف الى مجلس الخليل بن أحمد يسمع منه، ويستكثر عنه قال له «رجل من الاعراب: تركت أسدا وتميا وعندهما الفصاحة وجئت الى البصرة!»[٥٨].

ويؤيده أيضا أن ابن النديم كان قد عقد فصلا في فهرسته عرض فيه للفصحاء من الأعراب الذين سمع العلماء منهم، وأخذوا عنهم، وكان من هؤلاء من قصد الى البصرة وبغداد، واتصلوا بالعلماء من المصرين، وأقاموا فيهما وربما اصطنع بعضهم الوراقة كأبي خيرة، وأبي مالك عمرو بن كركرة، وربما اتصل بعضهم بالبرامكة كأبي شبلي العقيلي، وأبي العميثل الذي كان يؤدب عبدالله بن طاهر بخراسان، وأبي الجاموس ثور بن يزيد الذي كان يفد على آل سليمان بن علي، وعنه أخذ ابن المقفع الفصاحة، وأبي البيداء الرياحي، وكان أعرابيا نزل البصرة، وأقام فيها، وكان يعلم الصبيان بأجرة[٥٩].

وكأبي المهدي أو أبي مهدية الحجازي، والمنتجع اللذين أقاما في البصرة وكانا من سلامة اللغة أنهما كانا مرجع الدارسين فيما كان يشكل عليهم،

(٥٧) المزهر ١/٢٢١. الصاحبي ٢٣.
(٥٨) نزهة الالباء ٨٣.
(٥٩) فهرست ابن النديم ٦٦ فما بعدها.

وكان أبو عمرو بن العلاء يحتج بكلامهما ويستفتيهما [٦٠].

ويؤيده أيضاً ما تحدث به الجاحظ عن قصاص من الاعاجيب، منهم أبو علي الأسواري الذي كان يقص في مسجده ستاً وثلاثين سنة، كان يقص في موضوعات كثيرة، ويجعل للقرآن نصيباً من قصصه «وكان يونس بن حبيب يسمع منه كلام العرب، ويحتج به» [٦١].

فأين يقع بعد هذا ما تحدث به أبو نصر الفارابي، وما زعمه أبو الفضل الرياشي، وما خلّط به ابن درستويه بقوله: «كان الكسائي يسمع الشاذ الذي لا يجوز من الخطأ واللحن وشعر غير أهل الفصاحة والضرورات فيجعل ذلك أصلاً ويقيس عليه حتى أفسد النحو؟» [٦٢].

وابن درستويه وأشباهه انما كانوا يتحدثون عن أصولهم الموضوعة، وعن تعمّلهم الحجج والتعليلات التي لا صلة لها بطبيعة الدرس النحوي، ويرون أن ما لم يخضع لتلك الاصول فهو شاذ ومطروح، وهو خطأ ولحن وضرورة.

الحق أن الكسائي كان في غنى عن أن يلجأ الى حكايات مطروحة، وهو الذي لازم الخليل، واختلف الى مجلس أبي عمرو بن العلاء، واستكثر عنهما، ثم طاف في بوادي نجد والحجاز وتهامة يسمع فيها الاعراب، ويشافههم، ويدوّن ما كان يسمع حتى قيل: انه أنفد خمس عشرة قنينة من الحبر في الكتابة عن العرب سوى ما حفظ [٦٣].

فلم تعز الكسائي الرواية عن الفصحاء، وكان كل ما عيب به عليه أنه كان لا يشدد في الرواية عن غير أولئك الذين زعم أبو نصر وأبو الفضل

---

(٦٠) ذيل الامالي والنوادر ـ القالي ٣٩.

(٦١) البيان والتبيين ١/٣٤٦، ٣٤٧.

(٦٢) معجم الادباء ١٣/١٨٣.

(٦٣) نزهة الالباء ٨٤.

أنهم مصدر الدارسين، وأنه كان يترخص في قبول رواية من يثق بفصاحته، وانْ لم تنسجم مع الاصول الموضوعة، ويأخذ بالقراءات الصحيحة وان خالفت تلك الاصول.

إنّ أخذ الكسائي وتلاميذه بهذه الرواية أو تلك صادر عن ايمان بالسماع وبأن السماع هو السبيل الى الدرس النحوي، وبأن هذه المسموعات التي سميت بالمفاريد، أو بأخبار الآحاد انما تمثل بيئات لغوية حية أغفلها تشدد النحاة وتقعّرهم وجهلهم طبيعة هذا الدرس، لانهم كانوا قد قيدوا انفسهم بأصول استنبطوها من حدود ما سمعوا، وعدوا ما يتعارض معها من المفاريد مخالفاً للقياس، فان كان الراوي موثوقاً بفصاحته قبلوا روايته على أن تكون من الشواذ التي تُحْفَظُ ولا يقاس عليها، وإن لم يكن معروفاً لديهم ردوه أو حملوه على اللحن والخطأ.

ومن هنا يبدو مدى تعسف البصريين في اعتبار الاصول التي أخذوها عن السلف، وجعلها أصولاً للعربية بلغاتها المختلفة، ولهجات القبائل المتفرقة في أنحاء الجزيرة. ويبدو، كذلك، مدى صدق البغداديين في نظرتهم الى اللغة والى الروايات المنفردة التي يثقون بفصاحتها، فقد كانت الاصول الموضوعة عندهم من الهوان بحيث لا تحوطها القداسة، ولا تثبت أمام الرواية يسمعونها من أعرابي أو أعرابية، ولذلك كان للسماع عندهم شأن عظيم، لا يترددون في قبوله، ولا قي تعديل الاصول من أجله.

وليس عيباً أن يسمع الكسائي الشاذ فيأخذ به، وأن يقف الفراء من القراءات موقف المتقبل المصحح وان كانت مخالفة للاصول الموضوعة، لأن لغة القرآن عنده أفصح أساليب العربية، وأن القراءات «أعرب وأقوى في الحجة من الشعر».

وبعد فخلاصة السمات التي اتسم بها الدرس النحوي في بغداد هي:

١ ـ تحرر من ربقة تحكيم العقل في الدرس اللغوي.

٢ ـ واضافة لها قيمة كبيرة ردت الى الدرس النحوي اعتباره.

٣ ـ وتجديد في أسلوب الدرس برفض التعليلات التي لا صلة لها بالدرس.

٤ ـ وتغليب للنقل على القياس، ثم تحكيم الاعتبارات اللغوية في أصول الدرس وقواعده الموضوعة.

هذه هي السمات الجديدة التي لم نعهدها في الدرس البصري الذي استطاع بمنطقيته وتعقله واطراد أحكامه أن يبسط سلطانه على أفكار الدارسين على تعاقب العصور حتى عاد المذهب البصري مذهباً (رسمياً)، وسيطر حتى على الدرس النحوي في عصرنا هذا، وما تزال الكتب (المقررة) في مدارس الاقطار العربية على اختلاف مراحلها تؤلف على غرار الكتب القديمة، ويقوم بتأليفها (بصريون) صغار ورثوا المنهج المنطقي في النحو فطبقوه في غير وعي، ولم تفد معهم صرخات الدعوة الى التجديد والاصلاح والتيسير، فقد خطط لهم أن يحنطوا عقولهم ويغلقوا دون أذهانهم الباب المؤدي الى ساحة الدرس اللغوي الفسيحة التي مهدتها الدراسات اللغوية الحديثة.

وما تزال مؤسساتنا الثقافية والادبية والعلمية تسلك سبيل الاولين، وتفرض على عقول الناشئين (نحو) ابن مالك وشراح ألفيته، ونحو ابن الحاجب وشراح كافيته بأسلوبه العقيم، ومنهجه السقيم وبما اتسما به من جدب وجمود.

وتعقد المؤتمرات التربوية واللغوية والادبية فتتناول بالدرس كل شيء الا مشكلة العقم الذي اتسم به تدريس النحو، مع علمه بعزوف الجيل عنه، وبرمه به... وأكتفي بهذا لئلا يخرج القول بي عن حدود ما أنا بصدده، ولأن للكلام عليه مجالاً آخر، ومقالات أخرى.

غَلَبة المذهب البصريّ

سار الدرس النحوي الكوفي منذ نشأته في بغداد على هذا النهج الذي أملته طبيعة الدرس من جهة، وسبيل القراء في الدرس من جهة أخرى، وغَبَر الدارسون في بغداد يعتمدون الراوية والسماع والمشافهة أصولاً للدرس النحويّ، بعيداً عن الاعتبارات العقلية، والاحتجاجات والتعليلات والقياسات التي يمليها منطق العقل، غير أن هذا كانَ، من وجهة النظر البصرية، إفساداً للنحو، وارتفاعاً بالنحو الى أسفل على حد تعبير أبي محمد اليزيدي في غمزه الكسائي واصحابه وتلاميذه[1].

وقد تحامل ابن درستويه على الكسائي فزعم ان الكسائي «كان يسمع الشاذ الذي لا يجوز من الخطأ واللحن وشعر غير أهل الفصاحة والضرورات فيجعل ذلك اصلاً، ويقيس عليه حتى أفسد النحو»[2].

وتصدى أبو حاتم السجستاني للدارسين في بغداد وفيهم علي بن حمزة الكسائي، ويحيي بن زياد الفراء، وأحمد بن يحيي فتحامل عليهم تحاملاً دل على تخبطه في فهم طبيعة الدرس، وزعم أنّ أحدهم «يتحفظ مسائل من النحو بلا علل ولا تفسير، فيكثر كلامه عند من يختلف اليه، وانما هم احدهم اذا سبق الى العلم ان يسيّر اسماً يخترعه لينسب اليه، فيسمى الجر خفضاً، والظرف صفة، ويسمون حروف الجر حروف الصفات والعطف

---

(١) نور القبس ٢٨٧.. جاء ذلك في أبيات لأبي محمد يحيي بن المبارك اليزيدي، أولها:

كنا نقيس النحو فيما مضى على لسان العرب الأوَّل

والبيت الذي أشرنا اليه هو:

ان الكسائي واصحابه يرقون في النحو الى اسفل

(٢) معجم الادباء ١٣/١٨٣.

النسق و(مفاعيلن) في العروض (فعولان)، ونحو هذا من التخليط »[٣].

وعاب غيرهم على أبي العباس ثعلب انه «كان يدرس كتب الفراء وكتب الكسائي درساً، ولم يكن يعلم مذهب البصريين، ولا مستخرجاً للقياس ولا طالباً له، وكان يقول: قال الفراء وقال الكسائي، فإذا سئل عن الحجة والحقيقة في ذلك لم يغرق في النظر »[٤].

لقد ظن السجستاني وابن درستويه وغيرهما ممن احتذاهما أنّ سبيل الدرس النحوي هو الإغراق في النظر، واصطناع التعليل والتأويل والقياس، وكانوا في هذا واهمين، لأنهم كانوا يجهلون طبيعة الدرس ويجهلون أن سبيله هي الرواية والسماع والملاحظة، وهو ما كان الكوفيون البغداديون يصطنعونه في دراستهم النحو، ووضعهم الاصول.

غير أن النهج الذي رسمه الكسائي المقرئ، وتعهّده الفراء الذي كان يحترم القراءة، ويرى في النقل عن الموثوق بفصاحتهم أصلاً من أصول هذا الدرس كان يشق طريقه في بيئات الدرس في بغداد، ويضع اسسه لا يلوي على شيء، ولم يثنه عن ذلك حملات المتعصبين وتخرصاتهم عليه.

وإذا كان هذا عيباً عند قدماء الدارسين البصريين، وافساداً للنحو، فقد تغيرت الحال في هذا العصر، ولم يعد مقبولاً من دارس شهد نضج الدرس اللغوي، وتحدّد مناهج الدرس أن يتابع القدماء متابعة، أو يقلدهم تقليداً، فلم يعد الدرس النحوي نظراً وجدلاً وتعليلاً، كما لم يعد الدارس النحوي مناظراً في تناوله موضوعات النحو بالدرس.

كان القدماء اذ درسوا النحو في غير منهجه قد فتحوا الباب أمام الاعتبارات العقلية في الاحتجاج له والتعليل لظواهره، وكان الدارسون البصريون هم الذين فتحوا هذا الباب، موغلين في التأويل والتقدير، غالين

---

(٣) مراتب النحويين ١٠١، ١٠٢.

(٤) طبقات النحويين واللغويين ١٥٥، ١٥٦.

في القياس والتعليل، متأثرين بالاعتبارات الجدلية التي كانت سبيل النظار والمتكلمين في الدفاع عن العقيدة، ومقارعة الافكار المعادية الوافدة.

وكانت البصرة موطن الكلام والنظارة، وكان ظهور المتكلمين يمهد السبيل للعقلية الجديدة التي أخذت مكانها في تاريخ الفكر والحضارة ولم يكن ذلك ليكون قبل الوقوف على ثمرات الجهود الانسانية التي سبقت الانسان العربي المسلم. لهذا كان المجتمع العربي الاسلامي متفتحاً للثقافات الاجنبية التي أخذت تظهر شيئاً فشيئاً حتى اكتمل ظهورها بالترجمة والنقل، وكان العصر العباسي هو عصر هذه النقلة العظيمة للحياة العقلية، النقلة التي تجاوزت بالحياة من أفقها المحدود الى أفق أوسع وأرحب، التقت فيه بأفكار الامم وحضاراتها. وكان لعصر المأمون خاصة تأثير كبير في هذه النقلة فقد كان من التفتح أن ضمن لممثلي الاديان المختلفة حرية الدين والعبادة. وكان المأمون يفتح مجلس الخلافة امام هؤلاء وغيرهم، وكان يشجع الفنون والعلوم والآداب والفلسفات «وقد ارسل البعوث الى القسطنطينية والاسكندرية وانطاكية وغيرها من المدن للبحث عن مؤلفات علماء اليونان، وأجرى الارزاق على طائفة كبيرة من المترجمين لنقل هذه الكتب الى العربية، وانشأ مجمعاً علمياً في بغداد ومَرصدَين فيها وفي تدمر، وكان الاطباء والفقهاء والموسيقيون والشعراء وعلماء الرياضة والفلك يستمتعون كلهم بعطاياه»[5].

ويرجع هذا الفتح للثقافات والعلوم والفلسفات الى ما كان المتكلمون والنظار يمهدون له في نظارتهم وجدالهم من دعوة الى تحكيم العقل في الإيمان والمعتقد وسائر شئون الحياة.

وكان الدرس النحوي في البصرة بدأ ينضج في هذه البيئة التي جعلت العقل وأحكامه فوق جميع الاعتبارات، ويتأثر بأساليبه، وإذا عرفنا ان كثيراً من النحاة كانوا من المتكلمين أدركنا عمق الصلة بين الدرس

(٥) قصة الحضارة ١٣/٦٩.

النحوي وأساليب المنطق والكلام، ومدى تأثره باساليب المتكلمين والنظار وكان الدارس النحوي يزداد اتصالاً بالفلسفة والمنطق حتى خضع لاسلوبها خضوعاً كاملاً عند نحاة القرن الرابع المناطقة، ولم يكن متوقعاً ان يظل في نجوة من هذا المدّ العقلي الذي طغى على كثير من الدراسات.

وإذا كان اتصال العرب بغيرهم من الامم في بيئة البصرة قد بدأ يؤتي ثمرته بالتفاعل بين الحضارات والثقافات، فقد اكتمل هذا التفاعل، وبدأ في صورته الكاملة في بغداد قاعدة الخلافة، وفي مجتمعها الجديد الذي تفتحت السبل أمامه للافادة من الثقافات الوافدة والتأثر بها وتمثلها ثم التأثير فيها وتطويرها.

وكان من مظاهر ذلك ان ظهر دارسون تمثل في نتاجهم عمق الاتصال بين العقلية العربية الاسلامية والعقليات الاجنبية من يونانية وهندية وفارسية واتسموا بسمة الاطلاع، وتعدد جوانب المعرفة، ومن بين هؤلاء: أبو حنيفة الدينوري وابن قتيبة.

أما أبو حنيفة الدينوري فقد كان مَهَرَ في ثقافات متنوعة. فهو إذا أخذ اللغة والنحو من شيوخ بغداد وغيرهم فقد كان، كما تروي كتب الطبقات مهندساً وحاسباً وراوية موثوقاً بروايته. وإنّ الوقوف على اسماء الكتب التي صنفها مما أشار اليه ياقوت وغيره ليدل على مبلغ تعمقه في الثقافة البغدادية، واتساع المامه بالثقافات الجديدة، فمن كتبه: كتاب الانواء، وكتاب حساب الدور، وكتاب البحث في حساب الهند وكتاب البلدان، وكتاب النبات، وكتاب الاخبار الطوال، وكتاب نوادر الجبر، وكتاب الكسوف، وكتب أخرى في اللغة والادب والتفسير، ككتاب الفصاحة، وكتاب الشعر والشعراء، وكتاب تفسير القرآن، وكانت ثقافته العربية عميقة وواسعة حتى كان أبو حيان التوحيدي يفضله على الجاحظ، ويرى ان لفظه «اعذب واغرب، وادخل في اساليب العرب من لفظ ابي عثمان»[6].

---

(٦) معجم الادباء ٣/٢٧.

وأما ابن قتيبة فكان واحداً من الذين نالوا اعجاب الدارسين في عمق ثقافته وتعدد جوانبها، فقد حذق العربية لغة وادباً وأفاد من الثقافات الجديدة. يدل على ذلك ما كتبه في الأدب والشعر واللغة، وما أضاف اليه من ثقافة الفرس واخبارهم، وفلسفة اليونان وعلومهم، الا ان الطابع الغالب في كل ما كتب عربي أعرابيّ، وأبرز ذلك: عيون الاخبار، وأدب الكاتب، والشعر والشعراء، والمعارف، وغريب الحديث، وإعراب القرآن»[٧].

غير ان الدرس النحوي في بغداد ظل اميناً على منهجه، بعيداً عن التأثر بأساليب المتكلمين بالرغم من ان شيخ هذا الدرس وباني نهجه أبا زكريا الفراء كان واحداً من المتكلمين، خائضاً فيما كان يخوض فيه الدارسون في بغداد، وذلك لصلة هذا الدرس بالمقرئين والقراءات، والتزامه بمنهج القراء، وكان أبو العباس ثعلب وارث علم الكسائيّ والفراء خير من يمثل هذا الاتجاه الذي كان سمة الدرس النحوي في بغداد وطابعه، حتى كان التزامه هذا المنهج، وتطبيقه على علمه بالنحو يعدّ في نظر النحاة المناطقة عيباً يغمزونه به حتى كان قائلهم يقول: «كان يدرس كتب الفراء وكتب الكسائي درساً، ولم يكن يعلم مذهب البصريين، ولا مستخرجاً للقياس، ولا طالباً له. وكان يقول: قال الفراء وقال الكسائي، فإذا سئل عن الحجة والحقيقة في ذلك لم يغرق في النّظر»[٨].

وكانت النقلة العظيمة التي شهدتها بغداد في الحضارة والفكر قد مهدت أذهان الدارسين لتقبل النحو البصري المتأثر بالفلسفة، والقائم على الجدل والتعليل والاحتجاج، وقد وضح هذا في اوضح صورة بورود المبرد بغداد بنحوه المتأثر بالفلسفة الكلامية، وكان وروده بغداد متحولاً للدرس

---

(٧) فهرست ابن النديم ١١٥، ١١٦. وفيات الأعيان ٢/٢٤٦.

(٨) طبقات النحويين واللغويين ١٥٥، ١٥٦.

النحوي فيها، فما كاد يستقر بالمبرد المقام في بغداد حتى لفت انتباه الدارسين الى نفسه، فاقبلوا عليه يفاتشونه ويناظرونه في مسائل اللغة والنحو، فرأوا فيه طرازاً جديداً، ونمطاً في الدرس لم يعهدوه من قبل، ولم تمض الايام حتى انضم الى مجلسه نفر من انبه تلاميذ ثعلب، وفي مقدمتهم أبو اسحاق الزجاج الذي انقطع عن مجلس ثعلب ليلازم المبرد، يأخذ عنه، ويقرأ عليه كتاب سيبويه، وأخذ نفر آخرون من تلاميذ ثعلب يختلفون الى المجلسين، ويأخذون عن الشيخين.

واستطاع المبرد بقوة بيانه، وحذقه اساليب الجدل أن يستأثر باعجاب الامراء، ويجتذب اليه أنبه الدارسين، واستطاع تلاميذه بحذقهم اسلوب الجدل، وقدرتهم على استخراج القياس والعلل ان يفرضوا مذهبهم الجديد الذي اخذوه عن المبرد على مجالس الدرس، ويبسطوا سلطان المذهب البصري عليها بالنابهين من تلاميذهم الذين آلت اليهم الرئاسة في النحو كأبي بكر بن السراج وأبي القاسم الزجاجي وأبي سعيد السيرافي وأبي الحسن الرماني وأبي علي الفارسي وغيرهم، فقد كان هؤلاء يدعون الى هذا المذهب ويتعصبون له، وربما حاولوا النيل من مذهب البغداديين الذين لزموا أسلوب أشياخهم، فتأثر بهم الدارسون على تعاقب العصور، وتابعوهم فيما تعصبوا، وفيما أملوا وفيما ناظروا. وكان ظهور المذهب البصري على المذهب الكوفي البغدادي منعطفاً للدرس النحوي عن نهجه اللغوي السليم.

وبالرغم من غلبة المذهب البصري، وبسط سيطرته على بيئات الدرس وحظوته بتشجيع الحكام والامراء ومؤازرتهم اياه بقي المذهب الكوفي محتفظاً بأصالته، مؤثراً حتى في أعلام المذهب البصري، فارضاً كثيراً من آرائه على عقول الدارسين، مشيعاً كثيراً من أوضاعه ومصطلحاته في حوار الدارسين وكتاباتهم. ويكفي أن تتصفح كتاب الاصول لابن السراج وكتاب الجمل للزجاجي، وغيرهما من مؤلفات المعاصرين لهما لتقف على

مدى تأثير هذا الدرس الاصيل في الدارسين الذين ميزوا أنفسهم بانتسابهم الى البصريين.

وكان للدرس الكوفي البغدادي دعاة من تلاميذ ثعلب، وتلاميذ تلاميذه يدعون له، ويدافعون عنه، ويرجع اليهم الدارسون الآخرون في تفهمه، والوقوف على آراء أعلامه.

فقد تلمذ أبو القاسم الزجاجي، وهو الداعية لمذهب البصريين لبعض أعلام الدرس الكوفي البغدادي، وأفاد منهم كثيراً، لأنهم كانوا قد احاطوا علماً باصول المذهب الكوفي البغدادي وأصول المذهب البصري، وكانوا «قدوة أعلاماً في علم الكوفيين، وكان أول اعتمادهم عليه، ثم درسوا علم البصريين بعد ذلك فجمعوا بين العلمين»[9]، الا أنهم كانوا أميل في دراستهم الى الكوفيين كأبي بكر بن شقير وأبي بكر بن الخياط، ولبعض أعلام الدرس البغدادي الذين لزموا هذا المذهب، وتعصبوا له كأبي بكر ابن الانباري، وأبي موسى الحامض ممن شهر من الكوفيين، و«أبي الفضل الملقب بزبيل، وأبي محمد عبد الملك بن مالك الضرير»[10]، ممن لم يشهر منهم، كما رجع ابن السراج من قبله الى كثير من آراء الكوفيين البغداديين كالكسائي والفراء وثعلب، وحفظ كثيراً من أقوالهم في أصوله، وروى كثيراً من آرائهم.

ولم يستطع المذهب البصري بغلبته وسيطرته على جمهور الدارسين أن يهزم الدّرس الكوفي البغدادي، فقد بقي حياً يتخذ منه النابهون من الادباء والشعراء والمصنفين مذهباً أقاموا عليهم أدبهم وشعرهم وتصنيفهم، فقد أحيا هذا المذهب بشعر أبي الطيب، وبشارح ديوانه وبأعمال أحمد بن فارس اللغوي في كتابه (الصاحبي)، وأعمال ابن خالويه وغيرهم، وأحيا

---

(٩) الايضاح ٧٩.

(١٠) المصدر نفسه.

حتى بالمتأخرين من حذاق النحاة الذين احتذوا البصريين كالرضيّ الاستراباذي في كثير من الآراء التي أخذ بها وانتصر لها وغيره، وأحيانا أيضاً بأعلام الدارسين في الآفاق البعيدة الذين كانوا قد رحلوا الى المشرق، وأخذوا عن اعلام الدرس البغدادي، ثم عادوا الى تلك الآفاق لينشروا هذا المذهب، ويشيعوا ما صنف فيه، كجودي بن عثمان الذي كان قد لقي الكسائي والفراء، وأدخل كتاب الكسائي الاندلس[11]، من الاندلسيين الاوائل، وابن مضاء القرطبي والسهيلي من الاندلسيين المتأخرين.

لقد كان مذهب الكوفيين البغداديين شاخصاً حياً، وكان البصريون، بالرغم من تعصبهم لمذهبهم، وتحاملهم على منافسيهم لم يستطيعوا أن يتجاهلوا المذهب ولا أعلامه، ولم نجد أحداً من القدماء ينكر وجود هذا المذهب، أو يجهل أن هناك مذهباً نحوياً شهدته مجالس الدرس في بغداد وسمي فيما بعد بالمذهب الكوفي.

وإذا رجعت الى كتب الطبقات رأيت ذلك واضحاً فيما أثبت فيها من طبقات للدارسين في البصرة، وللدارسين في بغداد. أما كتب التراجم التي لم ترتب على أساس الطبقات، مثل معجم الادباء، ونزهة الالباء، ووفيات الاعيان وانباه الرواة فلم تغفل نسبة الدارس الى المذهب الذي ينتمي اليه، كأن يكون هذا من البصريين، وذاك من البغداديين أو الكوفيين، أو كأن يكون هذا يتعصب للبصريين وذاك يتعصب للكوفيين، وأمثال ذلك من العبارات التي تضع الدارس في الجماعة التي ينتمي اليها، وتعده في الفريق الذي تنتظم أفراده طريقة خاصة في تناول موضوعات النحو بالدرس.

وغبرت الحال على ما ذكرت الى عصرنا هذا، غير أن الأمر لم يعد كما كان من قبل، فليس هناك نحويون يتابعون البصريين في منهجهم، وآخرون يتابعون البغداديين أو الكوفيين في منهجهم، فلم يعد بين النحاة

---

(١١) طبقات النحويين واللغويين ٢٧٨.

المتأخرين من كان يعتنق مذهباً نحوياً، أو ينطق في وعي عن مذهب نحوي يعينه، وصارت النسبة الى بغداد أو الكوفة، أو الى البصرة قضية تاريخية ليس لها معنى يرتبط بواقع بالرغم من اصطناع المتأخرين الانتساب الى هذا الفريق أو ذاك، فقد تجد في كلام الزمخشري، أو في كلام ابن الحاجب أو غيرهما ما يدل على انتصار للبصريين، أو انتساب الى مذهبهم، فليس ذلك في رأينا الا متابعة خالصة، وتقليداً محضاً، لأن أسلوب الدرس البصري أو الكوفي كما كان، لم يعد له وجود، لان مصادر الدرس التي كان يصدر عنها الدارسون لم يعد لها وجود، والاختلاف في المذهب انما يقوم، فيما نرى، على أساس الافادة من المصادر الحية في استخراج الاصول العامة في الدرس، أو بعبارة أدق على اساس اسلوب الافادة منها في ذلك.

أما المتأخرون من النحاة فلم يجدوا أمامهم الا مصنفات في النحو تضمنت وجهات نظر مختلفة، فراحوا يختارون هذا الجانب أو ذاك بحسب ملاءمته لاسلوب الدرس الذي اصطنعوه.

وجاء الدّارسون المحدثون فأخذوا يتناولون موضوعات النحو بالدرس الذي انتهى اليهم عن المتأخرين في مفصل الزمخشري وشروحه، وألفية ابن مالك وشروحها، ومتون ابن هشام وشروحها، ومقدمتي ابن الحاجب وشروحها، أو عن نحاة صغار ليس لهم رأي، ولا لدراستهم أصالة، ولكنهم جمّاعون ملفقون أتيح لهم أن يقفوا على كتب نحوية لنحاة سابقين، فاحتذوها، ولفقوا كتبا ألفوا فيها بين الاقوال المختلفة، والآراء المتفاوتة، كالسيوطي في همع الهوامع، والازهري في شرح التصريح على التوضيح، وأمثالها.

غير أن الدارسين المحدثين أخذوا يحسون أن النحو الذي ورثوه عن هؤلاء لم يعد يلائم الدرس الحديث لا منهجاً ولا موضوعاً، وراحوا يعيدون النظر في نحو العربية بحيث يتلاءم مع حال اللغة العربية التي لم تعد حوشية ولا بدوية ولكنها عادت لغة متطورة أفادت من اتصالها بالشرق

والغرب، وتلقحت بثقافات جديدة لم تشهدها من قبل، فسلكوا في دراستها دروباً مختلفة، ومرت هذه الدراسة بمراحل:

كانت المرحلة الاولى احياء آثار السلف الذي كان من اللغة الحية على كثب، فنشرت أمّات الكتب التي تعد أصول هذا الدرس.

وكانت المرحلة الثانية تصنيف الكتب والرسائل الجامعية التي تتناول بالدرس أحد شيوخ النحو الاوائل، والمذهب الذي ذهب اليه، أو المنهج الذي اتخذه، أو تتناول بالدرس مذهباً نحوياً بعينه كمذهب الكوفيين البغداديين، ومذهب البصريين.

وكانت المرحلة الثالثة نقد النحو القديم، والدعوة الى احيائه، أو تجديده ليتلاءم مع متطلبات الدرس النحوي الحديث.

وكان الدارسون الجدد يختلفون في اتجاهاتهم اختلافاً اقتضاه محصول الدرس في هذا الميدان، وكان المستشرقون هم البادئين، فقد درس (فلوجل) كتاب فهرست ابن النديم، وقدم له ونشره، ثم نشر بحثاً في المدارس النحوية التي استخلصها من تصنيف ابن النديم. ودرس (گوتولدفايل) كتاب «الانصاف في مسائل الخلاف» للانباري وقدم له ونشره وكان له رأي في المذاهب النحوية القديمة سيأتي بيانه. ثم (بروكلمان) الذي وقف على أعمال غيره من المستشرقين فصنف كتابه الكبير «تاريخ الادب العربي» الذي كان الدكتور عبد الحليم النجار قد بدأ بترجمته، فترجم منه ثلاثة أجزاء، ولم تمهله المنية. ثم (يوهان فك) في كتابه (العربية) الذي ترجمه النجار أيضاً.

واحتذاهم الدارسون العرب فخاضوا ما سبق أن خاضه هؤلاء، فتناول صاحب (ضحى الاسلام) النحو بالدرس مع ما تناول من موضوعات تتعلق بالحضارة العربية والفكر العربي، وعرض في تناوله النحو للمذهبين النحويين الرئيسين مذهب أهل البصرة، ومذهب أهل الكوفة، ووازن بين

المذهبين، ولكنه لم يأت بجديد، لأن ما أثبته في (ضحى الاسلام) لا يعدو أن يكون ترجمة لما جاء عند أولئك المستشرقين.

وتناول النحو بالدرس دارسون آخرون، ولم يكن لهم المام بثقافة الغرب فراحوا يؤرخون للنحو والنحاة، والمذاهب النحوية على غرار ما كان القدماء يفعلون ولم يجد الدارس فيما صنفوا شيئاً جديداً يزيد على ما جاء في كتب السيوطي، وكتب من أخذ السيوطي عنهم.

وأخذ الدارسون العرب يتسابقون في احياء مذهب، أو تحقيق مخطوطة، فكتبت المقالات في المجلات، وألقيت المحاضرات في المؤتمرات المجمعية، وألفت الكتب التي تتناول أحد النحاة بالدرس، أو تتناول مذهباً نحوياً معيناً.

ثم هيأ بعض الدارسين أنفسهم للدعوة الى احياء النحو وتخليصه من الشوائب التي فتح الباب أمامها اليه دارسون لم يفهموا من الدرس النحوي الا تعليلات فلسفية، وتأويلات بعيدة، وتقديرات لا تحتملها النصوص، فكان مآل هذا الدرس الحيوي الانساني الى الجدب القاتل، والجمود المميت.

وكان أول صوت نادى عالياً يدعو الدارسين الى دراسة النحو من أول، والى اعادة النظر فيما آل اليه الدرس النحوي من مآل مخيف يهدد هذا الدرس بالجمود بل بالاضمحلال.. هو صوت أستاذنا ابراهيم مصطفى في كتابه الخالد (احياء النحو).

ثم تصدى الدكتور شوقي ضيف لنشر كتاب لابن مضاء القرطبي، اسمه «الرد على النحاة»، وقدم له بمقدمة ظاهرها الدعوة الى احياء النحو، وتخليصه من أوضار الفلسفة والمنطق التي علقت بهذا الدرس جرها عليه دارسون من الفلاسفة والمناطقة والاصوليين والمتكلمين، ومرماها البعيد غمز صاحب (احياء النحو)، وتوجيه انتباه الدارسين الى أن ما جاء في (احياء النحو) انما هو اقتباس ليس فيه أصالة ولا جدة.

ولكن الدكتور شوقي ضيف الذي بدأ منذ نشر هذا الكتاب يحاول أن يتخصص في كل فرع من فروع العربية، ويتناول بالدرس كل عصر من عصورها، وكل موضوع من موضوعاتها.. لم يكن على حق في غمزه صاحب (احياء النحو)، ولا على صواب في موازنة ما جاء به مع ما سبق اليه ابن مضاء، لان ابن مضاء حين نادى بالغاء التعليلات والتأويلات والتقديرات في النحو لم يكن ليتجاوز الحدود التي رسمها الكسائي والفراء وثعلب من البغداديين، وكان قد حمل على البصريين من خلال معاصريه الذين كانوا يتعصبون للبصريين على الكوفيين كابن خروف وغيره ويكفي لنسف هذه الموازنة بين الرجلين أن نعرف أن ابن مضاء كان يهدف الى الهدم وحسب، أما ابراهيم مصطفى فكان يرسم خطة قويمة للبناء، وفرق بين هادم لا يرمي الى أبعد من الهدم، وبأن يخطط لدرس جديد واف بمتطلبات الدرس النحوي الحديث، وإن كان تخطيطاً لم يتم.

ومهما يكن من أمر فالنحو الذي ورثناه هو النحو الذي بسط سلطانه على مجالس الدرس، وهو النحو البصري الذي اصطبغ بالصبغة (الرسمية)، ولكنه نحو مشوه لم يبق فيه أثر لما كان في نحو البصريين الاوائل من حيوية وقوة، فقد أثقل بالتعليلات، وأفسد بالتأويلات والتقديرات، حتى غدا وكأنه فرع من فروع الفلسفة، وبحث من بحوث علم الكلام، ومن أجل ذلك، ومع ذلك يجيء باحث محدث، ويتحدث عن البصريين ونحوهم فيرى «أن البصريين كانوا أكثر حرية وأقوى عقلاً، وأن طريقتهم أكثر تنظيماً، وأقوى سلطاناً على اللغة»[١٢]، مع أنه كان يرى أن النحويين بوضعهم هذه القواعد كانوا «قد أهدروا كثيراً من الاستعمالات التي كان ينطق بها العرب في نظير وضع قواعدهم الكلية، وشددوا في احترامها، وخضع الناس لها، لانهم كانوا المسيطرين على التعليم»[١٣].

---

(١٢) ضحى الاسلام ٢/٢٩٦ ط٢.

(١٣) ضحى الاسلام ٢/٢٨٢ ط٢.

ولا أدري كيف يؤثر باحث محدث أن يكون النحو أقوى عقلاً، وطريقة القياس فيه أكثر تنظيماً، وأقوى سلطاناً على اللغة؟ وأي نحو هذا الذي يستخلص من القواعد الموضوعة، ولا تُسْتَفْتَى فيه اللغة كل اللغة، مع أن الاستعمال هو صاحب السلطان على اللغة لا عقل الفرد ولا منطقه، ولا قاعدته الموضوعة والمفروضة على الدارسين؟ أليس هذا تقليداً ـ في غير وعي ـ لافكار عتيقة كانت تفهم النحو على أنّه منطق وفلسفة وتعليل وتقدير، ثم اليس هذا ترديداً لمزاعم المتعصبين الذين كانوا يرون في منافسيهم الذين كانوا يحترمون ما ورد عن العرب، ويحرصون على الفصيح المستعمل ـ دارسين افسدوا اللغة والنحو، ويُعرّضون بالكسائي الذي اجتمع لديه النحو والقراءة، فيتهمونه بافساد النحو، ويزعمون انه «كان يسمع الذي لا يجوز الا في الضرورة فيجعله اصلا»؟

ولم يقف الامر عند هذا التعسف في الزعم بل ظهر دارسون محدثون تابعوا المذهب البصري في غير وعي، وتعصبوا له حتى بلغ بهم التعصب ان يطرحوا آثار الكوفيين وآراءهم واقوالهم، ثم يتحاملوا عليهم ويشككوا حتى في أن يكون لهم مذهب على حدة، وربما خلّط بعض صغار النحاة في عصرنا فراح يعرض لآراء الكوفيين ويضعّفها، كما تلقى من شيوخه، وكما وقف عليه في كتب البصريين. ولفق هذه المزاعم في رسالة قال انها رسالة جامعية، وانه الزم نفسه اتباع المنهج العلمي، فلا يقر الاّ ما قام عليه الدليل [١٤].

ومن مبادىء المنهج العلمي ان يستقري ويستوعب، وهذا المدعي اتباع منهج البحث لم يستقرِ، ولم يستوعب، فقد تناول آراء الكوفيين من خلال كتب المتعصبين عليهم كأبي البركات الانباري واضرابه، ولم يكلف نفسه ان يرجع الى كتب الكوفيين انفسهم كمعاني القرآن للفراء ومجالس ثعلب

---

(١٤) مدرسة البصرة النحوية ـ الدكتور عبد الرحمن السيد ـ المقدمة ص (ز).

وغيرهما، وفي هذه الكتب كثير من آراء الكوفيين، وهذه الكتب ليست ببعيدة عن متناول يده، ولكنه لم يرجع اليها ولم يقف على آراء الفراء وثعلب فيها. أما «معاني القرآن» فلم يكن من بين مراجعه ومصادره التي عقد لها فهرساً في آخر رسالته وأما «مجالس ثعلب» فلم يعنه منه الا هامش لمحقق الكتاب عبد السلام هارون.

ولو كان هذا الدرس منهجياً، كما زعم، لما اطرّح كتب الكوفيين وتقوّل عليهم من خلال كتب الدارسين المعروفين بتعصبهم على الكوفيين، ولكان استوفى كل ما وصل الينا من كتبهم، ولكنه لم يفعل، ولم ينهج في دراسته نهج الدارسين المحايدين (الموضوعيين) بل أخذ يخلط كما كان القدماء يخلّطون، ويتهم الكوفيين كما كان المتعصبون المبهرجون يفعلون، وافتات عليهم بانهم «لم يعنهم ان يقفوا عندما روى لهم من نصوص يستوثقون منه، ويتبينون صحته، ويكثر سماعهم لامثاله حتى يصبح جديراً بالاخذ، لم يفعلوا ذلك وانما تلقفوا الشواهد النادرة، وقبلوا الروايات الشاذة»[15].

ولم يكتف بهذا الافتيات بل أخذ يزيف ويبهرج فيقول: «ولقد ثبت ان الكوفيين نقلوا كثيراً عن خلف الأحمر»[16] ويتلقى من استاذه زعماً يجعل منه نصاً لا يتطرق الشك اليه فيقول: «فهم يعتمدون على الشعر المصنوع، والمنسوب لغير قائله، دون ان يهتموا بالتمحيص»[17].

وكل ما استند اليه في تقرير هذا انه وجد في (وفيات الاعيان) خبراً منسوباً الى أبي زيد الانصاري يحكي عن خلف الاحمر انه قال: «اتيت الكوفة لاكتب عنهم الشعر فبخلوا به علي فكنت اعطيهم المنحول وآخذ الصحيح، ثم مرضت فقلت لهم، ويلكم أنا تائب الى الله، هذا الشعر لي فلم

(١٥) مدرسة البصرة النحوية ١٤٦.

(١٦) مدرسة البصرة النحوية ١٥١.

(١٧) مدرسة البصرة النحوية ١٥٢.

يقبلوا مني فبقي منسوباً الى العرب لهذا السبب »[١٨].

واذ سرد هذه الحكاية المفتعلة كان يجهل ان الراوي لهذه الحكـايـة هـو ابو حاتم السجستاني المعروف بتعصبه الشديد على الكوفيين وان الحكاية مشار اليها في (مراتب النحويين) قبل ان يتلقفها ابن خلكان. والحكاية، مع هذا، ظاهرة الافتعال، ينقض آخرها أولها، ولا يخفى على الدارس الفطن، لان الكوفيين إذا كانوا قد بخلوا على خلف الاحمر بالشعر فكيف كان يأخذ الصحيح منهم ويعطيهم المنحول؟ وإذا كان أبو زيد الانصاري وهو الموثوق بروايته يحكي هذا الخبر حقاً فكيف يطمئن الى روايات الكوفيين، ويسمع منهم؟ فقد كان يستكثر عن المفضل الضبي الكوفي، وجاء في مقدمة نوادره: « قال ابو حاتم: قال لي أبو زيد: ما كان فيه من شعر القصيد فهو سماعي من المفضل بن محمد الضبي، وما كان من اللغات وابواب الرجز فذلك سماعي من العرب »[١٩].

واذا كان ثابتاً، كما يزعم صاحب (مدرسة البصرة النحوية) ان الكوفيين كانوا يعتمدون على الشعر المصنوع فكيف كان الاصمعي يروي عن حماد الراوية شيئاً من الشعر، ويقول: « كل شيء في ايدينا من شعر امرىء القيس فهو عن حماد الراوية الا نتفاً سمعتها من الاعراب وأبي عمرو بن العلاء »[٢٠].

فلو رجع هذا الدارس الى (معاني القرآن) واستوعب ما في مجالس ثعلب، وسلك مسلك الباحثين في تقويم الآراء التي يقف عليها لما وقع فيما وقع فيه من تخليط.

وإذا فاته أن يقف على حقيقة مذهب الكوفيين، وتحرجهم في رواية من

---

(١٨) مدرسة البصرة النحوية عن (وفيات الاعيان) جـ ١ ص ٢٦٠.

(١٩) كتاب النوادر في اللغة ص ١.

(٢٠) مراتب النحويين ٧٢.

لا يوثق به فلا ينبغي أن يترك سادراً في وهمه، لهذا احيله على نص للفراء ينقض كل ما جاء في رسالته من تخليط حمله عليه وهمه وتسرعه وتقليده.

قال الفراء حين عرض لقراءة قوله: « وإنّ هذان لساحرانْ »: « فقراءتنا بتشديد (ان) وبالألف على جهتين: احداهما: على لغة بني الحارث بن كعب، يجعلون الاثنين في رفعها ونصبها وخفضها بالألف، وانشدني رجل من اسد عنهم، يريد بني الحارث:

فأطرق اطراق الشجاع ولو يرى   مساغاً لناباه الشجاع لصمّما

قال: وما رأيت أفصح من هذا الأسدي، وحكى هذا الرجل عنهم: هذا خط يدا أخي بعينه »[21].

وقد ايد القرطبي الفراء فذكر انها لغة بني الحارث بن كعب وزبيد وخثعم وكنانة بن زيد[22]، ونقل القرطبي عن أبي جعفر النحاس، وهو بصري، انه قال: « وهذا القول -يعني قول الفراء- احسن ما حملت عليه الآية اذ كانت هذه اللغة معروفة، وقد حكاها من يرتضى بعلمه وامانته منهم: ابو زيد الانصاري... وأبو الخطاب الاخفش، والكسائي والفراء »[23].

فقد وثق النحاس الفراء في روايته، وجعله قرينا لأبي زيد الانصاري وابي الخطاب الاخفش البصريّين وعده فيمن يرتضي بعلمه وامانته، وهو بعد ذلك استاذ الكوفيين وحجتهم ومرجعهم، وفي هذا رد على المزاعم المتهافتة التي تحامل بها على الكوفيين بصريون عرفوا بتعصبهم الشديد عليهم كأبي حاتم السجستاني، وابي الطيب اللغوي وابن درستويه.

---

(٢١) معاني القرآن ٢/١٨٤.

(٢٢) الجامع لاحكام القرآن ١١/٢١٦.

(٢٣) الجامع لاحكام القرآن ١١/٢١٧.

غير ان الدكتور عبد الرحمن السيد لم ير كتاب (معاني القرآن) جديرا بأن يرجع اليه، واستبدل به كتاب «النحو الجديد» و«تاريخ آداب اللغة العربية» و«تاريخ الادب العربي» وكتاب «اللغة والنحو» وكتاب «سيبويه امام النحاة» وكتاب «القواعد النحوية» وامثالها، مما هو مثبت في مسرد مصادره ومراجعه.

ان مثل هذا العبث في العلم لينذر البحث العلمي بالخطر، ويغض من سمعة الجامعة التي تجيزه أو تعضّده، ولا اريد ان اعرض لكل ما جاء في كتاب (مدرسة البصرة النحوية) من ضعف في التأليف، وتسرع في اطلاق الاحكام، وترديد لمزاعم متهافتة فلذلك موعد آخر، ومكان غير هذا.

اخذ التشكيك بوجود مذهب نحوي يخالف مذهب البصريين يتخذ اشكالا مختلفة، ويتجه اتجاهات متفاوتة، وقد مر بنا ما جاء في كتاب «مدرسة البصرة النحوية» من تخليط في اتهام الدارسين الذين نافسوا البصريين واتخذوا لانفسهم منهجاً مخالفاً يتسم بأنه اقرب الى طبيعة الموضوع المدروس وبأنه أكثر تحرراً من ربقة الأصول الموضوعة التي تمسك بها البصريون أيما تمسك، وعدوا الترخص في رفضها والخروج عليها افسادا وتخليطاً.

ولم يكن صاحب (مدرسة البصرة النحوية) بصاحب فكرة جديدة في التهوين من شأن الكوفيين، واتهامهم بأنهم يسمعون المنحول، ويتمسكون بالشاذ الذي لا يجوز الا في الضرورة، ويتخذون منه اصلاً يقيسون عليه، ويعتدون بكلام من لا يوثق بفصاحته كأعراب الحطمة، أقول: ليس هو صاحب الفكرة، ولا اظن عمله في كتابه يعرب عن اصالة، أو يشير الى تجديد ولكنه في طول رسالته وعرضها يردد أقوال النحاة الذين بنوا اعمالهم على الجمع والاحتطاب، ولم يكن لهم رأي نحوي ينسب اليهم، ولا ذهن نحوي يجعلهم في مصاف النحاة، كالأنباري في انصافه ولمع أدلته وأسرار عربيته، وكالسيوطي في هَمْعه وبهجته واقتراحه، ويأخذ اقوال شيوخه على

انها نصوص لا يأتيها الباطل فإذا قال: قال استاذنا فلان، فكأنه كان ينطق بوحي أو يصدر عن الهام.

وليس الدكتور عبد الرحمن السّيّد نسيجاً وحده ولكنه واحد من الأمثلة الكثيرة التي شهدتها القرون المتأخرة، قرون الخرافات والأوهام والخزعبلات وإذا كان لأولئك عذر فيا خلّطوا فليس لدارس في عصرنا هذا عذر في تغليف ذهنه بمخلفات زمن قديم متهرىء بال، بعد ان ظهرت بوادر جادة لاحياء النحو وتجديده وتوجيهه.

وليس الدكتور عبد الرحمن السيد بدعا من الدارسين المخلّطين، فقد سبقه الى مثل موقفه دارسون اقدم تجربة، واعلى مرتبة منه، تخرّجت بهم افواج من الطلبة، وتناولوا صناعة النحو بالدرس، وأرّخوا للنحو، وعرضوا للمذهبين النحويين الكبيرين، وآمنوا بما آمن به من قبلهم من دارسين رأوا في الدرس البصري طرازاً قويماً، ونموذجاً عالياً للدرس النحوي، لأنه اقوى عقلاً، وأكثر تنظيماً، وأقوى سلطاناً على اللغة. بل ذهب بعض هؤلاء الى ابعد مما ذهب اليه المتعصبون على الدرس الكوفي، فلم يقنع بان يضعفه، او يغض من شأنه أو يتهمه بالفساد والشذوذ، بل انكره انكاراً، وهو أمر عجب حقاً.

هذا الدارس هو صاحب كتاب (في اصول النحو) وهو استاذ يكنّ له تلاميذه تقديراً، ورأس قسم اللغة العربية في جامعة عربية محترمة سنين طوالاً، وقدم للدرس النحوي نتاجاً يتفاوت قوة وضعفاً، ولعل اضعف نتاجه وأقله شأناً هو كتابه (في أصول النحو). لقد غلا فيه في اتّباع مذهب البصريين، وتشبث بتخرصات ذوي العصبة عليهم، فقد عقد فيه فصلاً لبيان «الفروق بين المذهبين البصري والكوفي»[٢٤] كان قد ارسل فيه اقواله وآراءه ارسالاً لم يقم على إساس من البحث العلمي (الموضوعي)،

---

(٢٤) في أصول النحو ـ الاستاذ سعيد الافغاني ١٨٨.

وأخذ يتشبث بالواهي من الدلائل، وراح يضعف المذهب الكوفي بل ينسفه من الاساس.

فاذا قرأ أنّ للدرس النحوي مذهبين مختلفين، مذهباً يقوم على السماع ومذهباً يقوم على القياس، كما ذهب اليه صاحب (ضحى الاسلام)[٢٥] والاستاذ طه الراوي في مقالة له[٢٦]، عقب على كلامهما بالرد والتضعيف، وقال: «الحق أنّ البصريين عنوا بالسماع فحرروه وضبطوه (واحترموه) على حين زيّفه الكوفيون وبلبلوه»[٢٧]. وانتهى من عرضه الآراء ومناقشته اياها بقوله: «اميل الى ان المذهب الكوفي لا هو مذهب سماع صحيح، ولا مذهب قياس منظم لكن التاريخ يؤيد وجود المذهبين، مذهب السماع، ومذهب القياس، وهما حقاً وجدا ولكن في البصرة لا في الكوفة»[٢٨]. وهو في هذا ينكر ان يكون هناك مذهب كوفي يعتد به، معتمداً في ذلك على نقول اقتبسها من الانباري في (الانصاف) والسيوطي في (بغية الوعاة) والقفطي في «أنباه الرواة»، ولم يكلف نفسه الرجوع الى اقوال الفراء واقوال ثعلب وغيرهما من أئمة البغداديين والكوفيين. وليس له من عذر في عدم الوقوف على اقوال الكوفيين وآرائهم بحجة أنه لم يعلم ان شيئاً من كتبهم قد طبع[٢٩] ولن يقبل من باحث اعتذار من هذا القبيل، فإذا لم يكن شيء منها قد طبع فقد يكون لها مخطوطات في هذه المكتبة أو تلك، ولكتبهم، أو شيء منها نسخ مخطوطة فعلاً حوتها دور الكتب في الاقطار العربية وفي خارجها، وقد طبع بعضها، وربما طبع بعضها قبل ان يتم هذا الباحث تأليف كتابه هذا.

---

(٢٥) ضحى الاسلام ٢/٢٩٥.

(٢٦) نظرة في النحو ـ مجلة المجمع العلمي العربي ١٤/٣١٩.

(٢٧) في اصول النحو ١٩٩.

(٢٨) في أصول النحو ٢٠٠.

(٢٩) في أصول النحو ١٨٧.

أما كتاب (معاني القرآن) للفراء فقد وقف الباحث على خبره في فهرست ابن النديم كما أشار اليه في كتابه، وكان لمعاني القرآن عدة نسخ مخطوطة في دار الكتب المصرية، ثم طبع الجزء الاول منه سنة ١٩٥٥، أي قبل أن يعيد مؤلف (في أصول النحو) طبع كتابه بنحو ثلاث سنوات، واذا كان كتاب (في أصول النحو) أنجز عام ١٩٤٩ كما يشير اليه تاريخ مقدمته، وكان له بعض العذر في عدم وقوفه على (معاني القرآن) فبماذا يعتذر عن ابقاء ما جاء في كتابه من تخليط في طبعته الثانية التي ظهرت بعد طبع الجزء الاول من (معاني القرآن)؟

ان ايمان الباحث بقدسية الآراء التي جاء بها اولئك النحاة المتعصبون المخلّطون كان قد حال دون أن يرجع الى ما طبع من كتب الكوفيين، ليعيد النظر في آرائه، وليقف ما كان عليه الكوفيون، وما كان عليه المتعصبون عليهم.

وأما كتاب (المجالس) لثعلب فيبدو أن هذا الباحث كان لا يعرف أنه طبع قبل أن يطبع كتابه أول مرة، فقد طبعت مرتين، كانت المرة الأولى عام ١٩٤٨، كما يدل عليه مقدمة الطبعة الاولى، وكان الكتاب قد نال الجائزة الاولى للنشر والتحقيق العلمي في المسابقات الادبية التي نظمها المجمع اللغوي في القاهرة عام ١٩٤٩-١٩٥٠، وكانت المرة الثانية عام ١٩٥٦، ولكن صاحب كتاب (في أصول النحو) لم يلائم بين ما جاء في كتابه، وما كان يمكن أن يقف عليه لو عني بالبحث عن كتب الكوفيين انفسهم، وليس من منهج البحث في شيء ان يتجاهل الباحث كتب الكوفيين ثم يروح يتلقّط المعايب التي الصقها المتعصبون بالكوفيين ومذهبهم في النحو. ألم يكن من مقتضيات البحث الجاد أن يستقري الباحث ويتقصى، ويبذل اقصى ما لديه من جهد، والاّ تحمّل وزر تقصيره في البحث، وتعجله في ارسال الاحكام قبل أن تتوافر لديه أسبابها.

ولكي يبلغ الاستاذ الافغاني هدفه في نسف المذهب الكوفي راح يبين ان

الكوفيين لم يكونوا الا تلامذة للبصريين، وأنهم يفتقرون الى الاصالة في الدرس، ثم نقل خبراً من معجم الادباء، ولكن بعد أن حرّفه لينسجم مع هواه في تضعيف شأن الكوفيين، فقد عرض لثعلب، ووصفه بالعصبية التي حرم نفسه الخير بسببها، وقال: «وأراد ثعلب هذا أن يقرأ على المبرد البصري، فأنكر عليه أصحابه الكوفيون، وقالوا: «مثلك لا يصلح أن يمضي الى البصري، فيقال غداً أنه تلميذه، فاستجاب لهم عصبية وحرم نفسه الخير»[30].

لم يكن الاستاذ الافغاني متثبّتا في نقله هذا الخبر، فالذي حكاه ياقوت عن أبي بكر بن الانباري قوله: «سمعت أبا العباس يعني ثعلباً يقول: عزمت على المضي الى المازني لاناظره فأنكر ذلك عليّ أصحابنا الخ...»[31]. فلم يعتزم ثعلب المضي الى المبرد بل الى المازني أستاذ المبرد، ولم يعتزم المضي الى المازني ليقرأ عليه بل ليناظره، وكيف يتوهم الاستاذ الافغاني أن ثعلباً يريد أن يقرأ على المبرد، مع أن ثعلباً آلت اليه الرئاسة في النحو قبل أن يرد المبرد بغداد، وكان قد تلمذ لثعلب أكثر أعلام الدرس الذين أخذوا عن الرئيسين، وأفادوا منهما جميعاً، ولم يجتمع ثعلب مع المبرد الا للمناظرة كما هو معلوم.

والى الان لم أصل الى تفسير معقول لموقف الاستاذ الافغاني من الكوفيين، وإني لاعيذ أستاذاً جليلاً مثل الافغاني أن يدفعه الهوى الى التعصب الذي لا يليق بتجرد العلماء وحيادهم.

وقريب من هذا ما ذهب اليه الدكتور أحمد مكي الانصاري في كتابه (أبو زكريا الفراء) الا أنه كان أقرب الى النهج العلمي المتجرد من مؤلف (في أصول النحو)، فلم ينكر أن يكون للكوفيين مذهب بعينه، أو يكون

---

(٣٠) في أصول النحو ٢١٠.

(٣١) معجم الادباء ١١٥/٥.

لهم ملامح شخصية علمية مستقلة، فقد أثبت خصائص المذهب الكوفي، ووازن بينه وبين المذهب البصري، وخلص الى رأي مقبول في هذه الموازنة.

الا أنه قصر الدرس الكوفي على دارسين لم يكونوا نحاة ولا لغويين، ولم يكن لهم مذهب واضح، ولا نزعة معروفة، وجعل أبا جعفر الرواسي مؤسس المذهب ولم يقدم للدارسين من آراء الرواسي أو أقواله ما يمكن أن يكون معه رئيس مدرسة ومؤسس مذهب.

أما الكسائي والفراء فلم يكونا عنده من البصريين ولا من الكوفيين، فقد نسبهما الى مدرسة ثالثة لا هي بالبصرية ولا بالكوفية، مدرسة يقوم مذهبها على أساس من خلط المذهبين، وجمع مزاياهما في مذهب منتخب مختار هو المذهب البغدادي على حد وهم الدارسين المحدثين، بل جعل الفراء مؤسس مدرسة بغداد، وبنى كتابه (أبو زكريا الفراء) على أساس هذه الفكرة، ولا أراه الا متكلفاً، وقد التقى مع الافغاني من حيث أراد أو لم يرد في نسف المذهب الكوفي الذي نشأ أول ما نشأ في بغداد، وفي انكار أن يكون للبغداديين، وعلى رأسهم الكسائي والفراء مذهب مستقل بازاء مذهب البصريين، بل لقد انتهى من حيث أراد أو لم يرد الى أن الفراء كان يصطنع أوضاع البصريين، ويقف من القراءات موقف البصريين، ويقدر ويتأول، وينتهج في نحوه منهج الفلاسفة والمتكلمين، ويعتد بالقياس، ويلتزم بالضبط والتقعيد، ويخطىء العرب، ويخطّىء القراء ويطعن عليهم، ولم يبقَ للدارس أي دارس الاّ أن يجزم أن الفراء بصري المذهب، بل رسم المذهب للبصريين، وقد وقفت مع الدكتور الانصاري في هذا وقفة طويلة لا أرى العودة اليها هنا الا تطويلاً [٣٢].

---

(٣٢) انظر: الجزء الرابع من المجلد السابع والاربعين من مجلة مجمع اللغة العربية بدمشق ١٩٧٢.

كوتولدڤايل ومدرسة الكوفة

ولعل أول من فتح الباب هو: (كوتولدڤايل) في مقدمته لكتاب الانصاف فقد شكك في وجود مذهب مكتمل يقف بازاء مذهب البصريين الذي كتب له الانتصار والغلبة فسيطر على بيئات التعليم في مختلف العصور، بل ذهب الى أن الكوفيين «لم يؤسسوا مدرسة نحوية خاصة».

وكان (ڤايل) في هذا مشدودا بسببين:

الاول: أنه كان مأخوذا بالضجة التي أحدثها انتصار المذهب البصري، وبسط نفوذه على أكثر المصنفات النحوية، وعلى أذهان أكثر الدارسين، وبالبهرجة التي اتسم بها كتاب (الانصاف) في عرض وجهات النظر المختلفة.

والثاني: أنه لم يقف على مصنفات الكوفيين فلم يلم بآراء الكوفيين وأعلامهم التي يستطيع الدارس أن يرسم للمذهب الكوفي بها صورة واضحة الخطوط والملامح.

لم يقف (ڤايل) على كتب الفراء، ولم يسمع الا بأسمائها «وكتاب الحدود ومعاني القرآن اللذان احتويا مجموعة من الآراء الصائبة الصالحة للبقاء» لم يصلا اليه، ولم يقف عليهما[٣٣]. وما وصل اليه من أقوال وآراء من خلال كتاب (الإنصاف) لم يؤلف عنده مذهباً يقف بإزاء المذهب البصري، ولذلك ذهب الى أن «علم النحو برمته بصري»[٣٤]، ولا ريب أنه انما يعني أن النحو الذي تناوله الدارسون بعد غلبة المذهب البصري بصري، لانه لم يكد يقف على مصنفات للكوفيين كان الدارسون يتداولونها ويتناولونها بالدرس.

رأى (ڤايل) أن أهم ما اتسم به النحو الكوفي هو سلوكه منهجا خالف

---

(٣٣) مقدمة كتاب الانصاف ـ ترجمة الدكتور عبد الحليم النجار.

(٣٤) المصدر نفسه.

فيه كثيرا من الاراء البصرية، وقد أتاحت له دراسته كتاب (الانصاف) أن يقف على الاراء الكوفية وعلى الاراء البصرية، وعلى اراء بعض البصريين المتقدمين الذين صدرت عنهم آراء تخالف آراء الفريق البصري السائد.

وكان (ڤايل) يرى أن للفراء بين الدارسين الكوفيين تأثيرا خاصا في نمو مدرسة الكوفة، وأن حدة طبعه وميله الى الخلاف كانا سبيله الى اتخاذ مذهب خالف به معاصريه، بل خالف الكسائي نفسه أيضا، ولكن (ڤايل) رأى أن هذه المخالفة لم يبتدعها الفراء نفسه ولكنّ لها جذورا قديمة عند البصريين أنفسهم، وغلب على ظنه أن يونس بن حبيب البصري كان صاحب التأثير الموجه في كلا الكوفيّيْن الكسائي والفراء. وبنى رأيه هذا على أمور:

١ ـ أن اسمه قرن باسم الكوفيين في بضع مسائل، كان الانباري يسميه فيها يمثل آراء الكوفيين، وأن صاحب كتاب (المفصل) كان قد ذكره سبع مرات، وكان رأيه يمثل آراء الكوفيين في خمس مرات منها.

٢ ـ ما ذكره النحاة وأصحاب الطبقات عن يونس بن حبيب، وخص بالذكر منهم أبا سعيد السيرافي، ونقل عنه قوله: «وله قياس في النحو، ومذاهب يتفرد بها»[٣٥].

٣ ـ ما رواه أصحاب الطبقات أن الكسائي والفراء كانا قد سمعا منه وأخذا عنه، وأن الفراء، خصوصاً، استكثر عنه. غير أن هذه الامور لم تدعم رأيه، ولا صوبت ما ذهب اليه فاقتران اسم يونس باسم الكوفيين في بضع مسائل لا يعني شيئا، ولا ينهض حجة له، لان موافقة الكوفيين اياه لا تعني أن يكون صاحب التأثير الموجه في الكسائي والفراء، فاذا كان يونس أثر فيهما في بضع مسائل فمن، ترى، صاحب التأثير فيهما في سائر المسائل التي خالفا فيها يونس والبصريين؟

---

(٣٥) أخبار النحويين البصريين ٢٧.

وأما أن الكسائي والفراء قد سمعا منه، كما يقول اصحاب الطبقات[٣٦]، فلا يدعم زعمه أيضا، لان اتصال الكسائي والفراء بيونس لم يكن من قبيل اتصال التلميذ بأستاذه، ولم يصحّ أن يكون الكسائي أخذ عنه.

يضاف الى هذا أن الذي حكاه أصحاب الطبقات ينقض هذه التلمذة وينفيها فقد حكوا أن الكسائي لَمّا قطع رحلته ورجع لم يكن له همّ الّا البصرة ولكنه وجد الخليل قد مات، وتصدر يونس بن حبيب في مجلسه، وجلس الكسائي الى يونس «فجرت بينهما مسائل أقر له يونس فيها، وصدره في موضعه»[٣٧].

ومما يؤيد أن اتصال الكسائي بيونس لا يعني تلمذته له، ولا الاخذ عنه: ما رواه السيرافي عن ابن السراج أنه قال: «إن مروان بن سعيد سأل الكسائي بحضرة يونس عن (أي)، ثم سأله، وأكثر من الاسئلة عن اختلاف حالها اعرابا وبناء، فقال له الكسائي: «أي كذا خلقت». فغضب يونس لالحاح مروان في مسألته وقال: «تؤذون جليسنا ومؤدب أمير المؤمنين»؟![٣٨] فلو كان الكسائي يجلس الى يونس ليأخذ عنه او يتلمذ له لما كان لسؤال الكسائي معنى، ولكان السائل وجه السؤال الى من تصدر مجلس الدرس، وهو يونس. ولو كان مكان الكسائي في مجلس يونس مكان التلميذ لما غضب يونس، ولما سماه جليسا.

وأما أن ليونس قياسا في النحو، ومذاهب يتفرد بها فأمر لا يدل على أن يونس كان صاحب التأثير في الكسائي، فليونس وجهة نظر تلتقي مع البصريين في أكثر المسائل، وتفترق عنهم في بعضها، وللكسائي أيضا

---

(٣٦) أخبار النحويين البصريين ٢٧. نزهة الالباء ٦٠، معجم الادباء ٦٤/٢٠. وفيات الاعيان ٢٤٢/٦.
(٣٧) نزهة الالباء ٨٤.
(٣٨) اخبار النحويين البصريين ٢٨.

مذهب يتفرد به ويخالف به البصريين في أكثر المسائل، واذا التقت وجهة نظر الكسائي بوجهة نظر يونس في أربع مسائل او خمس فلا يعني هذا أن يكون يونس هو مؤسس مدرسة الكوفة أو صاحب التأثير الموجه في الكسائي، والتشبث به تشبث بالاسباب الواهية لاثبات قضية خاسرة.

هذا ما يتعلق باتصال الكسائي بيونس، أما اتصال الفراء به فلا أحسبه الا اتصال دارس طلعة يعنى بأن يلم بأطراف الدرس، وأن يقف على الآراء المختلفة، ولا أعلم أن الفراء كان قد انقطع الى يونس والى البصرة انقطاعا أخذ في أثنائه عنه أو تلمذ له، أو تأثر به، ولعل اتصاله به كان عابرا، والدارس الذي يتحدث عن الفراء بأنه دارس «لم يهتم الا قليلا بالاخذ للتناقل في هذا العلم، بل يبدو عليه طابع من يؤسس فرقة او مذهبا»[٣٩] لا ينتهي الى مثل ما انتهى اليه من تشبث بالوهم في تأثر الفراء بيونس.

الحق أن الدارس ربما وقف على بضع روايات للفراء عن يونس، ولكنها روايات لا تتعلّق بالنحو، ولا أحسبني وقفت على حكاية للفراء عن يونس تتعلّق بموضوع من موضوعات النحو، فاذا كان الفراء يبدو عليه طابع المؤسس لمذهب، وأن المسائل التي يرويها الفراء عن يونس لا علاقة لها بالنحو فمن التمحل ما ذهب اليه (ڤايل) من أن يونس كان صاحب التأثير في الفراء.

أن كل ما صدر عنه (ڤايل) في مقالته هذه انما يستند في الواقع الى ذلك الاتفاق في الرأي بين يونس والكوفيين في خمس المسائل التي لا تكاد تذكر الى جانب المسائل التي تضمنها كتاب (الانصاف)، وعدتها احدى وعشرون ومئة مسألة، فاذا اعتمد (ڤايل) في بسط رأيه في تأثر الفراء بيونس على هذه المسائل فكيف يفسر اختلافه معه في سبع عشرة ومئة مسألة؟ ومن كان صاحب التأثير في الفراء فيها؟

---

(٣٩) مقدمة الانصاف ـ ترجمة الدكتور عبد الحليم النجار.

اما ما زعمه «ڤايل» من أن الكوفيين أنفسهم كانوا يدّعون استكثار الفراء عن يونس، والبصريين ينكرون ذلك فلا يؤيد رأيه، لانّ استكثار الفراء عنه اذا صحت الرواية لا يعني أنهم يريدون أن ينسبوا الدرس الكوفي الى يونس، او يعدونه مؤسسا لمذهبهم، ولو كانوا يريدون بهذا الى ما ا تنتجه «ڤايل» لما كان لزعم الكوفيين أنفسهم رئاسة الرواسي للنحو الكوفي معنى، وهذا هو ما ذكره ڤايل نفسه أيضا. قال: «يبدو أن ثعلبا - تقليدا للروايات البصرية التي جمعها المبرد على عهده - تذاكر مع زملائه عن النحوي القديم أبي جعفر الرواسي الذي لم تستفض شهرته من قبل، على أنه استاذ الكسائي والفراء، وعدوّه مؤسس مدرسة الكوفيين، ونسبوا اليه كل الآراء القديمة المجهول أصحابها»[٤٠].

على أن (ڤايل) كان قد استند في استنتاجه أن يونس مؤسس مدرسة الكوفة الى ما جاء في (بغية الوعاة) من قوله: «وأخذ [الفراء] عن يونس، وأهل الكوفة يدعون أنه استكثر عنه، وأهل البصرة يدفعون ذلك» فقال «أي أن البصريين كانوا يريدون نسبته [يونس] الى مدرستهم معارضين في ذلك الكوفيين الذين يرون فيه مؤسس مدرستهم»[٤١].

مع أن السيوطي الذي زعم أن اهل الكوفة يدعون ان الفراء استكثر عنه لم يدر في ذهنه أنهم بهذا يريدون الى القول بأن يونس مؤسس مدرستهم، بل قال في ترجمته لابي جعفر: «وهو أول من وضع من الكوفيين كتابا في النحو، وهو أستاذ الكسائي والفراء»[٤٢] وقال في المزهر بعد أن عرض لرأي أبي حاتم فيه: «وأهل الكوفة يُعظّمون من شأنه، ويزعمون أن كثيرا من علومهم وقراءاتهم مأخوذ عنه. قلت: الامر

---

(٤٠) مقدمة الانصاف.

(٤١) المصدر نفسه.

(٤٢) بغية الوعاة ١/٨٢.

كذلك، وأبو جعفر هذا هو أستاذ الكسائي، وهو أول مَنْ وضع من الكوفيين كتابا في النحو»[٤٣]. فاذا كان الكوفيون قد نسبوا الى أبي جعفر الرواسي هذا لم يبق وجه لما استنتجه «ڤايل» من كلام السيوطي.

ولم يكن ڤايل ليكون مخلّطا في مزاعمه على النحو الذي جاءت أقواله عليه لو أنه وقف على مصادر الدرس الكوفي، ووصلت اليه كتبهم، وقد مر بنا أنه لم يقف على (معاني القرآن) الذي حوى كثيرا من آراء الفراء الصائبة على حد قوله، والذي جعله يطمئن الى سلامة النتائج التي توصل اليها أن الكتّاب المتأخرين لم يعرضوا النصوص منه، ولا أشاروا الى آراء الفراء النحوية فيه.

ويبدو ان اشتداد المنافسة بين تلاميذ ثعلب وتلاميذ المبرد، وغَلَبة تلاميذ المبرد وسيطرتهم على التعليم في مجالس الدرس وفي المدارس التي اسست كالنظامية وغيرها حملت الدارسين على اطّراح كتب الكوفيين، فضاع منها ما ضاع، وبقي منها ما بقي، ولكن الباقي منها لم يتداول، ولم يتدارس، ولم يعرفه الدارسون الا منذ الثلاثينات من هذا القرن، فلم يطبع كتاب (المجالس) لثعلب الا في سنة ١٩٤٨، ولم يطبع كتاب (معاني القرآن) جزؤه الاول الا في سنة ١٩٥٦، ولم يتم طبعه الا في هذا العام أي سنة ١٩٧٣، وهذان الكتابان، وان لم يخلصا للنحو، كانا قد احتويا كثيرا من الاراء الناضجة الصائبة التي تحمل في ثناياها سمات المنهج الكوفي البغدادي والخطوط الرئيسة التي قام عليها الدرس الكوفي في بغداد. وكان ينبغي لمثل (ڤايل) أن يبذل الجهد للوقوف على هذين الكتابين وغيرهما اللذين كانا من المخطوطات التي كان الدارسون، فيما يظن، يحجمون عن الاضطلاع بتحقيقها ونشرها.

---

(٤٣) المزهر ٢/٤٠٠.

بروكلمان ومدرسة الكوفة

ولم يكن حظ الدرس الكوفي عند (بروكلمان) بأحسن من حظه عند (فايل) بالرغم من وقوف (بروكلمان) على كتاب (معاني القرآن)، فقد وصفه وصفا يدل على انه لم يفته ان يقف على مخطوطته، وقد لاحظ ان الفراء «هو الكوفي الوحيد الذي تناول مسائل النحو على وجه متسلسل في تفسيره القرآن الكريم؛ كتاب معاني القرآن»[٤٤].

وكان (بروكلمان) يأسف لنقص علمه بنمو هذه المدرسة اعني مدرسة الكوفة، وذلك لقلة ما وصل الى الدارسين من مصنفات الكوفيين، أما الآراء التي يتمثل فيها الخلاف بين المذهبين مما نقلته مصنفات المتأخرين من النحاة فلم تعرض في امانة ودقة، لانها في رأيه «قليلة الانصاف للمدرسة الكوفية ذلك ان المتأخرين فضلوا المذهب المدرسي النظري الذي تم له الانتصار وهو مذهب البصريين الذي يؤثر التعمق في النكات والدقائق النحوية على مذهب الكوفيين المتجه الى واقع الاستعمال»[٤٥].

كان (بروكلمان) على صواب في تفسيره غلبة المذهب البصري على المذهب الكوفي، فقد وضع يده على السبب الذي كتب به انتصار المذهب البصري على منافسه.

واكبر الظن أن الدرس النحوي الذي يعتمد على المصادر الحية من كلام العرب كان قد انتهى بنضوب المصادر الحية، وتحول لغة المحادثة عن اللغة الموحدة، وانقسام اللغة الموحدة الى لهجات، وانحسار الفصاحة عن لغة التخاطب، واقتصارها على لغة الكتابة والشعر والتأليف، فلم يبق امام الدارسين المتأخرين الا آراء ونقول تعبر عن وجهات النظر المختلفة التي كانت المصادر الحية من كلام العرب تمليها على الدارسين من وجهات نظر

---

(٤٤) تاريخ الادب العربي ١٩٦/٢ الطبعة العربية.

(٤٥) تاريخ الادب العربي ١٩٦/٢ الطبعة العربية.

متفاوتة تستهدي في تفاوتها بمناهج دراسية تتفاوت في قربها من طبيعة الموضوع المدروس وبعدها عنه. وصار علم الدارس بالنحو يُقوَّم بمقدار قدرته على التعليل والتأويل وبمدى تعمقه في استخلاص الوجوه العقلية المحتملة للمسألة الواحدة وفي استخراج القياس، واستنباط القواعد المحكمة، وتحديد الموضوعات النحوية بحدود المناطقة الجامعة المانعة.

وكان الدرس البصري اخبر في القياس والتعليل، واقدر على اصطناع الاساليب العقلية، وكان الدرس الكوفي الصق بواقع الاستعمال وأعنى بتعبيرات الفصحاء، واحفل بالنقل والسماع، وابعد في التتبع والاستقراء.

وهذا في رأيي من اهم الاسباب التي حملت الدارسين على العزوف عن الدرس الكوفي، واطراح المصنفات الكوفية، وعلى ترويجهم للدرس البصري وايثارهم اياه.

وقد اطلّى على (بروكلمان) ما كان قد أطلّى على جمهور الدارسين ففهم من النسبة الى الكوفة ان يكون للكوفة تاريخ في النحو، كما كان للبصرة، وعرض لابي جعفر الرواسي على انه مؤسس مدرسة النحو في الكوفة، وان الخليل استفاد من بعض مصنفاته، وجاز عليه تخليط السيوطي فذكر ان معاذ الهراء واضع علم الصرف، وذهب الى انهما يمثلان تاريخ النحو والصرف في الكوفة، وكان (بروكلمان) في عرضه لهذا متابعا للقدماء لا محققا ولا ناقدا.

وفي حدود ما أعلم أنّ الكسائي والفراء وثعلبا لم يسموا بالكوفيين الا في اثناء القرن الرابع للهجرة، ولم اجد فيما وقفت عليه من اقوال ومصنفات أنّ أحدا من الدارسين الاوائل كان يسمّي الكسائي او الفراء او ثعلبا أو احد اصحابهم وتلاميذهم بالكوفي، وسيأتي بيان ذلك في فصل قابل. اما ابو جعفر الرواسي ومعاذ الهراء فليس لهما من الأقوال والآراء ما يدل على ان لهما مذهبا بعينه او ان لهما صلة بمدرسة بعينها، ولذلك كان من التخليط ان يقرنا بأحد من رجال المدرستين، او ان يتوهم احد الدارسين،

فيزعم، في غير وعي، ان الرواسي مؤسس مدرسة النحو في الكوفة، وان الهراء واضع علم الصرف.

شوقي ضيف ومدرسة الكوفة

وجاء الدكتور شوقي ضيف في كتابه (المدارس النحوية) بعد ان وقف على اعمال هؤلاء الدارسين، ووقف على الدراسات الحديثة التي تمت باشرافه او باشراف غيره من شيوخ النحو الذين اخذ هو عنهم، ووقف على مصنفات للكوفيين لم يتح لكثير ممن سبقه ان يقف عليها، ككتاب (مجالس ثعلب)، وكتاب (معاني القرآن) للفراء وكتاب (المنقوص والممدود) للفراء. وغيرها من الكتب التي أخرجها دارسون عرفوا بالتحقيق ونشروها، واغنوا المكتبة العربية بها.

جاء الدكتور شوقي ضيف بعد كل هذا ليتبنّى رأيا مخلّطا سبق لقايل ان تبنى مثله. وليطلّي عليه ما اطّلى على من سبقه، ويجوز عليه ما جاز على غيره، من زيف جرت به اقلام المدعين من النحاة المتعصبين على الدرس الكوفي البغدادي الذين تحاملوا على الكسائي والفراء وثعلب واصحابهم وتلاميذهم. وحاولوا ان يغضّوا من شأنهم، ويتهموهم بانهم افسدوا النحو، او بانهم كانوا حشو عسكر الخليفة، لم يكن فيهم من يوثق بروايته او يعتد بعلمه «فان ادعى احد منهم شيئا رأيته مخلطا صاحب تطويل وكثرة كلام ومكابرة»[٤٦].

واذا كان مثل الافغاني في كتابه (في اصول النحو) والدكتور عبد الرحمن السيد في رسالته (مدرسة البصرة النحوية) قد انطلقا في تخليطهما من منطق التعصب الذي لا يليق بالدارسين، ومن التعجّل في اطلاق الاحكام الذي لا يجوز مثله للباحثين فلا يصح ان يورط الدكتور شوقي

(٤٦) مراتب النحويين ١٠١.

ضيف نفسه فيتناول موضوعا لم تكتمل لديه اسباب نضجه، ولا امتدت يده الى ابعاده.

لقد بدا على الاستاذ الجليل في كتابه (المدارس النحوية) انه طارىء على الدرس النحوي. مقحما نفسه في ميدان ليس له موضعُ قدم فيه، إلّا أنّ شهرته في العلم، وبُعْد صيته في التأليف كان قد وطّأ له هذا المركب الخشن، وان اخلاد الناقدين الى اعفاء انفسهم من ملاحقة الكُتّاب الذين اجترءوا على السخرية من الدارسين كان قد شجعه على ارتياد هذه الطريق.

وقد بدا الدكتور (ضيف) في كتابه هذا مناقضا نفسه في تقويمه مدرسة الكوفة النحوية، وكان في كتابه هذا مع (ڤايل)، لم ير في مدرسة الكوفة أصالة، ولا اعتدّ بمذهبها النحوي الذي نافس بقوة مذهب البصريين وفعل ما فعله (ڤايل) فأرجع مقومات الدرس الكوفي الى نحوي بصري كان في رأيه هو صاحب التأثير الموجه في الدارسين الكوفيين في بغداد، الا انه خالف (ڤايل) فلم يذهب الى ان يونس بن حبيب هو ذلك الرجل، بل لقد عاب على (ڤايل) رأيه في تأثير يونس في الكوفيين لاتفاقه معهم في بضع مسائل «وهي لا تعدو اربعة آراء»[٤٧].

البصري الذي يرى الدكتور (ضيف) انه الموجّه والمؤثر في الكوفيين هو الأخفش سعيد بن مسعدة صاحب سيبويه وتلميذه، فقد زعم ان الاخفش هو الذي مهد لنشأة مدرسة الكوفة والمدارس المتأخرة المختلفة، فقد كان ـ على حد زعمه ـ اكبر ائمة البصريين بعد سيبويه، وهو الذي جرّأ النحاة من بعده على تخطئة سيبويه، او «فتح ابواب الخلاف عليه»[٤٨]. او الذي «فتح للكوفيين ابواب الخلاف على سيبويه واستاذه الخليل بما بسط من وجوهه»[٤٩]، والذي تلمذ له الكسائي والفراء وتابعاه

---

(٤٧) المدارس النحوية ٩٥.

(٤٨) المدارس النحوية ٩٥.

(٤٩) المدارس النحوية ٩٦.

في كثير من آرائه التي خالف فيها سيبويه والخليل.

ولا بد للدكتور (ضيف) بعد ان رتب هذه المقدمات ان يصل الى مثل ما وصل اليه (ڤايل) من قبل، فكان الاخفش في رأيه هو صاحب التأثير في الكوفيين، وهو الذي اوحى للكوفيين اتجاهات المذهب الكوفي، وهو الذي اعد بما تلقاه الكوفيون عنه من آراء واقوال لنشأة مدرستهم، فهو بحق «الاستاذ الحقيقي للمدرسة الكوفية»[٥٠]، او هو «الامام الحقيقي للكوفيين ومدرستهم»[٥١].

وكان سبيله الى هذا الزعم هو موافقته الكوفيين في ثلاثين مسألة من مسائل الخلاف التي تضمنها كتاب (الانصاف) «واذا كان (ڤايل) لاحظ ان بعض الكتب النحوية ذكرت اتفاق يونس والكوفيين في مسائل لا تعدو اصابع اليد الواحدة فقد مر بنا في ترجمة الاخفش اتفاق الكسائي والفراء الكوفيين معه في نحو ثلاثين مسألة»[٥٢]، وكأنّ هذا الاكتشاف انتصار للفكرة التي طلع بها على (ڤايل) الذي قنع باتفاق يونس مع الكوفيين في مسائل لا تعدو اصابع اليد الواحدة.

اذا صار الاخفش امام الكوفيين باتفاقه معهم في نحو ثلاثين مسألة فمن امامهم في الاحدى والتسعين مسألة التي نهضوا بعبء المخالفة فيها دون توجيه من الاخفش؟! وليس هذا العدد هو كل ما خالف الكوفيون البصريين فيه فمسائل الخلاف كثيرة ولم يحط بها الأنباري ولا غيره، ولم يقل الأنباري انها كل مسائل الخلاف بل قال: هي مشاهيرها، كما جاء في مقدمته لكتابه، وفي كتب النحو مسائل لا يسهل عدها كان الكوفيون يخالفون فيها البصريين، ولم يكن للأخفش مشاركة فيها.

ويبدو لي ان (ڤايل) كان اقوى حجة من الدكتور (ضيف) وان كان

---

(٥٠) المدارس النحوية ٩٦.

(٥١) المدارس النحوية ٩٦.

(٥٢) المدارس النحوية ١٥٦.

عدد المسائل التي استند اليها في تأثير يونس في الكوفيين لا تعدو اصابع اليد الواحدة، لأن شخصية يونس النحوية لا تدانيها شخصية الأخفش، فيونس استاذ سيبويه، وآراؤه التي نقلها سيبويه وحده آراء لم تكن لتصدر الا عن نحويّ له مذهب تفرد فيه فعلا. اما سعيد بـن مسعـدة الاخفش فلا يسمح ماضيه في النحو خاصة ان يتخذ له مكانا في المؤسسين او الملهمين او الائمة، بالرغم من كثرة ما نسب اليه من اقوال وآراء في كتب النحو.

على ان الدكتور (ضيف) ما لبث ان ناقض نفسه، فحين ترجم الكسائي قال جازما: «لا ريب في ان الكسائي يعد إمام مدرسة الكوفة، فهو الذي وضع رسومها ووطأ منهجها»[٥٣]، وحين ترجم للفراء قال جازما ايضا: «ان الفراء يقوم في الكوفة مقام سيبويه في البصرة، فهو الذي اعطى المدرسة الكوفية تشكّلها النهائي الا بعض اضافات زادها الكوفيون بعده وفي مقدمتهم ثعلب»[٥٤].

فاذا كان الكسائي هو الذي وضع رسوم المدرسة، ووطأ منهجها، والفراء هو الذي اعطى المدرسة طابعها المتميز فماذا بقي للأخفش الذي قدّر له، على يد الدكتور ضيف، أن يحتل مكانا لم يؤيده ماضيه في العلم في احتلاله؟!

واذا فطن الدكتور (ضيف) لاتفاق وجهة نظره من بعض المسائل مع وجهة نظر الكوفيين فقد فاته ان يفطن انه لم يكن شيئا عند سيبويه، ولا عند تلاميذه، ولم يسمع له رأي في مسألة نحوية قبل وفاة سيبويه، او وجهة نظر نحوية قبل وروده بغداد.

وقد روي عن ابي عثمان المازني انه قال: «حدثني الأخفش قال:

---

(٥٣) المدارس النحوية ١٧٥.

(٥٤) المدارس النحوية ١٦٥.

حضرت مجلس الخليل فجاءه سيبويه فسأله عن مسألة، وفسرها له الخليل فلم افهم ما قالا، فقمت وجلست له في الطريق، فقلت له: جعلني الله فداءك. سألت الخليل عن مسألة فلم افهم ما رد عليك ففهمنيه، فاخبرني بها فلم تقع لي ولا فهمتها، فقلت له: لا تتوهم اني اسألك اعناتا فاني لم افهمها، ولم تقع لي، فقال: ويلك: ومتى توهمت اني اتوهم انك تعنتني؟!» [٥٥]. كما روي ايضا ان الأخفش جاء سيبويه يوما يناظره «فقال له الأخفش: انما ناظرتك لأستفيد منك. فقال سيبويه: اتراني اشك في هذا؟» [٥٦].

وروي ايضا «ان ابا عمر الجرمي وابا عثمان المازني، وكانا رفيقين توهما ان ابا الحسن الأخفش قد هم ان يدعي (الكتاب) لنفسه، فقال احدهما للآخر: كيف السبيل الى اظهار الكتاب، ومنع الأخفش من ادعائه؟ فقال له: ان نقرأه عليه. فاذا قرأناه عليه أظهرناه واشعنا انه لسيبويه فلا يمكنه ان يدعيه... وشرعا في القراءة عليه، واخذا الكتاب عنه، واظهرا انه لسيبويه، واشاعا ذلك فلم يمكنا ابا الحسن ان يدعي الكتاب» [٥٧].

وهذا ابو حاتم سهل بن محمد السجستاني، وهو احد تلاميذ الاخفش وقرأ عليه كتاب سيبويه، كان لا يرى في الأخفش، وهو يعاصره ما يراه الدكتور (ضيف) في هذا العصر، فقد كان أبو حاتم يتهم الاخفش بوضع كتابه في القرآن على كتاب ابي عبيدة [٥٨]. ويظن ان الأخفش كان قد وضع كتابه في النحو من كتاب عليّ الجَمَل [٥٩]، وهو نحوي من المدينة.

---

(٥٥) معجم الأدباء ١٦/١٢٦.
(٥٦) أخبار النحويين البصريين ٤٩. نزهة الالباء ٧٨، ٧٩.
(٥٧) معجم الادباء ١١/٢٢٦. نزهة الالباء ١٨٥، ١٨٦.
(٥٨) طبقات النحويين واللغويين ٧٤.
(٥٩) مراتب النحويين ١٠٠. طبقات النحويين واللغويين ٧٥.

ولا ريب ان نظرة الأخفش الى نفسه فيما حكاه المازني، ونظرة الجرمي والمازني فيما حكي منها، ورأي ابي حاتم فيه وفيما صنف في القرآن والنحو يجعل موقف الدكتور (ضيف) برفعه الأخفش الى مكان المؤسسين الموجهين حرجا ضعيفا.

يؤيد ما قيل عنه أن الذين ترجموا له لم يذكروا احدا من شيوخ النحو باسمه كان الأخفش قرأ عليه النحو، وكل ما قالوه هو أنه «لقي من لقيه سيبويه من العلماء»[٦٠]، أو «اخذ عمن اخذ عنه سيبويه»[٦١].

ولكن سيبويه كان قد لقي الخليل، وتلمذ له، واكثر من الأخذ عنه، ولم يأخذ الاخفش عن الخليل شيئا[٦٢]، فاذا لم يأخذ الاخفش عن الخليل فعمن اخذ؟ ومن النحوي الذي تلمذ له الاخفش، واستكثر عنه، ووصل به الى ان يكون اعلم الناس؟

تذكر بعض كتب الطبقات التي بين أيدينا انه اخذ عن ابي مالك عمرو بن كركرة النميري[٦٣]، ولم يقع لي ان ذكر غيره، وابو مالك هذا هو احد فصحاء العرب الذين سمع منهم العلماء، وقد ذكره ابن النديم في فصحاء العرب المشهورين الذين سمع العلماء منهم[٦٤]، وهذا يعني انه اخذ عنه اللغة، أما النحو فلا، لأن النميري لم يكن من النحاة.

اما قولهم انه اخذ عمن اخذ عنه سيبويه، أو لقي من لقيه سيبويه من العلماء فقول بَهْمٌ لا يعني شيئاً، لأن الذين لقيهم لم يكونوا ذوي تأثير في سيبويه. والأخفش لم يأخذ عن الخليل، ولم يفد منه شيئا، لانه «كان مع الخليل في بلد واحد فلم يحك عنه حرفا واحدا»[٦٥].

(٦٠) اخبار النحويين البصريين ٣٩.
(٦١) معجم الادباء ١١/٢٢٥.
(٦٢) مراتب النحويين ٦٨.
(٦٣) مراتب النحويين ٦٨. انباه الرواة ٢/٤٠.
(٦٤) الفهرست ٦٦.
(٦٥) الخصائص ٣/٣١١.

اما ما قيل من أنه تلمذ لعيسى بن عمر بقرينة نقله عنه، او سماعه منه فلا يعني شيئا ايضا، لان حدود عيسى بن عمر في علمه لا تتجاوز حدود طبقته، ولو كان علم عيسى بن عمر في النحو مما جعل الأخفش يستكثر عنه، ويكون اعلم الناس لما كانت نقول سيبويه عنه لا تكاد تتجاوز العشرة، ولما انقطع سيبويه عنه الى مجلس الخليل اذا ثبت حقا انه تلمذ له.

اما الاخبار التي تروي انه صار اعلم من سيبويه بما في الكتاب بعد ان كان سيبويه اعلم به منه فصادرة عن الاخفش نفسه. فقد قال الرياشي: «حدثني الأخفش قال: كان سيبويه اذا وضع شيئا من كتابه عرضه علي، وهو يرى اني اعلم به منه، وان كان اعلم مني، وانا اليوم اعلم منه»[٦٦].

ولا يسع الدارس الا ان يرد هذه القولة، ويشك في صحة هذا الزعم، لان ذلك يتعارض مع ما رواه ابو عثمان المازني عنه مما سبق ذكره، ولان تلاميذه ومعاصريه لم يروا فيه هذا، بل لم يروه في النحو شيئا.

واما تلمذة الكسائي والفراء له فليس في حياة الأخفش العلمية ما يؤيدها، وليس ما استمسك به القائلون بهذه التلمذة الا روايات غامضة مصدرها الأخفش نفسه، ويبدو عليها الافتعال، لانها اطلقت مجملة لايهام الدارسين بأنها واقع، ولصرفهم عن الدرس الكوفي والغض من شأنه، ولم تبين الروايات كيف كانت تلك التلمذة، ولا ما أفاده الكسائي والفراء منها. وكل ما جاء فيها مزاعم لا تكاد تخفي التعصب الذي كان منطلق تلك الروايات.

يبدو مما حدّث به الأخفش نفسه أيضا أن اتصاله بالكسائي واصحابه انما كان في بغداد، وقد ورد الأخفش بغداد طلبا للرزق وان كان كلامه يلمح انه وردها ليثأر لسيبويه بعد فشله في المناظرة التي حدثت في بغداد بينه وبين الكسائي.

---

(٦٦) مراتب النحويين ٦٩.

ومهما تكن الدوافع التي دفعت الأخفش الى الاقامة في بغداد فان الكسائي قد استطاع بعلمه وكفاءته ولباقته أن يغطي على شخصيته، وأن يضمه الى اصحابه وان يستدرجه الى تأديب أولاد له، ثم يجري عليه مقدارا من المال، وقد مال الاخفش اليه فعلا، وعاش في كنفه. وقد تحدث الاخفش عن نفسه فقال: «لما ناظر سيبويه الكسائي ورجع وجه الي فعرفني خبره معه، ومضى الى الاهواز فوردت بغداد فرأيت مسجد الكسائي فصليت خلفه الغداة، فلما انفتل من صلاته وقعد وبين يديه الفراء والاحمر وابن سعدان سلمت وسألته عن مئة مسألة فأجاب بجوابات خطأته في جميعها فأراد أصحابه الوثوب علي فمنعهم، ولم يقطعني ما رأيتهم عليه عما كنت فيه، فلما فرغت قال لي: أما انت ابو الحسن سعيد بن مسعدة؟ قلت: نعم. فقام الي وعانقني، وأجلسني الى جانبه، ثم قال: لي أولاد، وأحب أن يتأدبوا بك، ويتخرجوا عليك، وتكون معي غير مفارق لي فأجبته الى ذلك».

لقد التحق الاخفش فعلا بأصحاب الكسائي، وانطوى في كنفه، وطغت عليه شخصية الكسائي حتى كاد لا يذكر من المواقف ما يتناسب مع مزاعمه ومزاعم البصريين الا أخبارا قليلة كان أكثرها صادرا عن الكوفيين، فقد روى ثعلب عن سلمة عن الفراء عن الكسائي انه قال: «لم يكن في القوم -يعني البصريين- أعلم من الاخفش، نبههم على عوار الكتاب وتركهم. يعني كتاب سيبويه»(٦٧). وحكى ثعلب أيضا «ان الفراء دخل على سعيد بن سالم فقال: قد جاءكم سيد أهل اللغة، وسيد أهل العربية فقال الفراء: أمّا ما دام الاخفش يعيش فلا»(٦٨) وكان ثعلب يفضله، «وكان يقول: هو أوسع الناس - ولعله يعني البصريين - علما»(٦٩).

---

(٦٧) مراتب النحويين ٦٨.
(٦٨) معجم الادباء ١١/٢٢٧.
(٦٩) نزهة الالباء ١٨٧.

إذا كان هذا من قول ثعلب فلا أظنه يعني الناس جميعا كوفيين وبصريين ولا سيما الفراء الذي قال ثعلب فيه: «لولا الفراء لما كانت اللغة، لانه حصلها وضبطها، ولولا الفراء لسقطت العربية، لانها كانت تتنازع، ويدعيها كل من أراد، ويتكلم الناس على مقادير عقولهم وقرائحهم فتذهب»[٧٠]. وأكبر الظن أنه احتذى الكسائي فيما حكى عنه فلم يقصد بالناس غير البصريين.

ومن المستغرب أن تصدر هذه الاقوال عن ثعلب الذي لم يكن يرى البصريين شيئا ومن المستغرب أيضا أن يكون الفراء نفسه يشيد بعلم الاخفش في اللغة والعربية، وهو الذي لم يكن يرى سيبويه شيئا، لانه فيما زعموا، كان «على تيه وعجب وتعظم وكان زائد العصبية على سيبويه»[٧١].

ولو كان الفراء يرى في الاخفش ما صورته الرواية لكان الاخفش من مصادره في اللغة والعربية، ولكن الدارس لا يرى في مصنفات الفراء ذكرا للاخفش ولا اشارة اليه.

وليس ببعيد الاحتمال أن تكون هذه الاقوال مما افتعل على ثعلب، افتعلها تلاميذ المبرد الذين تعصبوا للبصريين على الكوفيين، أو مما قاله ثعلب فعلا لأنّه من مذهبهم، ومخالفته سيبويه في بعض المسائل التي خالفوه هم فيها متابعة لهم، وتقربا اليهم.

أما القصة التي حكاها عن نفسه ووصف فيها وروده بغداد، ومساءلته للكسائي أن يلازمه، ويؤدب أولاده فهو مدّع غال فيما حكاه من سؤال الكسائي بعد الفراغ من الصلاة عن مئة مسألة خطأه في جواباته كلها، لان مثل هذا بعيد الوقوع، والا كان على غير الحال التي آل اليها أمره. لقد

---

(٧٠) نزهة الالباء ١٢٧.

(٧١) بغية الرعاة ٢/٣٣٣.

جاء الى بغداد ـ كما قالت القصة ـ ليثأر لسيبويه، ومن كان هذا قصده لم يضعف، كما فعل حين لوح له الكسائي بالزلفى التي منحه اياها، وبالجراية التي أجراها عليه ولم يكن الكسائي، اذ ضمه الى أصحابه، ليأخذ عنه، ولا ليفيد منه، ولكن ليؤدب أولاده ولو كان الاخفش على ما ادعى لكان للكسائي معه موقف آخر، ولكنه رضي من طلب الثأر بالانضمام الى أصحابه، ومن فرض شخصيته العلمية بقيامه بتأديب أولاده، ويبدو أن الاخفش كان قد مهر في هذا فقد كان يذهب الى التكسب.

أما تلمذة الفراء له فأبعد احتمالا، وذلك أن الاخفش الذي زعم أنه اقرأ الكسائي الكتاب سرا [٧٢]، لم يقل ذاك ولم يلمح اليه في الفراء وكل ما قاله أنه: «لما اتصلت الايام بالاجتماع سألني ـ يعني الكسائي ـ أن أؤلف له كتابا في معاني القرآن، فألفت كتابي في المعاني، فجعله اماما، وعمل عليه كتابا في المعاني، وعمل الفراء كتابه في المعاني عليهما» [٧٣].

لو كان الاخفش صادقا فيما ادعى لرأينا له أثرا فيما أملى الفراء من معاني القرآن، ولكان الاخفش أحد من كان الفراء يروي عنهم فيه، أو يروي لهم، وما عهدنا الفراء الا ثقة أمينا في كل ما روى وحكى وحدث.

أما العربية فلم يزعم أحد حتى الاخفش أن الفراء تلمذ له فيها. لان الفراء اذ ذاك كان يهيىء نفسه للرئاسة بعد الكسائي، لم يزعم ذاك حتى أشد المتعصبين على الفراء.

فتلمذة الفراء للاخفش تفتقر الى الدليل، وهو ما لم يتيسر للزاعمين، ولن ينقض رئاسة الفراء في العربية في بغداد أنه وقف على كتاب سيبويه ولازمه [٧٤]، فكتاب سيبويه كتاب البصرة، وخلاصة علم الخليل، ولا بد للدارس الحاذق أن يقف عليه، وعلى ما فيه من آراء، واذا صح أنه كان

---

(٧٢) معجم الادباء ١١/٢٢٩. مراتب النحويين ٧٤.

(٧٣) انباه الرواة ٢/٣٧.

(٧٤) مراتب النحويين ٨٧.

ملازما للكتاب فليس في ذلك ما يغض من شأنه، لانه لم يتعلم العربية به فهو فيها رئيس لا ينازع، وقد خالف على سيبويه كثيرا «وكان زائد العصبية عليه» [٧٥].

لم يجهل الدكتور (ضيف) شيئاً مما عرضت، فقد قيل ذلك كله، ودُوِّن، وتناقلته أفواه الرواة وكتب الطبقات، ولا شك أنه كان قد وقع له، ووقف عليه، ولكنه لم ينفعه فيما خطط له، فلو أخذ به لما كان لتأليفه (المدارس النحوية) فائدة، ولا لاستنتاجاته في فصوله معنى، ولما تسنى له أن ينعم بالمخالفة لمجرد أنها مخالفة.

(٧٥) مراتب النحويين ٨٧.

تلاميذ ثعلب والمبرّد

شهدت بيئات الدرس في بغداد بعد ثعلب والمبرد جيلا من الدارسين اتسموا بالتحرر من العصبية المذهبية، وشغلتهم الحياة الجديدة عن الخصومات القديمة، فلم يتحرّجوا في الاخذ عن البصريين ولا عن غيرهم، ولم يتوانوا عن الافادة من الثقافات المختلفة الوافدة من هنا وهناك، لان الاذهان كانت اوسع أفقا، واكثر انفتاحا، وأوعى للافكار الجديدة، وأبعد ما تكون عن التعصب الذي اتسمت به أذهان البصريين الذين وجدوا آباءهم على أمة فلم يحيدوا عن آثارهم، ولا رأوا فيما وراء دائرتهم علما يعتد به، أو درسا جديرا بالعناية.

فبغداد في نظر المتزمتين من البصريين « مدينة ملك، وليس بمدينة علم، وما فيها من العلم فمنقول اليها، ومجلوب للخلفاء وأتباعهم ورعيتهم، ونيتهم بعد ذلك في العلم ضعيفة، لان العلم جد، وهم قوم الهزل أغلب عليهم، واللعب أملك لهم »[1].

والدارسون في بغداد في نظر المتعصبين منهم « حشو عسكر الخليفة، لم يكن بها من يوثق به من كلام العرب، ولا من يرتضي روايته، فان ادعى أحد منهم شيئا رأيته مخلطا صاحب تطويل وكثرة كلام ومكابرة، ولا

(١) مراتب النحويين ١٠١.

يفصل بين علماء البصرة بالنحو، وبين الرواسي والكِسائي، ولا بين قراءة أهل الحرمين وقراءة حمزة، ويتحفظ أحدهم مسائل من النحو بلا علل ولا تفسير »[٢].

غير أن الحياة الثقافية في بغداد كانت تستعصي على فهم أبي الطيب اللغوي، فلم ير فيها علما، ولم يجد في نية البغداديين قوة، لان العلم جـد، والقوم عنده هازلون.

وكانت بغداد اوسع من أن يحيط بها ادراك أبي حاتم، فلم ير فيها في الدارسين على اختلاف تخصصاتهم، وتنوع مهاراتهم الا مخلطين أصحاب تطويل وكثرة كلام ومكابرة.

ولكن الحياة الثقافية ظلت تنمو وتزدهر، وتتسع وتتعمق، وابو حاتم وابو الطيب اللغوي من بعده ظلا يعانيان جدباً وجمودا وضيقا وضحالـة، ولم يبق في أيديهما لمواجهة الجديد الا التحامل ونفث الحقد والتعصب. فكان نصيب الفراء واصحابه من أبي حاتم ان يوسموا بميسم التخليط والمكابرة، ومن نصيب ابن قتيبة من أبي الطيب اللغوي أن يوصف بأنه كان يخلط بالحكاية عن الكوفيين « ويتسرع في أشياء لا يقوم بها »، ويصف كتبه، وفيها: أدب الكاتب، وعيون الاخبار والمعارف، والشعراء بأنها « مما أزرى به عند العلماء، وان كان نفق بها عند العامة ومن لا بصيرة له »[٣].

وكل ما عيب به على الفراء أنه خالف على البصريين، و« تعمد الخلاف على سيبويـه »، واصطنع اوضـاعـا ومصطلحـات ومسميـات لم يـألفهـا البصريون، وكل ما عيب به على ابن قتيبة انه كان يحكي عن الكوفيين حكايات يزعم أبو الطيب أنه لم يكن اخذها عن ثقات »[٤].

وقد أدى ذلك الى أن يعيش الدارسون البصريون في عزلة، وان

---

(٢) المصدر نفسه.
(٣) مراتب النحويين ٨٥.
(٤) المصدر نفسه.

يتحاموا الانفتاح لما يجري في غير بيئتهم، لئلا يوسموا بالتخليط او يتهموا بالافساد.

أما الدارسون في بغداد فحالهم مختلفة، فهم أوعى للثقافات، واكثر انفتاحا للافكار، وأقل تحرجا في الاخذ والحكاية عن هذا الفريق او ذاك.

وتمضي الاعوام، ويمضي معها ثعلب والمبرد، ويبقى جيل من الدارسين بعيد عن الخصومات، لا يرى في طلب العلم من بصري او كوفي حرجا ولا يجد في الحكاية عن كوفي غضاضة، ولم يعدم أن يكون فيه من يواجه تعصب المبرد بما يجد منه، كما كان من ابي الحسن بن كيسان مع المبرد، فقد «كان ابن كيسان يسأل ابا العباس محمد بن يزيد المبرد عن مسائل فيجيبه، فيعارضها بقول الكوفيين»[5].

لقد استرعى هذا الجيل الذي تلمذ لثعلب والمبرد انتباه الدارسين، فرأوا فيه جيلا جديدا متفتحا ليس فيه تزمت البغداديين الاوائل ولا تعنت البصريين الاوائل، ولا تعصبهم لاراء شيوخهم، وكان هذا التفتح على ممثلي المذهبين وآرائهما لافتا انتباه ابن النديم خاصة فكان منه أن جعل رجاله فريقا ثالثا من الدارسين، مميزا اياهم من رجال المذهب البصري، ورجال المذهب الكوفي بأنهم خلطوا المذهبين ولم يعن ابن النديم بخلط المذهبين التلمذة للمبرد وثعلب، بل كان يعني أنهم تحرروا من تزمت المتعصبين من الفريقين، فلم يتحرجوا في الحكاية عنهما بآية أنه جعل ابن قتيبة الذي لم يأخذ عن ثعلب ولا عن غيره من البغداديين الكوفيين في مقدمة من خلط المذهبين، لانه كان يحكي في كتبه عن الكوفيين.

ويمكننا أن نجعل أعلام هذا الجيل ثلاث طوائف:

الطائفة الاولى: جماعة من الدارسين لزموا ثعلبا ومذهبه، وروّجوا له، ورعوه وانتصروا له.

---

(٥) مراتب النحويين ـ ترجمة الفراء ٨٨. معجم الادباء ١٧/١٣٧، ١٣٨.

والطائفة الثانية: جماعة من الدارسين لزموا المبرد ومذهبه، وتعهدوه وانتصروا له.

والطائفة الثالثة: جماعة من الدارسين كانت تختلف الى ثعلب والمبرد، وتتلمذ لهما، وتستكثر عنهما.

اما الطائفة الاولى فمن أشهر اعلامها:

١ ـ أبو موسى الحامض، سليمان بن محمد بن احمد (توفي سنة ٣٠٥ هـ) لزم أبا العباس ثعلبا، وكان من اكابر اصحابه، وألصقهم به، وقد خلفه في الرئاسة، وتصدر مجلس التدريس بعده، وكان شديد التعصب على معاصريه من الدارسين الذين لازموا المذهب البصري، واخذوا عن المبرد والزجاج وغيرهما.

كان أبو موسى من الشيوخ الذين كان الزجاجي كثيرا ما يشير الى أنه كان ممن جمع علم البصريين الى علم الكوفيين[٦]، وكذلك فعل اصحاب الطبقات[٧] الا ياقوت فقد زعم أنه «كان جامعا بين المذهبين، الكوفي والبصري»[٨]، ولعله تأثر ابن النديم في عد أبي موسى الحامض فيمن خلط المذهبين، دون ان يذكر الذين اخذ عنهم من البصريين، ولعل ابن النديم كان قد وهم فعده فيهم، وما نسب اليه من رفض لمنع المصروف من الصرف اختيارا واضطرارا يوافق فيه جمهور البصريين[٩]، لا يعني انه كان يخلط المذهبين، لانه اجتهاد من ابي موسى، ووجهة نظر خاصة، وليس من النادر ان يوافق كوفي بصريا في مسألة ليخالف اصحابه فيها، كما ليس من النادر ان يوافق بصري كوفيا في هذه المسألة او تلك.

٢ ـ وأبو بكر بن الانباري، محمد بن القاسم بن بشار (توفي سنة ٣٢٨ هـ)

---

(٦) انظر: الايضاح في علل النحو ٧٩.

(٧) طبقات النحويين واللغويين. انباه الرواة ٣/١٤١. نزهة الالبا ٣٠٦، ٣٠٧، و.. و..

(٨) معجم الادباء ١١/٢٥٤.

(٩) همع الهوامع ١/٣٧.

أبرز تلاميذ ثعلب، واوسعهم اطلاعا، واغزرهم علما، وقد جعله الازهري في عرضه لطبقات النحاة بوزن منافسه أبي اسحاق الزجاج، بل يبدو من ثنايا حديثه انه كان يرجحه، فقد كان «مقدما في صناعته، معروفا بالصدق، حافظا، حسن البيان، عذب الالفاظ، لم يذكر لنا الى هذه الغاية من الناشئين بالعراق وغيرها أحد يخلفه، أو يسد سده»[١٠].

وكان ابو بكر بن الأنباري من اعلم الناس في نحو الكوفيين، ومن اكثرهم حفظا للغة، وكان قد صنف في موضوعات شتى في علوم القرآن وفي الحديث، وفي اللغة، وفي النحو وفي الشعر[١١].

ومن مصنفاته:

(رسالة المشكل) كان قد عملها للرد على ابن قتيبة وابي حاتم، وهو كتاب في تفسير المشكل في القرآن، وكان قد املاه وبلغ فيه الى سورة طه[١٢]، وكان الازهري يقول: «كان واحد عصره، واعلم من شاهدت بكتاب الله ومعانيه واعرابه، ومعرفته اختلاف اهل العلم في مشكله»[١٣].

و (كتاب الاضداد) وهو مطبوع، وابو بكر في هذا الكتاب كثير الرواية عن ابي العباس ثعلب ويعقوب بن السكيت وابن الأعرابي والفراء والكسائي، وبعض البصريين مثل ابي عبيدة والأصمعي. وكان قد تصدى في مواضع منه لتخطئة قطرب، وابن قتيبة والرد عليهما.

من ذلك قوله: «انشدنا أبو العباس (يعني ثعلبا) وغيره:

وحديث ألذه هو مما ... تشتهيه النفوس يوزن وزنا
منطق صائب وتلحن أحيا ... نا وخير الحديث ما كان لحنا

وقال: اراد بقوله (تلحن): تصيب وتخطئ، واراد بقوله: (ما كان لحنا):

---

(١٠) تهذيب اللغة ١/ ٢٨.
(١١) نزهة الالباء ٣٣٠ فما بعدها.
(١٢) المصدر نفسه.
(١٣) تهذيب اللغة ١/ ٢٨.

ما كان صوابا . وقال ابن قتيبة : اللحن في هذا البيت : الخطأ ، وهذا الشاعر استملح من هذه المرأة مما يقع في كلامها من الخطأ . قال ابو بكر : وقوله عندنا محال ، لان العرب لم تزل تستقبح اللحن من النساء كما تستقبحه من الرجال ، ويستملحون البارع من كلام النساء كما يستملحونه من الرجال » [١٤] .

ومن ذلك قوله : « قال قطرب : من الاضداد قولهم : قد خَذِمت النعل ، اذا انقطعت عروقها وشسعها ، وأَخْذَمْتها اذا اصلحت عروقها وشسعها . وهذا ليس عندي من الاضداد ، لان (خذمت) لا يقع الا على معنى واحد ، وكذلك أَخْذمت ولفظ (أخذمت) يخالف لفظ (خذمت) ، وما لم يعبر الا عن معنى واحد بلفظه لا يكون من الاضداد » [١٥] .

ويبدو أن أبا بكر الأنباري كان من المرموقين في سعة علمه ، وكثرة حفظه ، وكان قد شهد عنفوان العصبية المذهبية ، واضطر الى مواجهتها ، وكان المعاصرون من اتباع المذهب البصري يحاجونه في كثير من الاصول الكوفية ، فزعم الزجاجي انه كان يصطنع في احتجاجه اسلوب البصريين ، ويدفع منطق البصريين ، ويناظر خصومه بمثل اساليبهم في المناظرة ، وربما اضطر الى ان يحكي عن الفراء وغيره ، ما لم يقولوه من تعليلات وتفسيرات ، غير أنّه لم يحذق الجدل حذق البصريين ، ولا مهر فيه مهارتهم .

وقد ذكر الزجاجي بعضاً ما كان يجري بينه وبين ابي بكر ، ومن ذلك ما جرى بينهما من مساءلة عن اصالة الفعل او المصدر ، وكان ابو بكر يحتج لاصالة الفعل بمثل الاسلوب الذي كان الزجاجي يحتج به لاصالة المصدر ، وذكر الزجاجي لأبي بكر بن الخياط ما جرى بينه وبين ابي بكر في هذه المسألة ، فقال ابن الخياط : « هذه اشياء يولدها من عنده على

---

(١٤) الاضداد ٢٤١ ، ٢٤٢ .
(١٥) الاضداد ٣٧١ .

مذاهبَ القوم ليست محكية عن الفراء، ولا موجودة في كتبه، ولكنها مما يرى انها تؤيد المذهب وتنصره »[١٦].

ولأبي بكر بن الأنباري آراء تتناقلها كتبَ النحو، لم تخرج عن الحدود التي رسمها شيوخه مؤسسو هذا المذهب من اعتداد بالنقل واعتماد لا يحد على القراءات.

من ذلك: ذهابه الى عدم اشتراط الاتفاق في المعنى في التثنية والجمع، وذلك « لوروده في قوله تعالى: ﴿وإلَه آبائك إبرَاهيم وإسماعيل وإسحاق﴾. ومن قوله ﷺ: الأيدي ثلاث، فيد الله هي العليا، ويد المعطي، ويد السائل السفلى، وقول العرب: القلم أحدّ اللسانين »[١٧].

٣ ـ وأبو عمر الزاهد، محمد بن عبد الواحد (توفي سنة ٣٤٥ هـ). كان من تلاميذ ثعلب المقربين حتى عرف بغلام ثعلب. وقد اضطربت الآراء فيه، فهي بين موثق ومضعف، فبينا يشيد ابن برهان بعلمه ويرى انه اعلم من تكلم في العربية اذ بالخطيب البغدادي[١٨] يزعم ان جماعة من اهـل الادب يطعنون عليه، ويقولون: لو طار طائر في الجو لقال: حدثنا ثعلب عن ابي الأعرابي، غير ان المحدثين يوثقونه ». وكان التنوخي يقول: « لم يُرَ قط احفظ منه »[١٩].

ولابي عمر مصنفات في اللغة والنحو منها: المداخل في اللغة، وشرح الفصيح، واليواقيت. وتفسير اسماء الشعراء، وفائت الجمهرة. وفائت العين. وغريب الحديث، والنوادر او كتاب العشرات.

لازم ابو عمر ثعلبا واستكثر عنه، وكانت عامة الحكاية في كتاب (المداخل في اللغة) عن ابي العباسَ ثعلب.

---

(١٦) الايضاح في علل النحو ٦٣.
(١٧) همع الهوامع ١/٤٣.
(١٨) تاريخ بغداد ٢/٣٥٧. معجم الادباء ١٨/٢٢٧. نزهة الالباء ٣٦٤.
(١٩) معجم الأدباء ١٨/٢٢٦.

واخذ عنه أبو علي محمد بن الحسن الحاتمي الأديب الكاتب اللغوي، وأبو الطيب عبد الواحد بن علي اللغوي الحلبي صاحب كتاب شجر الدر الذي سلك في مسلك شيخه ابي عمر في كتابه (المداخل)، وأبو القاسم عبد الواحد ابن علي بن برهان الأسدي.

سمع الخطيب البغدادي ابن برهان هذا يقول: «لم يتكلم في علم اللغة احد من الاولين والاخرين احسن من كلام ابي عمر الزاهد»[٢٠].

وسمع الخطيب «غير واحد يحكي عن ابي عمر الزاهد ان الاشراف والكتاب واهل الادب كانوا يحضرون عنده ليسمعوا كتب ثعلب وغيرها»[٢١].

اما تضعيفه، واتهامه بالكذب، واختلاق الحكايات التي تغمزه فمنقوض بما سمعه الخطيب من مشايخه، وبما حكاه عن تلاميذ ابي عمر وهم اعلام موثقون.

ولأبي عمر اقوال تتناقلها كتب النحو وهو في نحوه ولغته كوفي أصيل.

ومن آرائه في النحو: ذهابه الى جواز حركة حرف المعرب لغير جزم، نحو (يأمركم) وتابعه ابن مالك في هذا، وقال: «ان أبا عمرو حكاه عن لغة تميم، وخرج عليه قراءة «وبعولتهن أحق» «بسكون التاء»[٢٢]، وهذا هو مذهب الفراء في جواز حذف حركة (يفعل) لغير جزم تخفيفا.

ومنها: الغاء (عسى) فقد حكى قولهم: «عسى زيد قائم»، وقد تمسك بحكايته بعض النحاة فخرجها على اسناد (عسى) إلى ضمير الشأن[٢٣].

وبأمثال هؤلاء الدارسين امكن للمذهب الكوفي البغدادي ان يواصل

---

(٢٠) تاريخ بغداد ٢/٣٥٨.
(٢١) تاريخ بغداد ٢/٣٥٦.
(٢٢) همع الهوامع ١/٥٤.
(٢٣) همع الهوامع ١/١٣٠.

مسيرته، ويحتفظ بحيويته ونقائه على تعاقب العصور، وتفاوت الآفاق.

واما الطائفة الثانية فمن اشهر اعلامها:

١ ـ أبو اسحاق ابراهيم بن السري الزجاج (٢٣٠ ـ ٣١١ هـ). كان يشتغل بخرط الزجاج، ليقتات ويقيت اسرته، ويستعين به على طلب العلم شأنه في ذلك شأن النابهين في تلك البيئة الحضارية.

تلمذ لأبي العباس ثعلب عالم بغداد بالنحو واللغة والادب، ووارث علم الفراء والكسائي. وبقي ملازما ثعلباً آخذا عنه نحو البغداديين الكوفيين، وعلمهم باللغة والنحو والأدب والشعر.

ثم ورد المبرد بغداد سنة ٢٤٧ للهجرة فارا من سامراء بعيد مقتل المتوكل وكان اذ ورد بغداد ورد بلدا «لا عهد له باهله، فاختل وادركته الحاجة، شهود صلاة الجمعة، فلما قضيت الصلاة اقبل على بعض من حضره، (وسأله) ان يفاتحه السؤال ليتسبب له القول فلم يكن عند من حضره علم. فلما رأى ذلك رفع صوته، وطفق يفسر، يوهم بذلك انه قد سئل»[٢٤]. وقد نجح في ذلك، واسترعى انتباه الدارسين اليه، وأراد الزجاج ان يفاتشه ويُعْنِتَه، وكان ذلك اول اتصاله به.

حكى الخطيب عن ابي الحسن العروضي عن ابي اسحاق الزجاج انه قال: «كنت اقرأ على ابي العباس ثعلب، واميل الى قولهم ـ يعني الكوفيين ـ فعزمت على اعناته، فلما فاتحته ألجمني بالحجة وطالبني بالعلة، وألزمني الزامات لم اهتد لها، فتبينت فضله واسترجحت عقله، وجددت في ملازمته»[٢٥].

وروى الزبيدي قصة انقطاع الزجاج عن ثعلب ولزومه المبرد بمثل ما حكاه الخطيب، ولكنه عزا مفاتشة الزجاج الى طلب ثعلب وزعم انه ذهب

(٢٤) طبقات النحويين واللغويين ١١٨.
(٢٥) تاريخ بغداد ٣/٣٨١.

اليه مع هارون بن الحائك احد أصحاب ثعلب، وبعد ان رأى الزجاج من المبرد ما رأى اعتزم ملازمته، والتلمذة له. وأجرى على المبرد ثلاثين درهما في الشهر هي ما كان يدخره من ايام عمله الخمسة من كل شهر لطلب العلم، ووافق المبرد بعد ان اشترط انقطاعه عن ثعلب، واطراحه كتب الكوفيين. واذعن للأمر، ولازمه حتى برع في نحو البصريين، ونبه ذكره في اصحاب المبرد حتى كان المبرد لا يقرىء احدا كتاب سيبويه حتى يقرأه على ابراهيم، ويصحح به كتابه»[٢٦]. وكان ذلك ايماء الى رئاسة ابي اسحاق بعد المبرد، وكان أبو بكر مبرمان يقول، فيما يروي الزبيدي عنه،: «قصدت ابن كيسان لاقرأ عليه كتاب سيبويه. فامتنع وقال: اذهب الى أهله، يشير بذلك الى الزجاج»[٢٧]. ثم آلت رئاسة النحو البصري بعد المبرد الى الزجاج فعلا، وكان من بعده مرجع الدارسين في مذهب أهل البصرة في النحو، ولم يعده احد فيمن خلط المذهبين، بل لم يذكر الا على انه إمام المذهب واستاذ البصريين، ولم تشفع له تلمذته لثعلب ليكون ممن خلط المذهبين، ولا أخذه عن الرجلين ليكون احد رجال المدرسة البغدادية.

وهذا يؤكد أمرين:

اولهما: ان ابن النديم لم يكن ليعني بمن خلط المذهبين ان يكون له مذهب ثالث ليس بالبصري ولا بالكوفي، ولو كان ذلك مما دار في خلد ابن النديم لكان ابو اسحاق الزجاج عنده في مقدمة الفريق الذي كان يخلط المذهبين، ولكن ابن النديم لم يعده فيهم، بل عده في العلماء البصريين وفي اصحاب ابي العباس المبرد، بل «اقدم اصحاب المبرد قراءة عليه»[٢٨].

وثانيهما: ان الاساس الذي بنى عليه المحدثون فكرة المذهب البغدادي

(٢٦) طبقات اللغويين والنحويين ١١٩.

(٢٧) طبقات اللغويين والنحويين ١٧١.

(٢٨) فهرست ابن النديم ٩٠.

هو التلمذة لثعلب والمبرد، والتعمق في مصنفاتهما ومصنفات شيوخهما من البصريين والكوفيين، وليس بين تلاميذ الرجلين من افاد منهما وتعمق في مصنفاتهما ووقف على علم الكوفيين وعلم البصريين كابي اسحاق الزجاج. ومع ذلك لم يكن الزجاج معدودا عندهم في اعلام البغداديين، وذلك يدل في وضوح على ان الاساس الذي بنى المحدثون فكرتهم عليه متهافت لم يلبث أن انهار.

ولم أر احدا من الدارسين يعد الزَّجّاج في رجال المذهب البغدادي المزعوم غير هدى محمود قراعة، فقد قدمت لكتاب (ما ينصرف، وما لا ينصرف) للزجاج مقدمة سريعة عرضت فيها فكرة ان يكون الزجاج مؤسسا للمذهب البغدادي، لانه كثيرا ما يتردد في سمعها «ان المذهب البغدادي ما هو الا خلاصة المذهبين، الكوفي والبصري. ما هو الا ان يختار افضل ما في المذهبين من آراء ليخلص لنا مذهب تتركز فيه الآراء المختارة، ولن نرى اقدر من الزجاج ولا افضل منه مؤسسا للمذهب البغدادي، وواضعا نبتته الاولى، فالزجاج قد جمع علم البصريين والكوفيين... فاذا اضاف الى ذلك آراء انفرد بها وضح انه مؤسس المذهب البغدادي»[٢٩].

بهذه السذاجة ارادت الدارسة هدى محمود قراعة ان تخوض فيما خاض فيه الدكتور الانصاري والدكتور ضيف من افتعال لمذهب ثالث، وبهذه السذاجة ايضا فهمت ان جمع الآراء الى الآراء يؤلف مذهبا جديدا، وان اضافة آراء جديدة الى ما تلقّاه من آراء الفريقين يقوي فكرة المذهب الثالث.

لو كانت الدارسة الفاضلة عنت ما قالت حقا لبينت لنا الآراء الكوفية التي اختارها الزجاج وجمعها الى الآراء البصرية، لم تفعل شيئا من ذلك لانها لا تملك شيئا من ذلك، ولم تطلق الزعم اطلاقا الا تقليدا واتباعا.

---

(٢٩) ما ينصرف وما لا ينصرف ١٢.

كان للزجاج مكانة مرموقة في الدارسين، وقد تلمذ له اعلام الدرس في القرن الرابع مثل ابي بكر بن السراج، وابي القاسم الزجاجي، وابي علي الفارسي، وابي جعفر النحاس، وابي الحسن الرمّاني وابي بكر مبرمان وغيرهم.

وله مصنفات كثيرة في اللغة والنحو والصرف. وفيما له صلة بهذه الموضوعات.

وهو بصري المذهب، يقيس ويعلل ويفترض ويصطنع الفاظ المتكلمين وعباراتهم، وفي كتابه (ما ينصرف وما لا ينصرف) امثلة يفحّ منها منهجه العقلي في الدرس النحوي.

من ذلك قوله: «التنوين علامة لأمكن الاشياء عندهم، وقد يكون متمكن لا تنوين فيه، فيترك التنوين في المتمكن الذي هو ثقيل عندهم، وذلك كل ما لا ينصرف غير منوّن، ليفصل بين المستوفي التمكّن وبين الناقص التمكّن»[٣٠].

وقوله في تعليل امتناع الجر فيما لا ينصرف: «فاما الجر وهو الخفض فانما امتنع فيما لا ينصرف من قِبَل أنّ ما لا ينصرف فرع في الاسماء، كما ان الافعال فرع عن الاسماء، لأن الاسم قبل الفعل، فقد اشبه ما لا ينصرف الفعلَ فلا يكون في انحاء اعرابه ما لا يدخل الفعلَ»[٣١].

ومن ذلك تعليله انصراف ما زيد فيه الألف والنون في النكرة. فقد قال: «وانما انصرف في النكرة لانه اشبه (سكران) في الزيادتين، وانحط عن باب (سكران) لانه ليس مثله في الحركة والسكون، وانه ليس له مؤنث على حدته»[٣٢].

---

(٣٠) ما ينصرف وما لا ينصرف ـ ص١.

(٣١) ما ينصرف وما لا ينصرف ـ ص١، ٢.

(٣٢) ما ينصرف وما لا ينصرف ٣٦.

ومن ذلك اعتداده بالاجماع في تثبيت حكم نحوي، كقوله في تعليل عدم صرف ما كان على (افعل) صفة: «فاجماع النحويين انّ (افعل) ههنا لا ينصرف»[٣٣].

وقوله: «وقد اجمعوا ان جميع ما لا ينصرف يصرف في الشعر»[٣٤].

ومن ذلك تمسكه بالاوضاع البصرية كالاوضاع التي يرددونها في باب ما لا ينصرف، كالعدل، وشبه الفعل، وما لا ينصرف، وتعليله منع الصرف بوجود علتين فرعيتين الى غير ذلك.

٢ ـ وابو القاسم عبد الرحمن بن اسحاق الزجاجي (توفي سنة ٣٣٧ هـ) احد اعلام الدارسين، وصاحب التصانيف وصاحب كتاب (الجُمَل) الذي لم يحظَ كتاب في النحو بمثل شهرته بعد كتاب سيبويه، وبمثل ما اقبل عليه الدارسون قراءة وشرحا وتحليلا.

كان الزجاجي قد اخذ عن اعلام عصره وتلمذ لابي اسحاق الزجاج، ولزمه واستكثر عنه حتى نسب اليه، ولابي الحسن بن كيسان وابي بكر بن الخياط وابي بكر بن الأنباري، وعلي بن سليمان الاخفش وغيرهم.

وقد عُرِف الزجاجي في كل ما كتب ناهجا نهج استاذه ابي اسحق في النزوع الى مذهب البصريين، والاحتجاج له، والرد على من خالفه من اتباع مذهب الكسائي والفراء وثعلب، وفي تصانيفه شاعت التسمية بالكوفي والكوفيين عَلَماً لاتباع ثعلب ويبدو ان هذه التسمية ظهرت، اول ما ظهرت، في مجلس أبي اسحاق الزجاج ومصنفاته تمييزا له ولاتباعه من معاصريه تلاميذ ثعلب الذين لازموه وانتصروا لمذهبه، ولم يظهر لي أنّ أحداً من الدارسين قبل الزجاج كان يصطنع هذه التسمية.

وكان احتذاء الزجاجي استاذه في هذه التسمية واضحا حتى لا يجد

---

(٣٣) ما ينصرف وما لا ينصرف ص٦.

(٣٤) ما ينصرف وما لا ينصرف ص ٥٠.

الدارس عنده تسمية غيرها لاتباع مشايخ بغداد الاولين، وبالرغم من أنه كان قد تلمذ لتلاميذ ثعلب، واخذ عنهم، ووقف على مذهب البغداديين بهم، سواء من خلص منهم لمذهب ثعلب، مثل أبي بكر بن الانباري أم من تلمذ منهم لثعلب والمبرد، وجمع علم البصريين الى علم الكوفيين، مثل أبي بكر بن الخياط، وأبي بكر بن شقير وعلي بن سليمان الاخفش وغيرهم.

واذا أردنا ان نتخذ من محض التلمذة للشيخين والوقوف على علم الفريقين أساسا للقول بالمذهب الثالث كان الزجاجي احد اعلام هذا المذهب، لانه اخذ عن تلاميذ المبرد وتلاميذ ثعلب، ووقف على علم البصريين وعلم الكوفيين، غير ان هذه الفكرة بلغت من السذاجة حدا لا تجد معه في نفس الدارس الجاد قبولا.

وكان الدكتور مازن المبارك في كتابه (الزجاجي) حاول أن يطبق هذه الفكرة التي سبق اليها فلوجل وبروكلمان واحمد امين ومن تابعهم على مذهب الزجاجي في النحو، فذهب الى مثل ما ذهبوا اليه، وقال: «والزجاجي واحد من هؤلاء الذين تلقوا علم البصرة والكوفة، وبسطوا أقوال علماء المذهبين جميعا، منتخبين منها ما يرون أنه الحق، وكان بعد ذلك أميل الى البصريين في آرائه وأحكامه، وليس غريبا أن يكون الزجاجي بغدادي النزعة مع ميله الى الاخذ باقوال البصريين»[٣٥].

وقد استخلص الدكتور المبارك هذا من أقواله في كتابه (الايضاح في علل النحو)، وكان الزجاجي حقا لا يخفي أنه انتفع بأخذه من علماء الكوفيين الا ان الذين اخذ عنهم علم الكوفيين طائفتان:

طائفة كان اول اعتمادها على علم الكوفيين، ثم درسوا علم البصريين بعد ذلك، فجمعوا بين العلمين، وذكر منهم أبا الحسن بن كيسان وأبا بكر بن شقير وأبا بكر بن الخياط، وابا الحسن علي بن سليمان الاخفش.

---

(٣٥) الزجاجي ـ حياته وآثاره ومذهبه النحوي ١٠.

وطائفة كان اعتمادها على علم الكوفيين، لم يجمعوا بينه وبين علم البصريين، وذكر منهم أبا بكر بن الانباري وابا موسى الحامض وأبا الفضل الملقب بزبيل وأبا محمد عبد الملك بن مالك الضرير. ولم يبد من مقالته انه أفاد من هؤلاء كثيرا الا أبا موسى الحامض، فقد ذكر أنه اخذ عنه حكايات يسيرة.

ويبدو للدارس أن الدكتور المبارك تغافل عن مواقف الزجاجي من الكوفيين ومناظرته اياهم ورد مذهبهم بالمذهب الذي اتبعه وهو مذهب البصريين، وباسلوبه في الاحتجاج والجدل. واغفل ان يذكر لنا رأيا كوفيا اختاره اللهم الا بعض الاوضاع والمصطلحات الكوفية التي رأى الزجاجي يصطنعها في كتاب (الجُمَل)، ولا يعني اصطناع المصطلحات الكوفية أن يكون الزجاجي ممن خلط المذهبين، واختار من أقوال علماء المذهبين ما رأى أنه الحق، لان كثيرا من المصطلحات الكوفية كانت قد شاعت في بيئات الدرس، فلم يكن من السهل تجاهلها والاضراب عنها، فقد جرى بها قلم الزجاج وابن السراج، ولم يكن ذلك بمخرج اياهما عن دائرة المذهب البصري، بل لم يكن اخذ ابن السراج ببعض الاراء الكوفية، وحكايته عن الكوفيين بمخرج ابن السراج عن كونه أحد أتباع المذهب البصري، ولم أر احدا من القائلين بفكرة المذهب الثالث من جعل ابن السراج واحداً من أتباعه.

ولم يتغافل الدكتور المبارك عن ذلك حسب، ولكنه رأى الزجاجي نفسه يسلك نفسه في البصريين حين كان يعبر عنهم بعبارة (أصحابنا) فلم يعره شيئا من اهتمامه.

وأخشى ما أخشاه أن يكون الدكتور المبارك قد اوقع نفسه في تناقض لم يوقعه فيه الا تمحُّله في جعل الزجاجي بغدادي النزعة، فعدُّ الزّجاجيّ نفسه في البصريين، واصطناعه الجدل والاعتلال، وفتحه ابواب الجدل على نفسه لا يلتقي مع فكرة ان النزعة الكوفية تمثل الوجه الآخر لمذهبه النحوي.

وليس عدم اغلاظه القول للكوفيين اذا رد عليهم مُخرِجاً اياه عن الخط المذهبي الضيق الذي اختاره استاذه ابو اسحاق الزجاج، وتابعه الزجاجي فيه أعني متابعته المحضة للمذهب البصري، لان فتور التعصب على الكوفيين عند الزجاجي يرتبط بمزاجه لا بنزوعه منازع البغداديين، وكيف يكون الزجاجي بغدادي النزعة، وهو لا يفتأ يتحدث عن الكوفيين تحدث من لا صلة له بهم، ويرد عليهم آراءهم في كل مسألة يعرض لها في (الايضاح)، ويذكر البصريين على انهم أصحابه؟ ألم يكن النص الذي نقله الدكتور المبارك عن (مختصر الزاهر - الورقة ١): «وليست هذه المسألة مسطرة لاصحابنا في شيء من كتبهم البتة، وهي مسطرة في كتب الكوفيين»[٣٦]، كافيا في الدلالة على ان الرجل اتهم بالنزعة البغدادية اتهاما، ولم يشفع له عند من اتهمه انه جهر بالانتساب الى البصريين، والنزوع الى مذهبهم، وانه ألف كتابا في العلل هو كتاب (الايضاح).

وبعد ثماني سنوات من تأليف الدكتور المبارك كتابه (الزجاجي) يجيء الدكتور شوقي ضيف بكتابه (المدارس النحوية) ليردد ما قاله الدكتور المبارك، ويضفي عليه طابعا جديدا حتى لكأنه ابتداع لم يُسْبَق اليه.

ويتحدث الدكتور ضيف عن الزجاجي، كما تحدث عنه الدكتور المبارك الا بعض الاختلاف في أسلوب العرض، فالزجاجي عنده من البغداديين، ولكنه جعله آخر الجيل الاول منهم[٣٧].

ولم يستطع الدكتور ضيف ان يُوفِّق بين ذهابه الى بغدادية الزجاجي، ووصفه كتاب (الايضاح) بقوله: «ومن يقرأ الكتاب يرى الفلسفة والمنطق وعلم الكلام والفقه، او بعبارة ادق عللها جميعا تمس جوانب التعليل والاحتجاج فيه»[٣٨]، ولم يشفع للزجاجي عنده ذلك، ولا اصراره على أن

(٣٦) الزجاجي ١٤.
(٣٧) المدارس النحوية ٢٤٦.
(٣٨) المدارس النحوية ٢٥٣، ٢٥٣.

«يسلك نفسه في البصريين»[39]، ولا معالجته الحجة الكوفية التي تنقصها الدقة المنطقية الشائعة في حجج البصريين «حتى تسبك في الصورة البصرية»[40]... لم يشفع ذلك كله للزجاجي عنده ليسلكه في اعلام المدرسة البصرية.

ان من حق الدارس أن يتوقع من الدكتور ضيف أن يبسط فكرته، ويرسم خطوطها العريضة، ويبين كيف يكون الدارس بصريا اذا لم نأخذ بعين الاعتبار أسلوبه في الجدال والحجاج، ومنطقيته في تناول الموضوعات بالدرس، ولم نعتد بصريح انتسابه الى البصريين ومناهضته للكوفيين، وتعصبه عليهم!

واما الطائفة الثالثة فتتألف من الدارسين الذين كان اعتمادهم اولا على الكوفيين، ثم اخذوا عن البصريين، فجمعوا علم البصريين الى علم الكوفيين، وهم الذين كان ابن النديم وغيره يعدونهم في العلماء الذين خلطوا المذهبين.

واشهر اعلام هذه الطائفة: ابو الحسن بن كيسان، وابو بكر بن الخياط، وابو بكر بن شقير وابو الحسن علي بن سليمان الاخفش، الا انهم، في اكبر الظن، لا يمثلون اتجاها ثالثا مستقلا عن الاتجاهين الرئيسين، البصري والكوفي، ولم يحل جمعهم بين العلمين دون أن يسلكوا في احد الفريقين.

ويمكن للدارس أن يسلك بعضهم في الكوفيين وبعضهم في البصريين وبين يديه من أقوال الدارسين القدماء، وآراء الدارسين المحدثين ما يؤيّد ذلك.

ومن أجل أن يتضح الامر للدارس نتناول بالدرس ثلاثة من اعلام هذا الفريق، ونقف على آراء القدماء فيهم، وهم: ابو الحسن بن كيسان،

---

(٣٩) المدارس النحوية ٢٥٥.

(٤٠) المصدر نفسه.

وابو بكر بن شقير، وابو الحسن علي بن سليمان الاخفش.

اما ابو الحسن بن كيسان فهو محمد بن احمد (توفي سنة ٢٩٩) كان من اوائل من تلمذ لثعلب، ووقف على دقائق المذهب البغدادي، وبعد ورود المبرد بغداد، واقبال الدارسين على مجلس المبرد كان ابن كيسان من اولئك الذين اختلفوا الى مجلسه واستكثروا عنه، ولعل اسلوب الدرس عند المبرد، وفي المصنفات النحوية القديمة كان قد راقه، ووقع من نفسه موقعا حسنا، لان ابن كيسان، فيما يبدو، كان من اولئك الدارسين الذين شغفوا بالثقافات الجديدة التي اخذت منذ اوائل القرن الثالث تتلمس طريقها الى مجالس الدرس على اختلافها، ووجد في منطق المبرد واسلوب تناوله موضوعات الدرس ما يتفق مع منازعه الفكرية.

وبعد المبرد وثعلب كان ابن كيسان في مقدمة الذين حفظوا المذهبين وألمّوا بأسلوبهما في الدرس، ومعالجتهم موضوعاتهما، وكان مرجع طلاب العلم الذين كانوا يريدون الوقوف على مذهب البغداديين الأوائل، المذهب الذي أخذ ظلّه ينحسر عن مجالس الدرس بعد غلبة المذهب البصريّ، وكان الزجاجيّ يعدّه في مقدمة العلماء الذين كانوا قدوة اعلاما في علم الكوفيين[٤١]، الا ان حفظ المذهبين، والاخذ عن الشيخين لا يؤلف مذهبا نحويا جديدا، لان محض الوقوف على الآراء لا يعني التأثر بها ما لم يوافق ذلك هوى في نفس الدارس، وما لم يكن اسلوبه في معالجة موضوعات الدرس متأثرا بها مطبوعاً بطابعها.

والطابع العام للدرس عند ابن كيسان، فيما يبدو من اقواله وتوجيهاته هو الطابع البصري المتأثر بأساليب المتكلمين والمحكّم الاعتبارات العقلية في أصول الدرس النحوي ومسائله، فقد كان ابن كيسان يعالج الدرس النحوي بمثل ما كان البصريون يعالجونه به، وكان في تأليفه كتاب (المختار في علل النحو) الذي ذكره الزجاجي[٤٢]، يبدو كمن يريد ان

(٤١) الايضاح ٧٩.

(٤٢) الايضاح ٥٠.

يفلسف النحو البصري، ويُقوّم من مَيله عند النظارة والحِجاج، وكتاب المختار في علل النحو كان ابن كيسان صنفه في ثلاث مجلدات او اكثر [٤٣]، ويدل اسمه على انه ليس كتابا في النحو، ولكنه في بيان علل النحو.

كان كتاب «المختار في علل النحو» في اكبر الظن، المصدر الذي صدر عنه الزجاجي في تصنيفه كتاب (الايضاح في علل النحو)، وكان ملهم ابن جني في وضع كتابه (الخصائص)، وجاء ابو البركات الانباري (توفي سنة ٥٧٧ هـ) فتابع ابن جني والزجاجي وعمل كتابه (اسرار العربية) وكتابه (الاغراب في جدل الاعراب)، وكتابه (لمع الادلة) فظهر الدرس النحوي فيها هيكلا لا ينطوي على حياة، ولم يبق من الدرس النحوي فيها الا اسمه والا مصطلحات وعبارات ليس لها مدلول لغوي، ومع ذلك يجيء باحث في آخر الزمان فيبارك عمل الانباري، ويحاول ان يقيل من عثراته، ويسدد من خطواته فيقول: «نحن نعرف أن التطلع الى ان يكون للعربية علوم وقواعد وأصول على مثل ما للشريعة أمنية داعبت همم الكثير من العلماء منذ المئة الثانية للهجرة، فمحاكاة اهل الحديث في فن الرواية، والعناية بالسند معروفة، وكذلك تقليدهم مدرسة الرأي في الفقه في تعليل الاحكام حدتهم على ان يجدوا لاحكام العربية عللاً تشبه تلك من جهة، وتشبه من جهة ثانية علل المتكلمين الذين اعتمدوا العقل والمنطق سلاحين في دعوتهم الى فلسفة العقيدة، فكان للنحاة احتجاج بقواعد تشبه ما للمحدثين، وقياس وعلل يشبهان ما للفقهاء والمتكلمين» [٤٤].

وهو كلام لا يصدر مثله عن دارس واع لطبيعة الدرس النحوي، واذا كان للانباري عذر في تصنيفه هذه الكتب بجهله طبيعة الموضوع والمنهج

---

(٤٣) معجم الادباء ١٧/١٣٩.

(٤٤) انظر ما قدمه الافغاني لكتابي الانباري: الاغراب في جدل الاعراب ولمع الادلة، ص ١٩.

الذي يدرسه وفقه فما عذر دارس معاصر توافرت له مناهج الدرس الحديث، ورسمت له خطوط الدرس اللغوي والنحوي بوجه خاص!

وبتلمذة ابن كيسان الثعلب والمبرد، وجمعه علم البصريين الى علم الكوفيين عدّه ابن النديم فيمن خلط المذهبين، وقال عند ذكره اياه: «كان ابو الحسن فاضلا، خلط المذهبين، واخذ عن الفريقين» (٤٥).

وسلكه أبو سعيد السيرافي في النحويين البصريين، وفي أصحاب ابي العباس المبرد، وكان يرى ان الرئاسة في النحو البصري آلت اليه والى أبي اسحاق الزجاج بعد المبرد، فهو بصري المذهب وانْ كان يخلط المذهبين» (٤٦).

وذكره ياقوت وقال: «كان يخلط المذهبين، الكوفي والبصري في النحو، لانه أخذ عن المبرد وثعلب»، وعقب على ما زعمه ابو بكر بن مجاهد من ان ابن كيسان كان «أنحى من الشيخين، يعني المبرد وثعلبا»، فقال: «كان، كما قال، يعرف المذهبين الا أنه كان الى البصريين اميَل» (٤٧).

اما مؤلف «المدارس النحوية» فرأى من تلمذته للشيخين، وخلطه المذهبين تأييدا للفكرة التي دعا اليها، ولكي يجعل من ابن كيسان نموذجا للدارسين البغداديين اخذ يتقوّل على الذين ترجموا له، فزعم انهم يقولون: «انه مزج النحوين البصري والكوفي، فأخذ من كل واحد منهما ما غلب على ظنه صحته واطرد له قياسه، وترك التعصب لاحد الفريقين» (٤٨).

---

(٤٥) فهرست ابن النديم ١٢٠.
(٤٦) انظر: أخبار النحويين البصريين ١٠٨ بيروت.
(٤٧) معجم الادباء ١٧/١٣٧.
(٤٨) المدارس النحوية ٢٤٩.

غير ان المترجمين له لم يقولوا هذا، وكلّ ما قالوه انه خلط المذهبين، لانه أخذ عن الشيخين، اما انه كان يختار من الاراء من كل واحد منهما ما غلب على ظنه صحته، واطرد له قياسه، وترك التعصب لاحد الفريقين، فزيادة وتلفيق من عنده، طاويا الاشارة الى اختلاف القدماء فيه، لكي تستقيم له الفكرة، وتقوي له الحجة، ولو رجعنا الى اقوال القدماء فيه لرأينا انهم اختلفوا في تقويم نزعته مذاهب شتى:

فالزبيدي يرى أنّ «ميله الى مذهب البصريين اكثر»[49]، ولكنه جعله في الطبقة السادسة وهي طبقة اصحاب ثعلب[50].

والمرزباني لم يضعه في طبقة بعينها، ولم يترجم له، ولم يذكره الا في ترجمة المبرد[51].

وابن النديم يصفه في جماعة من العلماء خلطوا المذهبين[52].

والزجاجي يذكره في العلماء الكوفيين.

والسيرافي يسلكه في النحويين البصريين، ويجعله في طبقة اصحاب المبرد وانْ كان يخلط المذهبين.

وياقوت يرى انه كان يخلط المذهبين، ولكنه الى البصريين أميَل.

وقد اغفل الدكتور ضيف هذا كله وجعله على رأس البغداديين، وراح يعرض آراء له وافق فيها البصريين، وآراء اخرى وافق فيها الكوفيين ثم آراء اشتقها لنفسه[53]، ليخلص الى ان ابن كيسان كان المؤسس للمدرسة البغدادية. ولا اظن منهج البحث يقر الدارس اي دارس على ان يترخص

---

(٤٩) طبقات النحويين واللغويين ١٧١.
(٥٠) طبقات النحويين واللغويين ١٧٠.
(٥١) نور القبس ٣٢٧.
(٥٢) فهرست ابن النديم ١٢٠.
(٥٣) المدارس النحوية ٢٥١.

في تشويه النصوص وتقطيعها، واختيار ما يتلاءم من اجزائها مع الفكرة التي يدعو اليها.

الحق انّ الاقوال التي حكاها النحويون عن ابن كيسان تدل على انه ينزع الى البصريين ويعالج مسائل النحو بالطريقة التي كان البصريون يعالجونها بها.

فقد كان يتمسك بالعامل، وبتقديره اذا لم يكن مذكورا، وكان يرى ان الظرف في نحو قولهم: زيد امامك، ليس خبرا، لان الخبر في الحقيقة هو العامل المحذوف، وان تسمية الظرف نفسه خبرا مجاز »[٥٤]. ولا شك ان القول بان الخبر هو العامل المحذوف قول بصري. اما الكوفيون فيذهبون الى ان الظرف نفسه هو الخبر، فهم اذن لا يُقدّرون محذوفا.

وكان يتفلسف في كلامه على مسائل النحو، شأن البصريين الذين فتحوا الباب للفلسفة الكلاميّة لتؤثر في موضوعاتهم النحوية، فقد تناول واو العطف بالدرس تناولا فيه كثير من ظلال الفلسفة الكلامية، فقال: « هي للمعية حقيقة. واستعمالها في غيرها مجاز، قال: لانها لما احتملت الوجوه الثلاثة، ولم يكن فيها اكثر من جمع الأشياء كان اغلب احوالها ان تكون للجمع في كل حال حتى يكون في الكلام ما يدل على التفرق »[٥٥].

وكان يصطنع الحد الجامع المانع في تعريفات موضوعات النحو، وقد حدّ الاسم بانه « صوت موضوع دال باتفاق على معنى غير مقرون بزمان »[٥٦]، وقد كان للزجاج البصري مثل هذا الحد « فقد سئل الزجاج عن حد الاسم فقال: صوت مقطع مفهوم دال على معنى غير دال على زمان ولا مكان »[٥٧].

---

(٥٤) همع الهوامع ٢/٩٩.
(٥٥) همع الهوامع ٢/١٢٩.
(٥٦) الايضاح ٤٨.
(٥٧) الصاحبيّ ص ٥١.

والحدود التي جرى عليها البصريون لا تختلف عن الحدود التي جرى عليها المناطقة. قال الزجاجي: «وعندنا الحد: هو الدال على حقيقة الشيء»[٥٨]. وهل الحد الدال على حقيقة الشيء غير الحد الذي لا يكون الا جامعا مانعا، وهو الحد الذي يقوم على ذكر الجنس والفصل، وهو ما يقوم به مصطلح (الحد) عند المناطقة.

اما النحاة الكوفيون فلم يعرفوا الحدود بمعناها المنطقي، ولم تجر على ألسنتهم، ولكن حدودهم تساق للتقريب على الدارسين. ومن حدود الاسم عندهم.

الاسم: ما وصف.. وهو قول الكسائي[٥٩].

والاسم: ما احتمل التنوين او الاضافة إو الالف واللام. وهو قول الفراء[٦٠].

والاسم: ما دخل عليه حرف من حروف الخفض. وهو قول هشام.

اما ابن كيسان فكان بصريا في تعريفه الاسم، فقد عرفه بمثل ما عرفه به الزجاج، وهو بكلام المناطقة اشبه. وكان الزجاجي يقول: «ولابن كيسان في كتبه حدود للاسم غير هذا هي من جنس حدود النحويين، وحده في الكتاب المختار بمثل الحد الذي ذكرناه من كلام المنطقيين»[٦١].

اما الآراء التي تابع فيها الكوفيين فلا تعدو ان تكون من الآراء التي تنطلق من وجهة نظر خاصة، واتّباع دارس مذهبا معينا لا يعني اغلاق باب الاجتهاد دونه، ولا الحجر على ان يفكر تفكيرا مستقلا، ولم يكن اتباع المذهب مُلغياً المزايا العقلية الخاصة، ولا حاجرا على الحرية في

---

(٥٨) الإيضاح ص٤٦.
(٥٩) الصاحبي ٤٩.
(٦٠) الصاحبي ٥٠.
(٦١) الايضاح ٥٠.

التفكير، ولو كان الامر كذلك لخرج المبرد عن الدائرة البصرية باختلافه مع سيبويه رأس المذهب، ونقضه كثيرا من آرائه، ولخرج الفراء عن الدائرة الكوفية بمخالفته الكسائي رأس المذهب، ونقضه كثيرا من آرائه.

على ان بعض الآراء التي وافق فيها ابن كيسان الكوفيين كان الزجاج، وهو من اعلام المذهب البصري، قد وافقهم فيه ايضا. من ذلك ان الكوفيين كانوا يرون ان الضمير في (هو) و(هي) هو الهاء فقط، وقد وافقهم الزجاج وابن كيسان فذهبا الى مثل ما ذهبوا اليه، ولم يخرج هذا بالزجاج عن كونه من أشد الدارسين لزوما لمذهب البصريين، وانتصارا له.

اما عدم تعصبه على الكوفيين، وهو الذي اتخذ منه الدكتور ضيف قرينة على كونه بغدادي المذهب، فلا يعني الاخذ بمذهبهم، لان ذلك يتفق مع مزاجه الخاص، ويرتبط بتلمذته لثعلب، وصلته به وتعظيمه اياه، وقوة شخصيته التي لم تضعف امام اغراءات المبرد، كما ضعفت شخصية الزجاج حين ائتمر بأمره، واطّرح كتب الكوفيين.

وبعد، فإبن كيسان في نهجه وطريقة تفكيره وتناوله موضوعات النحو بالدرس لم يخرج عن حدود المذهب البصري، فقد كان معنيا بالعلل والأسباب غاليا في العامل وتقديره، والنحوي الذي يعنى بالعلل، ويصنف فيها كتابا كبيرا ابعد ما يكون عن أن يكون آخذا بمذهب الكوفيين.

واكبر الظن ان الدارسين الذين جعلوا ابن كيسان فيمن خلط المذهبين لم ينظروا الى خصائص طريقته، وانما نظروا الى انه كان ملما بآراء البصريين والكوفيين بتلمذته لثعلب والمبرد. ووقوف الدارس على آراء مدرسة بعينها لا يعني انه من رجالها ما لم يكن آخذا بأسلوبها في تناول الموضوعات بالدرس، ولا أرى ابن كيسان الا بصريا، لانه كان ينزع الى البصريين بعنايته بالعلل، ومزج كلامه بالمنطق، وتلك سمة من ابرز سمات مذهب البصريين في الدرس النحوي.

وأما أبو بكر بن شقير فهو احمد بن الحسن بن العباس[٦٢]، «توفي سنة ٣١٧ هـ»[٦٣]، روى عن ابي عصيدة احمد بن عبيد بن ناصح تصانيف الواقدي. وحدث عنه ابو بكر بن شاذان[٦٤]. له من المصنفات: كتاب مختصر في النحو، وكتاب في المقصور والممدود، وكتاب في المذكر والمؤنث[٦٥]، وكان من أئمة العربية[٦٦] واضطربت الاقوال في مذهبه النحوي.

فالسيرافي يعده فيمن خلط المذهبين، ويضعه هو وابا بكر بن الخياط في طبقة ابي بكر بن السراج وابي بكر مبرمان[٦٧]، ولعل السيرافي في ذكره اياه في النحويين البصريين يشير الى انه من اتباع المذهب البصري.

وابن النديم يعده فيمن خلط المذهبين، ولم يلحقه بالبصريين ولا بالكوفيين.

وابو بكر الزبيدي يضعه في طبقة اصحاب المبرد، وان سقطت ترجمته في النسخة المطبوعة، ولم يثبت الا اسمه[٦٨].

وأبو القاسم الزجاجي وهو معاصره وآخذ عنه يتحدّث عنه وعن ابن الخياط وابن كيسان، ويعدهم في الكوفيين، ويقول: «ومن علماء الكوفيين الذين اخذت عنهم: ابو الحسن بن كيسان، وابو بكر بن شقير، وابو بكر بن الخياط، لأن هؤلاء قدوة اعلام في علم الكوفيين، وكان أول اعتمادهم عليه، ثم درسوا علم البصريين بعد ذلك فجمعوا بين العلمين»[٦٩]، ثم خصه

---

(٦٢) وفي الايضاح (ص ٧٩): أحمد بن الحسين بن العباس. وما أثبتّه هو الصواب.

(٦٣) تاريخ بغداد ٤/٨٩.

(٦٤) المصدر نفسه.

(٦٥) نزهة الالباء ٣١٥.

(٦٦) الصدر نفسه.

(٦٧) أخبار النحويين البصريين ٦٠٩.

(٦٨) طبقات النحويين واللغويين ١٢٨.

(٦٩) الايضاح ٧٩.

بشيء لم يشرك صاحبيه فيه فقال: «كان شديد التعصب مع الكوفيين على البصريين» [٧٠].

وابو البركات الأنباري يعده في النحاة الكوفيين. قال: «كان عالما بالنحو، وكان على مذهب الكوفيين» [٧١].

ويعني خلطه المذهبين انه جمع بين العلمين علم الكوفيين وعلم البصريين، ولا تكاد كتب الطبقات تذكر من شيوخه غير ابي عصيدة احمد بن عبيد ابن ناصح. فقد روى عند تصانيف الواقدي [٧٢]، وابن ناصح هذا نحوي كوفي، وكان يحدث عن الأصمعي والواقدي، وعنه القاسم الانباري. وكان من أئمة العربية [٧٣].

وقد ذكرت كتب الطبقات أنَّ لابن شقير مصنفات سبقت الاشارة اليها الّا أنّ نُقول النحاة نادرة منها:

ما عرض له الزجاجي من احتجاج للكوفيين على أن اصل الاعراب للاسماء والافعال معا، فقد كان ابن شقير يحتج بمثل ما كان معاصروه من الكوفيين يحتجون. فيرى ويرون «ان الافعال مستحقة للاعراب في الاصل كما استحقت الاسماء» [٧٤]، وذلك «ان الافعال ايضا تختلف معانيها كما اختلفت معاني الاسماء فتكون ماضية ومستقبلة، وموجبة ومنفية، ومجازى بها، ومأمور بها، ومنهيا عنها، وتكون للمخاطب والمتكلم والغائب، والذكر والانثى» [٧٥].

قال الزجاجي: «وكان ابن شقير يعتل بمثل هذا الاعتلال، ويردده

(٧٠) الايضاح ٨١.
(٧١) نزهة الالباء ٣١٥.
(٧٢) تاريخ بغداد ٤/٨٩.
(٧٣) نزهة الالباء ٣١٥.
(٧٤) الايضاح ٨٠.
(٧٥) الايضاح ٨١.

كثيرا وكان شديد التعصب مع الكوفيين على البصريين مع اعتقاده مذهب البصريين »[٧٦].

ومنها: ذهابه الى أن (ليس) حرف، والقول بحرفيتها قول كوفي..

فقد كان الكسائي يقول: «اجريت (ليس) في النسق مجرى (لا)»[٧٧]. وقال: «(ليس) يكون جحدا، ويكون استثناء ينصب به.... وربما جاءت (ليس) بمعنى (لا) التي ينسق بها، كقول لبيد:

«انما يجزى الفتى ليس الجمل»[٧٨]

وقال الفراء: «اذا حسنت (ليس) موضع (لا) جاز، وانشد:

«انما يجزى الفتى ليس الجمل»

اي: انما يجزى الفتى لا الجمل[٧٩]. وانشد الفراء:

قد سوّأ الناس ياما ليس بـأس بـه   واصبح الدهر ذو العرنين قد جدعـا

«فجعل (ليس) تقوم مقام التبرئة»[٨٠]. اي: تقوم (لا) التي يسميها البصريون بالنافية للجنس، فهي اذن حرفٌ.

وقال ثعلب في مجلسه: «حكى ابن الاعرابي: قد جعل الناس ما ليس بأس به»[٨١]. وقال: «مررت بزيدٍ ليس عمروٍ»[٨٢] و(ليس) هنا نسق مثل (لا).

ونسب البغدادي في الخزانة القول بحرفيتها الى الكوفيين حاكيا ذلك عن

---

(٧٦) الايضاح ٨١.

(٧٧) الصاحبي ١٤١.

(٧٨) لسان العرب ٦/٢١١..

(٧٩) خزانة الادب ٤/٤٧٧.

(٨٠) مجالس ثعلب ٢/٣٥٤.

(٨١) مجالس ثعلب ١/١٣٢.

(٨٢) خزانة الادب ٤/٤٧٧.

ابي حيان، والى البغداديين، حاكيا ذلك عن ابن عصفور [٨٣]، وقد سبق أنْ قلنا: إنّ الرأي واحد. وإنّ البغداديين عند ابن عصفور هم الكوفيون عند ابي حيان.

غير ان ابن هشام والسيوطي الذي تابعه كانا قد وهما، فنسبا القَوْل بحرفيتها الى أبي بكر بن السراج.

قال ابن هشام: «وزعم ابن السراج انه حرف بمنزلة (ما)، وتابعه الفارسي في (الحلبيات) وابْن شقير وجماعة» [٨٤].

وقال السيوطي: «وذهب ابن السراج الى حرفية عسى وليس مستندا الى عدم تصرفها، ووافقه في الاولى ثعلب، وفي الثانية الفارسي وابن شقير» [٨٥].

وقد خلّط السيوطي في هذا، فجعل ثعلبا موافقا لابن السراج، ومنطق البحث يقتضيه ان يعكس الامر، وجعل القول بحرفية (ليس) منسوبا الى ابن السراج مع ان الكسائي والفراء وثعلبا كانوا قد سبقوه الى القول بحرفيتها، كما ان ابا حيان، فيما حكاه البغدادي، كان قد نسب الرأي الى الكوفيين.

ورأى الشيخ محمد محيي الدين ناشر ابن عقيل ما قاله ابن هشام فخيل اليه ان ابن السراج هو اول من قال بهذا، وجزم واهما بأن «اول من ذهب من النحاة الى أن (ليس) حرف هو ابن السراج، وتابعه على ذلك ابو علي الفارسي في «الحلبيات» وابو بكر بن شقير وجماعة» [٨٦]، واكبر الظن ان الشيخ لم يرجع الى غير ابن هشام، لان نص العبارتين واحد، فوهم بوهمه.

---

(٨٣) المرجع نفسه.

(٨٤) مغنى البيب ١/٣٢٧.

(٨٥) همع الهوامع ١/١٠.

(٨٦) شرح ابن عقيل ـ هامش ١/٢٢٧ ط ٧.

فابن شقير، وان كان يحفظ المذهبين كما زعم السيرافي وابن النديم وغيرهما ـ معدود من الكوفيين، لم يخرجه عن دائرته المذهبية في النحو كونه خلط المذهبين، وجمع علم البصريين الى علم الكوفيين، بل كان الزجاجي يراه احد علماء الكوفيين الذين هم قدوة اعلام في علم الكوفيين [٨٧]، وكان ابو البركات الانباري يرى أنه « كان عالما بالنحو، وكان على مذهب الكوفيين » [٨٨].

ولا اعلم انه اخذ عن بصري، لان كتب الطبقات لم تذكر احدا من الدارسين أخذ عنه ابن شقير غير ابي عصيدة، او ابن عصيدة احمد بن عبيد بن ناصح، وهو من أئمة العربية الكوفيين [٨٩]. واذا صح انه اخذ عن بصريين وكوفيين، وجمع علم البصريين الى علم الكوفيين فانه كوفي النزعة، وأحد علماء الكوفيين، والاراء التي اخذ بها وحكيت عنه آراء كوفية.

اما ما زعمه ابن هشام والسيوطي من بعده من متابعة ابن شقير لابن السراج في القول بحرفية (ليس) فوهم وتخليط كما بينّا، لان القول بحرفية (ليس) كان الكسائي والفراء وثعلب قد سبقوا اليه، ولم يكن ابن السراج هو صاحب القول، كما زعموا، بل كان متابعا للكوفيين، وآخذا بمقالتهم، وليست هذه هي المرة الاولى التي أخذ فيها ابن السراج برأي كوفي، فقد حكى كثيرا من آرائهم وتابعهم في كثير من اقوالهم.

ومع ذلك كان السيرافي يتغافل عن هذا، ولا يعدُّه فيمن خلط المذهبين، بل سلكه في البصريين الذين محض علمهم فلم تشبه شائبة كوفية، وكان ابن النديم يرى انه من البصريين ايضا، وان الرئاسة في النحو البصري آلت اليه بعد موت الزجاج، ويحكى عن ابن درستويه « انه

(٨٧) الايضاح ٧٩.
(٨٨) نزهة الالباء ٣١٥.
(٨٩) بغية الرعاة ١/٣٣٣.

ـيعني ابن السراج ـ كان من احدث غلمان المبرد سنا »[٩٠]. ولم اقف ـ فيما وقفت عليه من كتب الطبقات ـ على رأي مخالف لما رآه السيرافي وابن النديم.

ومع ذلك كله ايضا لم اجد من الدارسين المعاصرين القائلين بالمذهب الثالث من سلك ابن السراج في المدرسة البغدادية على حين انهم سلكوا فيها من كان اضعف صلة بعلم الكوفيين ومذهبهم منه كالزجاجي والفارسي وابن جني.

وأما أبو الحسن علي بن سليمان الاخفش (توفي سنة ٣١٥ هـ) فقد «سمع أبوي العباس ثعلباً والمبرد»[٩١]، واستكثر عنهما، ولكنه، فيما زعم المرزباني، لم يكن متسعاً في الرواية للاخبار والعلم[٩٢]، وكان المرزباني يتحدث عنه في (المقتبس) فيما ذكر ياقوت، فقال: «ما علمته صنف شيئاً البتة، ولا قال شعراً، وكان اذا سئل عن مسائل النحو ضجر، وانتهر كثيراً من يواصل مساءلته، ويتابعها»[٩٣].

وذكره ابن النديم فيمن خلط المذهبين الا أنه قال: «كان يضجر كثيراً اذا سئل عن شيء من النحو»[٩٤]، وذكر من مصنفاته كتاب الانواء، وكتاب التثنية والجمع، وكتاب الجراد.

وتكاد الروايات تتفق على أنه لم يكن شيئاً في النحو، وأنه كان يضجر حين يسأل عن مسألة منه، الّا أنّ ياقوتاً ذكر عن ابن النديم عن نسخة من الفهرست بخط مؤلفه أن لعلي بن سليمان الاخفش «من التصانيف: كتاب الانواء، وكتاب التثنية والجمع، وكتاب شرح سيبويه»[٩٥]. وكان هذا

---

(٩٠) فهرست ابن النديم ٩٢.
(٩١) تاريخ بغداد ١١/٤٣٣.
(٩٢) نور لقبس ٣٤١.
(٩٣) معجم الادباء ١٣/٢٤٧.
(٩٤) فهرست ابن النديم ١٢٣ الرحمانية بمصر، ٨٣ لايبزك.
(٩٥) معجم الادباء ١٣/٢٤٨.

الذي ذكره ياقوت هو مصدر الوهم الذي وقع فيه المحدثون.

فقد جاء في (دائرة المعارف الاسلامية)، في مادة (سيبويه) استعراض لشراح الكتاب، وكان علي بن سليمان الاخفش واحداً منهم.

وذهب بروكلمان في (تاريخ الادب العربي) الى هذا ايضاً، موهماً انه انما استند في ذلك الى ما ذكره البغدادي في خزانة الادب (٣٥١/٢ س ٦ من اسفل)[٩٦].

وعند الرجوع الى ما كتبه البغدادي في شرح الشاهد التاسع عشر بعد ثلاث المئة رأيناه يورد قول الشاعر:

فزججتها بمزجّةٍ زجّ الصعابَ أبي مزادة

وهو شاهد على الفصل بين المضاف والمضاف اليه بغير الظرف، والمضاف اليه بالاداة. وينقل عن السيرافي أن مثل هذا الشاهد ممّا لم يثبته «أحد من أهل الرواية. وهو من زيادات أبي الحسن الاخفش في حواشي كتاب سيبويه، فأدخله بعض النساخ في بعض النسخ، حتى شرحه الاعلم وابن خلف في جملة أبياته» يعني أبيات الكتاب. ثم ذكر البغدادي أن الاخفش المسمى هنا «هو أبو الحسن سعيد بن مسعدة صاحب سيبويه، لا الاخفش أبو الخطاب فانه شيخ سيبويه»[٩٧].

فالبغدادي لم ينسب مثل هذا الى علي بن سليمان الاخفش، ولم ينسب اليه شرحاً لكتاب سيبويه، كما وهم بروكلمان.

لقد عده ابن النديم فيمن خلط المذهبين، ولكن الاراء المنسوبة اليه تقفنا على حذر من تصديق أنه نحوي خلط المذهبين، فهو مع أنه اخذ عن ثعلب والمبرد، وحكى عنهما ليس بالنحوي الذي يقف بازاء نحاة الجيل، ولعل عده فيمن خلط المذهبين يقوم على أساسٍ من روايته عن البصريين

---

(٩٦) تاريخ الادب العربي ٢٣٩/١ الطبعة العربية.

(٩٧) خزانة الادب ٣٥١/٢ س ٧ من اسفل.

والكوفيين، وهو كذلك فيما يبدو من نقول الزجاجي عنه في أماليه، فقد حكى عنه في أكثر من خمسين موضعاً منها، وكان بعض هذه الروايات عن المبرد، وبعضها عن ثعلب، فخلطه المذهبين انما يعني انه لم يلتزم بالرواية عن البصريين وحدهم، ولا عن الكوفيين وحدهم، وكل ما اثبته الزجاجي له في أماليه من حكايات وروايات انما يتعلق برواية الشعر والاخبار، أما النحو فليس له، فيما حكاه الزجاجي عنه، نصيب منه، ولم اقف في هذه المواضع التي ذكر الزجاجي اسمه فيها رأياً نحوياً، أو مسألة من مسائل النحو.

أما كتب النحو فقد روت له اقوالاً في النحو، ولكنها قليلة، وقد يكون بعضها لغيره من الاخافش، فنسب اليه وهماً، كما وهم محقق كتاب (اعراب القرآن) المنسوب الى الزجاج، فقد ورد فيه اسم الاخفش أو كنيته في ثمانية وخمسين موضعاً، وزعم محقق الكتاب أن المقصود هو: أبو الحسن علي بن سليمان الاخفش أبو الحسن»[٩٨]. فإذا وصل في فهرسه الى حرف العين أثبت اسم (علي بن سليمان الاخفش أبو الحسن). وذكر بازائه ارقام الصفحات وعدتها ثمان وخمسون صفحة[٩٩]، وليس للاخفش عليّ بن سليمان قول واحد منها، وهي كلها من أقوال أبي الحسن سعيد بن مسعدة الاخفش، كما يتّضح ذلك عند مقابلة هذه الاقوال باقوال سعيد بن مسعدة المنقولة في كتب النحو.

أكبر الظن أنْ الذي أوهم محقق كتاب (اعراب القرآن). وأوهم غيره هو هذا التوافق بين الرجلين في الكنية واللقب، فكلاهما يكنى بأبي الحسن، وكلاهما يلقب بالاخفش.

ومهما يكن من أمر فعلي بن سليمان الاخفش لا يصلح أن يكون مثالاً

---

(٩٨) عراب القرآن ١٠٥٧.

(٩٩) اعراب القرآن ١٠٦٢.

لرجال الجيل الذي خلط المذهبين، لأنه اذا كان حاله في النحو على ما ذكر المرزباني وابن النديم فليس له مذهب يُعتدّ به. يضاف الى هذا ان الاقوال القليلة التي ترويها كتب النحو لا تقدم صورة واضحة لمذهبه في النحو.

الدرس النحوي في القرن الرابع

اذا كان الدرس البصري قد بسط نفوذه على بيئات الدرس في بغداد في القرن الرابع فليس يعني هذا أن أمر الكوفيين قد انتهى، وآل الدرس الكوفي إلى زوال. فقد بقي هذا الدرس حياً بأعمال دارسين اعلام كان لهم الاثر الكبير في بقاء هذا الدرس، ومنهم لغويون مثل ابن خالويه وابن فارس، ومنهم أدباء وشعراء مثل أبي الطيب.

ابن خالويه:

أما ابن خالويه فهو أبو عبدالله الحسين بن أحمد (توفي سنة ٣٧٠ هـ) كان نحوياً على طريقة الكوفيين.

لان اعتماده في النحو واللغة على تلاميذ ثعلب، فقد أخذ عن أبي بكر ابن الانباري، وأبي عمر الزاهد، وأبي عبدالله ابراهيم بن عرفة المعروف بنفطويه.

ولانه كان كثير الرواية عن ثعلب وابن الاعرابي والفراء والكسائي.

ولأنه كان يصطنع الاوضاع الخاصة بالكوفيين، كالنسق مكان العطف، وحروف الصفة مكان حروف الجر، فقد قال في اعراب قوله تعالى: ﴿تواصلوا بالصبر﴾: «تواصلوا: نسق على الاول. بالصبر جرٌّ بباء الصفة»[1].

(١) اعراب ثلاثين سورة ١٧٧.

والجحد مكان النفي. قال في اعـراب قـولـه تعـالى: ﴿مـا أغنـى﴾: مـا: جحد »[٢].

ويبدو أن الدارسين الذين عاصروه كانوا قد عرفوا أنه ينزع الى الكوفيين، فقد حكى أبو البركات الانباري: «أنه اجتمع هو وأبو علي الفارسي، فجرى بينهما كلام، فقال لأبي علي: نتكلم في كتاب سيبويه، فقال أبو علي: بل نتكلم في الفصيح »[٣].

وفي هذا ايماء الى أن اللغة تغلب عليه، والى أنه كوفي النزعة، لأن أبـا عليّ لم يحله على كتاب بصري في اللغة، ولكنـه أحـالـه على فصيـح ثعلـب، وكأن أبا علي فهم ان ابن خالويه كان يتحداه في فهم كتاب سيبويه فتحداه أبو علي في فهم فصيح ثعلب.

ابن فارس:

واما ابن فارس فهو أبو الحَسين أحمد بن فارس (توفي سنة ٣٩٥ هـ)، كان نحوياً على طريقة الكوفيين[٤]، وقد أخذ عن أبي بكر أحمد بن الحسين الخطيب راوية ثعلب[٥]. وله مصنفات في اللغة كثيرة اشهرها: كتاب المجمل، وكتاب المقاييس، وكتاب متخير الالفاظ، وكتاب (الصاحبي) في فقه اللغة. وفي هذا الكتاب أكثر من قرينة تدل على أنه كوفي المذهب. فقد جوّز أن تضمر (أنْ) في قوله:

ألا أيهذا الزاجري أحضُرَ الوغى[٦].

وهو مذهب كوفي...

---

(٢) اعراب ثلاثين سورة ٢٢٢.
(٣) نزهة الالباء ٣٨٥.
(٤) انباه الرواة ١/٩٤.
(٥) نزهة الالباء ٣٩٢.
(٦) الصاحبي ١٠٤.

وجعل لادوات الاضافة أكثر من معنى على أساس نيابة الحروف بعضها عن بعض، وهو مذهب كوفي، لأن مذهب البصريين ألّا يكون للاداة من معنى واحد، وما أوهم فمحمول عندهم على تضمين الفعل معنى فعل آخر يتعدى بتلك الاداة.

واصطنع أوضاع الكوفيين كثيراً، وكان يعبر عن العطف بالنسق، وعن (الفعل المضارع) بالفعل المستقبل. قال: «لا: حرف نسق ينفي الفعل المستقبل»[7].

وذهب الى أن (ليس) حرف فقال: «ليْس نفي لفعل مستقبل. تقول: ليس يقوم»[8]. والقول بانها حرف قول الكسائي والفراء وثعلب وقد مر بيانه.

وخير ما نستند اليه في عده في الكوفيين هو طريقته القائمة على الاحتجاج بالنصوص والشواهد من فصيح كلام العرب في تناوله مسائل النحو بالدرس حيث لا يلجأ الى قياس ولا الى تعليل، فقد قال في باب (اضمار الحروف): «ويضمرون الحروف فيقول قائلهم:

ألا أيُّهذا الزاجري أشهَدَ الوغى

يعنى: أنْ أشهدَ، ويقولون: «والله لكان كذا» يعني: لقد. ويقول النابغة:

لكلَّفْتَني ذنب امرىء

وفي كتاب الله جل ثناؤه: ﴿ألم. غلبت الرُّوم﴾ قالوا معناها: لقد غلبت، ألا ترى أنه لما أضمر (قد) أضمر اللام. وفي كتاب الله جلّ ثناؤه: ﴿سنعيدها سيرتَها الاولى﴾ فقالوا: الى سيرتها. و﴿اختار موسى قومه﴾ اي: من قومه[9] وهي سمة كوفية لا تحتاج الى مزيد من البيان.

---

(٧) الصاحبي ٣٦.

(٨) الصاحبي ١٤٠.

(٩) الصاحبي ١٩٧.

أبو الطيب المتنبي:

وأما أبو الطيب فأمره معروف، وعبارته في شعره تقوم على أساس من النحو الكوفي، وكان هذا مبعث كثير من المآخذ التي أخذت عليه، ويمكن ان يعد أبو الطيب في كبار اللغويين والنحاة، وقد أخذ عن بصريين وكوفيين، أخذ عن أصحاب المبرد فقرأ على أبي اسحاق الزجاج، وأبي بكر بن السراج، ثم لقي اصحاب ثعلب فقرأ على أبي موسى الحامض، وأبي عمر الزاهد(١٠). وأكثر النظر في الدرس الكوفي فحفظ كتاب الحدود(١١).

وظهرت نزعته الكوفية في أمثلة كثيرة من شعره، فقد ذكر ابن يعيش حين عرض لحذف حرف النداء من اسم الاشارة انه «اجاز قوم من الكوفيين: هذا أَقْبِلْ، على ارادة النداء، وتعلقوا بقوله تعالى: ﴿ثم انتم هؤلاء تقتلون انفسكم﴾ قالوا: والمراد: يا هؤلاء، وقد عمل به المتنبي بقوله:

«هذه برزتِ لنا فهجْتِ رَسيساً»

وكان يميل كثيراً الى مذهب الكوفيين(١٢).

وقال:

حملت اليه من لساني حديقة ... سقاها الحِجا سقيَ الرياضَ السحائبِ

ففصل بين المصدر المضاف (سقي) وفاعله المضاف اليه (السحائب) بالمفعول وهو (الرياض) وهو مما اجازه الكوفيون(١٣).

---

(١٠) مقدمة البستاني لشرح الديوان.

(١١) مدرسة الكوفة ٩١ ط ٢ عن كتاب الاستدراك في الاخذ على المأخذ الكِندية مخطوطة بدار الكتب، رقمها: ٧٩٣ شِعر...

(١٢) شرح المفصل ١٦/٢.

(١٣) الانصاف ـ المسألة الـ ٦٠.

وقال:

يباعدْنَ حبًّا يجتمعْنَ ووصلُهُ فكيف بحِبٍّ يجتمعْنَ وصدُّه

فعطف (وصله) على الضمير في (يجتمعن) بدون فصل، وهو مذهب كوفي ايضاً [14].

وجاء في شرح ديوانه المسمى بالتبيان، في اعراب قوله:

وقبلَ يرى من جوده ما رأيته ويسمعَ فيه ما سمعت من العذل

«اراد: قبلَ أنْ يرى، فحذفها واعملها على رواية من روى (ويسمعَ) بالنصب، وهو مذهبه، لأنه كوفي» [15].

فبالرغم من تغلب المذهب البصري، وبسط نفوذه على مجالس الدرس في بغداد ما يزال المذهب البغدادي الكوفي حياً بأعلامه، وتراثه، ولا يعني انتصار المذهب البصري زوال آثار منافسه وامّحاء سماته، فليس الانتصار في المعركة المذهبية كالانتصار في المعارك المادية التي تنتهي ببقاء الغالب، وفناء المغلوب، فاذا لقي الدرس البصري من طلبة العلم اقبالاً، ومن السلطان دعماً وتأييداً، فلم يخرج من هذه المعركة وهو الغالب، بدون ان يتأثر بالمغلوب، أو بدون أن يترك المغلوب فيه آثاره.

وكان هذا هو ما حصل فعلاً، فقد ترك الدرس الكوفي من خصائصه المذهبية في الدرس البصري آثاراً عميقة لم يستطع المتعصبون للبصرية ان يمحوها، كما لم يسلم الدرس الكوفي من التأثر بالدرس البصري.

لذلك نجد كثيراً من اعلام الدرس الكوفي يرددون بعض المصطلحات البصرية، ويصطنعون أوضاعاً ليست من أوضاعهم، ويرددون عبارات ليست من عباراتهم.

ولم يكن ذلك ليعني بحال انهم كانوا يخلطون المذهبين، أو يختارون من

---

(١٤) شرح الاشموني ٣/٣١٩.

(١٥) التبيان ٢/٤٨.

مزاياهم ويوحدونها في مذهب منتخب ما دام الطابع العام لاسلوب هذا الدارس بصرياً، والطابع العام لاسلوب ذاك الدارس كوفياً.

ولذلك لم يُسلَك أحمد بن فارس في البصريين وان جرى على قلمه بعض أوضاع البصريين وعباراتهم، ولا عُدَّ ابن السراج في الكوفيين، وان حكى عن كوفيين، وجرى قلمه ببعض عباراتهم ومصطلحاتهم.

الحق ان الدرس النحوي بمذهبيه الرئيسين أخذ، في خلل القرن الرابع يضعف شيئاً فشيئاً، فقد غاضت منابعه، وجفت موارده، ولم يبق منها الا بقية لا غناء فيها. ووَشَل لا ريّ فيه، ذاك ان الحياة قد تغيرت، وطُرُز العيش قد تفاوتت، واستبدل الناس حياة المدن بحياة البادية، والاستقرار بالتَّجوال، والعلاقات الاجتماعية الواسعة بالعلاقات القبلية الضيقة، وبتغير الحياة في الفكر والحضارة والاجتماع تغيرت مقاييس الفصاحة، واختلفت الاسس التي يقام عليها الدرس، ولو فطن الدارسون لهذه الحقيقة لتغيرت مقاييس الفصاحة ومعايير الإصابة في الاعراب.

ولكنّ الدارسين كانوا ينظرون الى اللغة انها قديمة وثابتة، والى القواعد انها خالدة، ولو كان لديهم فكر لغويّ، أو نهجوا في دراسة الظواهر نهجاً لغوياً لكان للدرس النحوي شأن آخر، ولكنهم رأوا أبا عمرو بن العلاء يتحرج في الرواية عن معاصريه فكان ذلك اصلاً من اصول الدراسة عندهم، وتشدد المحافظون في الرواية عن العرب فاحتذوهم وسلكوا سبيلهم.

لو كان الدارسون ينظرون الى اللغة انها متغيرة ابداً، وان التغير عامل وجودها، وقوام حياتها لمشوا مع الزمن في تقدمه، واللغة في تطورها، ولاتخذوا من لغة الاديب، ولغة الشعر والكتابة عند المجيدين من الشعراء والكتّاب مصادر لدراستهم تبعث في الدرس النحوي حياة جديدة، ولكنهم غبروا يتابعون ويقلدون في غير وعي فآل الدرس الى جدب وجمود.

واذا كان للدرس النحوي واللغوي في القرن الرابع بعض مظاهر الحياة فلأن بعض مصادر الدرس ما يزال لها وشل وان لم يكن فيه ري، وبقية وان لم يكن فيها غناء، ولذلك كان للدرس اللغوي عند الأزهري وابن جنيّ ومن احتذاهما قبس من حياة ورونق من خصب.

أما الازهري (أبو منصور محمد بن أحمد توفي سنة ٣٧٠ للهجرة) فقد كان افاد من جهود من سبقه من علماء اللغة ورواتها، وكان له مشافهة لبعض الفصحاء من الاعراب الذين لم تسلم لغتهم من اللحن، ولم تنجُ السنتهم من الانحراف، وكان الذي اتاح له ذلك وقوعه في الأسر «سنة عارضت القرامطة الحاج بالهبير»[١٦] وبقاؤه اسيراً عند عرب «عامتهم من هوازن، واختلط بهم اصرام من تميم واسد بالهبير، نشئوا في البادية يتتبعون مساقط الغيث ايام النُّجَع، ويرجعون الى اعداد المياه، ويرعون النعم، يعيشون بألبانها، ويتكلمون بطباعها البدوية، وقرائحهم التي اعتادوها، ولا يكاد يقع في منطقهم لحن، أو خطأ فاحش». وقد تلقف الأزهري عنهم الفاظاً جمة، ونوادر كثيرة، وصفها في مواضعها من كتابه «تهذيب اللغة»، كما كان يقول[١٧].

وأما أبو الفتح (عثمان بن جنيّ توفي سنة ٣٩٣ للهجرة) فقد كان صاحَبَ ابا علي الفارسي وأخذ عنه، كما أخذ عن كثير من رواة اللغة والادب، مثل أبي بكر محمد بن الحسن المعروف بابن مِقْسَم، راوية ثعلب. وكان يسمع الاعراب الذين لم تفسد لغتهم كآل المهيّا[١٨]، وبنيّ عقيل، وكان من العقيليين الذين كان يثق بفصاحتهم أبو عبدالله محمد بن العساف العُقَيليّ التميمي المعروف بالشجري، وقد ذكره في أكثر من موضع من كتابه (الخصائص) وكان يعتمداه فيما ينشد وفيما يقول.

---

(١٦) الهبير: رمل زرود في طريق مكة.

(١٧) تهذيب اللغة ـ المقدمة ص ٧.

(١٨) الخصائص ١/٧٨.

ومما حكاه عنه: فتح حرف الحلق. قال: «سمعت الشَجري أبا عبدالله غير دفعة يفتح الحرف الحلقي نحو (يَعَدو) و(هو مَحَموم) ولم اسمعها من غيره من عقيل»[19].

وربما كان يموه عليه احياناً للتثبت من فصاحته، وسأله مرة ومعه ابن عم له اسمه غصن، قال: قلت لهما: «كيف تحقّران (حمراء)؟ فقالا: حميراء، فقلت: فسوداء؟ قالا: سويداء، وواليت من ذاك احرفاً، وهما يجيئان بالصواب، ثم دسست في ذلك (علباء)، فقال غصن: (عليباء) وتبعه الشجري، فلمّا همّ بفتح الباء تراجع كالمذعور ثم قال: آه! عليبي، ورام الضمة في الباء فكانت تلك عادة له»[20].

هذا ما كانت عليه حال الدرس في بغداد طوال القرن الرابع للهجرة، ثم جاء في القرون المتعاقبة دارسون لم يُلفوا من مصادر الدرس غير ما كان مكتوباً، ولم يجدوا منها حتى ذلك الوشل الذي كان يقيت الدرس في اواخر القرن الرابع، فآل أمر الدرس النحوي عندهم الى أن يكون تكراراً واجتراراً وغُلِّقَتِ الابواب دون الابداع والابتكار. وتضاءل النتاج الأصيل، ولم يجد الدارسون ما يقدمون غير تلخيصات وشروح وهوامش وتعليقات. وصار الدرس النحوي عندهم تجميعاً وتلفيقاً، وصار التعمق في المصنفات يعني التعمق في القياس والتعليل والتأويل. وجمد كل شيء، وصار الدرس النحوي قوالب محفوظة، وعبارات متناقلة، وكانت الامثلة تصنع على غرار امثلة المتقدمين. وأبيات الشواهد هي الأبيات التي استشهد بها الاوائل.

فمن التمحّل ان ينسب هذا الدارس الى مدرسة بعينها، وذاك الدارس الى مدرسة أخرى بعينها، ومن التقعر ان ينسِب أبو البركاتِ الانباري نفسَه الى البصريين، أو يسلك ابن الحاجب نفسه فيهم، أو يُعدّ ابن مالك

---

(١٩) الخصائص ٢/٩.

(٢٠) الخصائص ٢/٢٦.

في البغداديين أو فيمن خلطوا المذهبين، لانّ نحو هؤلاء ومن على شاكلتهم انما يمثل الشكل النحوي الذي لا ينطوي على مضمون.

وبلغ الدرس النحوي من الجذب عند هؤلاء أنْ كانوا يضعون فيه كتباً مختصرة مشتقة من كتب الاقدمين، ويسمونها مقدّمات أو متوناً، ثم يشرحونها، ويوسعونها بالتعليلات والتأويلات والردود والمناقشات، وبسط الوجوه المحتملة للمسألة الواحدة، ووضع الحدود المنطقية الجامعة المانعة، وتحليلها، وقد يعمد بعضهم الى نظم أحد كتبه، ثم يشرح المنظومة فلا يضيف الى الاصل جديداً الا تكراراً ثقيلًا، واجترارا لا نفع فيه.

كما فعل ابن الحاجب حين الف مقدمة صغيرة سماها بالكافية، ثم شرحها، ثم نظم الكافية وسمى منظومته بالوافية، ثم شرح الوافية، وكان ابن الحاجب في تصنيفه وشرحه ونظمه وشرح نظمه يدور في حلقة مفرغة، حتى لكان الدرس النحوي لعبة، والتصنيف فيه أُخْذَةٌ أو شعوذة.

وكما فعل ابن مالك فقد نظم النحو والصرف على مزدوج الرجز بما يقرب من ثلاثة آلاف بيت، وسمى هذه المنظومة بالكافية الشافية، ثم شرح هذه المنظومة، وسمى الشرح بالوافية، متابعاً ابن الحاجب حتى في التسمية، ثم اختصر هذه المنظومة الى ألف بيت، وسماها بالخلاصة، وهي المعروفة بالألفية.

ويبدو ان نظم العلوم، ووضع المقومات والمتون كان طابع الدرس في العصور المتأخرة، وكان واضعوها يزعمون انهم بهذا كانوا يتوخون التيسير للحفظ، وقد احسنوا اذ لم يزعموا انهم يتوخون التيسير للفهم.

كان هذا حال الدرس النحوي في المشرق في عصوره المتأخرة يوم تولاه فقهاء أو اصوليون أو مفسرون أو محدثون، أو قراء لم تكن لهم سابقة فيه، ولم يملكوا حساً لغوياً، ولا فكراً نحوياً. ولا يعرف الدارس كيف صاروا نحاة، ولا عمّن اخذوا النحو، ويبدو أن مصادرهم في النحو

هي الكتب، فقد وقفوا على ما تيسر لهم الوقوف عليه منها، وتوفروا على قراءتها ثم أخذوا يصنفون المقدمات والمتون منها تجميعاً وتلفيقاً. ذلك أنّا نستعرض شيوخ ابن الحاجب فلا نجد فيهم نحوياً، ونستعرض شيوخ ابن مالك فنقف على مزاعم وأقوال ينقض بعضها بعضاً، غير ان أبا حيان يقطع هذه الاقوال فيقول: «بحثت عن شيوخه ـ يعني ابن مالك ـ فلم أجد له شيخاً مشهوراً يعتمد عليه، ويرجع في حل المشكلات اليه الا أن بعض تلامذته ذكر أنه قال: قرأت على ثابت بن حيان بجيان، وجلست في حلقة أبي علي الشلوبين نحواً من ثلاثة عشر يوماً، ولم يكن ثابت بن حيان من الأئمة النحويين، وانما كان من أئمة المقرئين»[21].

أما حال الدرس في المغرب والاندلس فتختلف قليلاً، ويردّ الاختلاف الى طبيعة البيئة الثقافية التي نشئوا فيها، فالدارسون في المشرق انما نشئوا في بيئة ورثت القياس في الفقه، وفلسفت أصوله، وورثت فلسفة المتكلمين، ووقفت على فلسفات الامم الاخرى، فطبع الدرس فيه بطابع فلسفي واضح، وحفلت المصنفات بالجدل المنطقي والتعليل الفلسفي، وخضع النحو في المشرق لِما خضع له الفقه واصول الفقه من منطق وفلسفة. اما الدارسون في المغرب والاندلس في عصورها المتأخرة فقد نشئوا في بيئات ثقافية سَلَفية تُعنى بالنقل أكثر مما تُعنى باحكام العقل، ولذلك ترى كتب أبي حيان والذين عاصروه أو احتذوه تعتمد في سعتها وكثرة مجلداتها على النقول من المصنفات المختلفة سواء أكانت بصرية أم كوفية، وهي اذ نقلت ما نقلت، ولفقت ما لفقت، لم تهدف الى الاختيار والانتخاب، ولا انطلقت في نقلها وتلفيقها من أسس مذهبية معينة، ولكنها كانت ترمي الى الجمع، وترمز به الى الاحاطة بعلم الاولين، وجاء المُحْدَثون فجاز عليهم هذا فراحوا يصنفونهم في مدارس بغير حساب.

---

(٢١) بغية الرعاة ١/ ١٣٠، ١٣١.

الدرس النحوي في الآفاق

لا شك أن الامصار العراقية الثلاثة، الكوفة والبصرة وبغداد كانت مصدر الدرس اللغوي والنحوي في تاريخ العربية، وكانت البصرة والكوفة مركزين مهمين من مراكز الثقافة، والفكر العربي الاسلامي، وكانت البصرة هي الرائدة في الدرس اللغوي، فقد سبقت اليه، مستعينة به على خدمة الاغراض القرآنية أول الأمر، ثم ما لبث ان استقل حتى صار علماً على حِدَة يدرس لذاته، وكانت الكوفة سباقة الى القراءة والحديث والفقه ورواية الاشعار واخبار العرب.

ثم مُصِّرت بغداد فكان هذان المصران يرفدانها بنتاجهما، وبأعلام الدرس فيهما، وقد استوعبت بغداد كل ما كان لديهما من طاقات، واستأثرت بخير من كان فيهما من دارسين.

وشرّقت شهرة هذه الامصار وغرّبت، وكانت تستقبل كثيراً من الدارسين الوافدين عليها من الافاق البعيدة، وكان الاندلسيون، بوجه خاص، يتجهون بأبصارهم الى المشرق، ويَشْرَئبّون الى العائدين منهم يحملون معهم علم المشارقة واخبارهم ومصنفاتهم.

وكان القادمون من الافاق يأخذون عن اعلام هذه الامصار، فإذا بلغوا من طلاب العلم ما كانوا شدوا الرحال من اجله عادوا الى ديارهم

لينشروا ما كانوا تلقوه في اقطارهم، وليتصدروا مجالس الدرس فيها يقرئون ويملون.

ومنذ عهد مبكر كانت مجالس الدرس في الافاق تعقد لتدريس القراءة والفقه والحديث ومبادئ العربية، وكان الدارسون الذين يطمحون الى المزيد يرحلون الى تلك الامصار للقيّ العلماء فيها، والاخذ عنهم، وحمل كتبهم.

ويمكن للدارس أن يتبين في تلك الافاق صورة ما عرفه من أصول مذهبية في البصرة وبغداد، وصدى ما وقف عليه من منافسة بين الدرس النحوي في البصرة، والدرس النحوي في بغداد، وذلك بتتبع رحلات الدارسين الى البصرة وبغداد من الاندلس والمغرب ومصر، فمن رحل منهم الى البصرة، ولقي علماءها حمل معه علم البصرة وطريقة الدارسين فيها، ومن رحل منهم الى بغداد حمل معه علم بغداد في اللغة والنحو وطريقة الدارسين فيها.

وفي مقدمة الاقطار التي عنيت بالدرس اللغوي والنحوي في العالم الاسلامي الرحب: مصر والاندلس.

١ - الدرس النحوي في مصر:

كان الدارسون الاوائل في مصر كغيرهم من الدارسين في الاقطار العربية الاسلامية، كانوا يولون وجوههم قبل المشرق، قبل مكة والمدينة لاداء فريضة الحج، وقبل أمصار العراق التي طبقت شهرتها الآفاق، كالبصرة بلد الخليل بن أحمد، وبغداد قاعدة الخلافة وموطن الكسائي والفراء.

وكانت مجالس الدرس الاولى في مصر هي المساجد العامة الجامعة، وبها كان الدارسون يقرأون القرآن ويقرئونه، ولم يكن لعلم العربية شأن في مصر قبل الوليد بن محمد المصادري التميمي المعروف بولاد، فقد كان ولاد من أوائل الدارسين في مصر، وبه عرفت مصر الدرس «ولم يكن

بمصر كبير شيء من كتب النحو واللغة قبله »[1] .

وأصل ولاد بصري، ولكنه نشأ بمصر، وسمع بالخليل بن أحمد فرحل الى البصرة، ولقي الخليل، وأخذ عنه، ولازمه، ثم عاد الى مصر بعلم الخليل ومملياته والحكاية عنه.

وكان ولّاد قد استرعى انتباه الدارسين في مصر بما أذاعه من علم الخليل، وبما أخبر به عن البصرة، فحفزهم الى الرحلة الى البصرة ولُقيّ العلماء فيها، فاذا رجعوا الى مصر حملوا معهم ما انتسخوا من كتب، وما دونوا من مجالس.

والدارس الذي كان له تأثير واضح في مصر هو ابو علي احمد بن جعفر الدينوري (توفي سنة ٢٨٩ هـ) فقد تصدر مجالس الدرس في مصر وقرأ الدارسون عليه كتاب سيبويه.

وكان أبو علي الدينوري قدم البصرة، ولقي أبا عثمان المازني، وحمل عنه كتاب سيبويه، ثم ذهب الى بغداد ومعه نسخة من الكتاب، واتصل بأبي العباس ثعلب، وأصهر اليه، واكبر الظن أنه اخذ عنه، واختلف الى مجلسه، فلما ورد المبرد بغداد مضى اليه ابو علي، واخذ يقرأ الكتاب عليه، وكان يخرج من منزل أبي العباس ثعلب ويتخطى مجلسه، ويمضي الى مجلس المبرد، وكان ثعلب يعاتبه، ولكنه لم يكن يلتفت الى قوله[2] .

ثم رحل الى مصر، وأقام فيها، وجلس هناك للتدريس، وألف كتابا سماه المهذب، وكان اعتماده في النحو على البصريين، وكان ممن أخذ عنه ابو الحسن بن ولاد[3] . وكان ابو الحسن معاصرا أبا علي الدينوري، وقد اختلف الى مجلسه يقرأ عليه النحو، ثم رحل الى بغداد، فلقي ثعلبا والمبرد،

---

(١) طبقات اللغويين والنحويين ٢٣٣ .
(٢) طبقات النحويين واللغويين ٢٣٤ .
(٣) طبقات النحويين واللغويين ٢٣٤ .

ولكنه انقطع عن ثعلب، ولزم المبرد ليقرأ عليه كتاب سيبويه، وينسخه على نسخة المبرد، ثم رجع الى مصر، وبقي فيها الى ان توفي سنة ٢٩٨، وانتقلت نسخة الكتاب الى ابنه ابي القاسم بن ولاد، فقرأها عليه أبو بكر الزبيدي [٤].

وبرز في الدرس النحوي من أولاد ابن ولاد أبو العباس بن ولاد (توفي سنة ٣٣٢ هـ) وجعله الزبيدي في الطبقة الثالثة، كان قد رحل الى بغداد كما رحل اليها أبوه من قبل، وهناك لقي ابا اسحق الزجاج وغيره، واخذ عنهم. وعلى أبي اسحاق قرأ الكتاب، واتقنه [٥]، وكان شديد الاعجاب بسيبويه، ولذلك انتصر له على المبرد في نقضه بكتابه (الانتصار لسيبويه من المبرد) [٦].

وكان أبو اسحاق الزجاج يعجب بأبي العباس لذكائه وقدرته على الاستنباط وربما فضله على أبي جعفر النحاس وكانا جميعا من تلاميذه، وبعد رجوع أبي العباس الى مصر أخذ يتصدر التدريس، ويصنف، وكان طرازا بصريا أصيلا، فقد قرأ عليهم، ونهج منهجهم في القياس والتعليل والافتراض، وكان يصطنع مذهب الاخفش سعيد بن مسعدة وأبي عثمان المازني، فيستخلص للفعل أبنية ليس لها أمثلة في كلام العرب.

ويبدو أن هذا كان مما يشغل أذهان الدارسين من تلاميذ المبرد، ومن ذلك ما جرى بينه وبين أبي جعفر النحاس في مناظرة اعد لها بعض أمراء مصر، فقد روى الزبيدي عن أستاذه محمد بن يحيي الرباحي أن النحاس قال لابي العباس في هذا المجلس: «كيف تبنى مثل (افعلت) من رميت؟ فقال: ارمَيَّيْتُ فخطّأه أبو جعفر وقال: ليس في كلام العرب (افعلوت) ولا (افعليت). فقال ابو العباس: انما سألتني أن أُمثِّل لك بناء

---

(٤) طبقات النحويين واللغويين ٢٣٤.

(٥) انباه الرواة ١/٩٩.

(٦) اسمه بخط السماوي: كتاب نقض ابن ولاد على رد المبرد على سيبويه في كتابه.

ففعلت »[٧]. وصحّح ابو بكر الزبيدي قولها جميعا، استحسن جواب أبي العباس حين قلب الواوَ ياء، واستحسن رد أبي جعفر، لانه ليس في كلام العرب (افعليت)، وانتهت المناظرة بمثل هذا السخف والتلعب باللفظ.

وأبو العباس بن ولاد، كما قلت، طراز بصري واضح السمات، واذا وقف الدارس على جدله في انتصاره لسيبويه على المبرد، وضحت له السمات البصرية في تناول موضوعات النحو بالدرس، فما يزال يأتي بالحجة تلو الحجة وبالالزام بعد الالزام حتى يتبين له أنه جاء الى الغاية في الاقناع.

وكان يعاصر أبا العباس أحمد بن محمد بن ولاد دارس مصري معروف هو أبو جعفر أحمد بن محمد بن اسماعيل المعروف بالنحاس (توفي سنة ٣٣٧ هـ). كان قد رحل الى بغداد، وسمع من الزجاج ايضا، وأخذ عنه العربية، وقرأ عليه كتاب سيبويه، وحمل معه في عودته الى مصر نسخة منه، ونسخة من كتاب العين، وعن أبي جعفر أخذ محمد بن يحيي الرباحي أستاذ الزبيدي « وحمل عنه كتاب سيبويه رواية »[٨] وأدخله الاندلس.

وقوّمه الزبيدي فقال: « كان النحاس واسع العلم، غزير الرواية، كثير التأليف، ولم يكن له مشاهدة، فاذا خلا بقلمه جوّد، واحسن، وله كتب في القرآن مفيدة، منها: كتاب معاني القرآن، وكتاب اعراب القرآن جلب فيه الاقاويل وحشد الوجوه، ولم يذهب في ذلك مذهب الاختيار والتعليل »[٩].

وابو جعفر النحاس بصري المذهب، وتتّضح بصريته:

١ - بتلمذته لابي اسحاق الزجاج، وقراءته كتاب سيبويه عليه، وحمله الكتاب الى مصر.

---

(٧) طبقات النحويين واللغويين ٢٣٨.

(٨) طبقات النحويين واللغويين ٣٣٦.

(٩) المصدر نفسه.

٢ ـ وبأسلوبه في تناول موضوعات النحو بالدرس، وقد وقفنا قبل قليل على ما كان بينه وبين أبي العباس بن ولاد من مناظرة لم يقع مثلها من كوفيين، ولا جرى مثلها على لسان كوفي.

٣ ـ وبطابع كِتابه (التفاحة) العام، وطريقة عرضه المسائل فيه. غير انه يصطنع بعض المصطلحات التي وضعها الفراء كالجحد مكان النفي، والتفسير مكان التمييز، ولكن هذا لا يدل على شيء، ولا يجعل منه دارسا يخلط المذهبين، لان كثيرا من مصطلحات الفراء كانت قد شاعت، وجرت على ألسنة الدارسين في بغداد بصريين او كوفيين، وقد جرى بعضها على لسان الزجاج وابن السراج وهما نحويان بصريان.

ومن مشاهير النحويين في مصر: ابو الحسن طاهر بن أحمد بن بابشاذ (توفي سنة ٤٦٩)، أصله من العراق[١٠] ولد بمصر، وشب فيها، وتعلم مبادىء العربية على شيوخها، ثم رحل الى العراق طلبا للنحو فقرأه على الدارسين هناك، رجع الى مصر، فتصدر للتدريس بجامع عمرو، ثم ولي في ديوان الانشاء، وعمله فيه: النظر فيما يصدر عن ديوان الانشاء من سجلات ورسائل، فيصلح ما فيها من خطأ، وما يجد بها من خفي اللحن، وكان له على ذلك راتب يجري عليه كل شهر، ثم تزهد وانقطع في غرفة من غرف جامع عمرو، وانصرف للعبادة وتوفر على التأليف، وزعم المترجمون له أن ما صنفه بعد انقطاعه واعتكافه كتاب كبير في النحو سُمِّيَ (تعليق الغرفة).

وله مصنفات اخرى، منها: شرح الجمل، و(المقدمة) في النحو، وقد نشرت المقدمة في بغداد، نشرها حسام النعيمي باسم (المقدمة المحسبة في علم النحو).

وابن بابشاذ نحوي «على مذهب البصريين»[١١]، ويكفي لتأييد ذلك

---

(١٠) انباه الرواة ٢/٩٥.

(١١) نزهة الالباء ٤٣٣.

ان نقف على هذه المقدمة، فهي في أسلوبها، وطابعها، وتعبيراتها وتقسيماتها وتعريفاتها ومصطلحاتها بصرية لا أثر فيها للدرس الكوفي.

ففعل الامر الصّحيح اللام «مبني آخره على الوقف أبدا، مثل: احضر»[١٢].

جملة المنصوبات احد عشر، المفعول المطلق، والمفعول به والمفعول فيه، الخ..[١٣].

والرافع للمبتدأ هو الابتداء[١٤].

والرافع للفعل المستقبل هو: «وقوعه موقع الاسم، وفيه أقوال أصحها هذا القول»[١٥].

وما لا ينصرف هو ما «اجتمع فيه علتان فرعيتان من علل تسع، او ما يقوم مقامها»[١٦].

وهذه اصول بصرية خالصة، لان الكوفيين يذهبون الى ان فعل الامر معرب مجزوم، والمفعول عندهم واحد وهو ما يسميه البصريون بالمفعول به. اما المفعولات الاخرى فأشباه المفعولات.

وما لا ينصرف وما ينصرف مصطلحان بصريان يقابلهما عند الكوفيين: ما لا يجري وما يجري. والعلتان الفرعيتان لا يقول الكوفيون بهما لان التعريف وحده يكفي لعدم اجراء الاسم، او لمنعه من الصرف.

والرافع للفعل المستقبل عند الكوفيين، والرأي أصلا للفراء، هو التجرد من الناصب والجازم.

فالنحويون المصريون جميعا كانوا على مذهب البصريين:

---

(١٢) المقدمة المحسبة ٢٤.
(١٣) المقدمة المحسبة ٣٧.
(١٤) المقدمة المحسبة ٣٧.
(١٥) المقدمة المحسبة ٣٨.
(١٦) المقدمة المحسبة ١٥.

١ ـ بتلمذتهم للبصريين، فولّاد كان قد تلمذ للخليل، وأبو علي الدينوري كان قد تلمذ لأبي عثمان المازني وابي العباس المبرد. وأبو العباس ابن ولاد وابو جعفر النحاس كانا قد تلمذا للزجاج.

٢ ـ وبما تتناقله كتب النحو من اقوال لهم.

٣ ـ وبمصنفاتهم التي وقعت لنا، كالانتصار لابن ولاد، والتفاحة لابي جعفر النحاس، والمقدمة المحسبة لابن بابشاذ.

٤ ـ وبعنايتهم بمصنفات البصريين ككتاب العين، وكتاب سيبويه، وكتاب الجمل، واقبالهم على اقرائها وشرحها والتعليق عليها.

غير ان الدكتور (ضيف) جعل منهم نحاة في اتجاه المدرسة البغدادية، لانهم كانوا يعنون باستيعاب آراء المدرستين وهذا عنده هو الاساس في عدهم في المدرسة البغدادية، او وضعهم في اتجاهها. ولم يكتف بهذا فقد راح يتمحّل الاسباب ويتكلف القرائن لجعل هؤلاء رجال مدرسة جديدة هي المدرسة المصرية، ووضعهم في اتجاه المدرسة البغدادية، ولم يقدم لاثبات هذا الا مزاعم مرسلة، واحكاما مطلقة.

وربما تشبث بالواهي من القرائن، فشرع يدور حول فكرة المذهب البغدادي، كما فعل عندما عرض لابي جعفر النحاس، فقد تمسك، لجعله في المدرسة البغدادية، بأنه كان قد استوعب آراء الكوفيين، لانه اصطنع بعض مصطلحات الكوفيين في كتابه (التفاحة)، ولانه «قد يختار رأيا لقطرب، او للاخفش مخالفا جمهور البصريين»[١٧]، ولانه قد يتفق في بعض آرائه مع بعض آراء الكوفيين.

كان الدكتور ضيف متعجلا في هذا، كان يرسل الكلام ارسالا قبل التأكد من سلامته، وقبل بذل الجهد في استخلاصه. لقد نسب بعض المصطلحات التي استعملها النحاس الى الفراء، مثل (النعت)، و(ما لم يسم

---

(١٧) المدارس النحوية ٣٣٢.

فاعله)، وجعل هذا دليلا على ان النحاس كان يستوعب آراء البصريين، وآراء الكوفيين. وكان الدكتور ضيف في هذا على وهم.

أما (النعت) فليس مصطلحا خاصا بالكوفيين، وليس من اوضاع الفراء، فقد كان سيبويه يستعمله ويردده، وقد جاء لفظ (النعت) و(المنعوت) في اكثر من موضع من كتابه، وعقد للنعت فيه اكثر من باب.

من ذلك قوله: «هذا باب مجرى النعت على المنعوت، والشريك على الشريك، والبدل على المبدل منه، وما اشبه ذلك. فأما النعت الذي جرى على المنعوت فقولكِ: مررت برجل ظريف قبل، فصار النعت مجرورا مثل المنعوت، لانهما كالاسم الواحد»[١٨].

وأما (ما لم يسم فاعله) فمصطلح كوفي، واكبر الظن انه من اوضاع الفراء فقد تردد ذكره في (معاني القرآن) كثيرا، ولكن استخدام النحاس اياه لا يخرجه من الدائرة البصرية، فقد جرى مثله على لسان المبرد وابن السراج، وهما من اعلام البصريين، لا يشك الدكتور (ضيف) في ذلك، ولا يورط نفسه فيخرجهما من الدائرة البصرية، كما اخرج النحاس منها. جاء في المقتضب للمبرد قوله: «باب المفعول الذي لا يذكر فاعله»[١٩]. وجاء في (الموجز في النحو) لابن السراج قوله: «الرابع: الذي لم يسم من فعل به، وبني له فعل خص به نحو قولك: ضُرِبَ زيد، وأُخرِجَ خالد. ودُحرِجَ الشيء، واستُخرِجت الدراهم»[٢٠] والعبارتان متقاربتان حتى ليوشك أن تكونا شيئا واحدا، فاذا كان المبرد وابن السراج قد استعملا مصطلح الفراء بمعناه فقد كانا متأثرين به، ويلزم الدكتور (ضيف) حينئذ أن يجعلهما في البغداديين، كما جعل النحاس فيهم، ولكنه جعلهما في

---

(١٨) الكتاب ١/٢٠٩، ٢١٠.

(١٩) المقتضب ٤/٥٠.

(٢٠) الموجز في النحو ٣٠.

(مدارسه) من اعلام المدرسة البصرية، بالرغم من تعمق ابن السراج خاصة في مصنفات الكوفيين ومتابعته اياهم في كثير من الآراء، فقد وافق ثعلبا والفراء والكسائي فذهب، كما ذهبوا، الى أن (ليس) حرف، وقد مر بنا بيانه. ووافق الكوفيين في جواز أن يليَ غيرَ الظرف (كان) مع تأخير الخبر، تمسكا بقول الشاعر:

«بما كان ايّاهم عطية عوّدا»[21].

وافق الكسائي واكثر الكوفيين في جواز اعمال (ان) النافية[22]. ولم يسترع ذلك انتباه الدكتور ضيف، فيسلك ابن السراج في المدرسة البغدادية، كما سلك ابن كيسان فيها لانه وافق الكوفيين في بعض المسائل. وكما سلك النحاس فيها لان بعض مصطلحات الكوفيين ترد في كتابه (التفاحة).

واما اختيار النحاس رأي لقطرب، او للأخفش مخالف لجمهور البصريين فلا يُخرج النحاس عن الدائرة البصرية، كما لم يُخرج قطربا والاخفش عنها أنهما خالفا جمهور البصريين.

وأما موافقة النحاس لبعض الكوفيين في بعض الاراء فآمل ألّا يحاول به الدكتور ضيف اقناعنا بان اتباع مذهب بعينه يعني اغلاق التابعين عقولهم، وتجميدها، حتى لا يؤذن لهم ان يتخذوا لانفسهم وجهة نظر خاصة، لان ذلك لم يكن ليحدث يوما، فقد كان اعلام مدرسة البصرة انفسهم يختلفون فيما بينهم، فقد خالف سيبويه أستاذه في ذهابه الى أن (لن) أصلها: (لا أن)، وفي مسائل اخرى معروفة لا مجال لذكرها. وخالف الاخفش سيبويه، وخالف المبرد سيبويه، ونقض كثيرا من آرائه. وكان اعلام مدرسة الكوفة يختلفون فيما بينهم ايضا فقد خالف الفراء الكسائي وهشاما في كثير من الآراء، وخالف «ثعلب» الفراء وهشاما والكسائي في

---

(٢١) همع الهوامع ١/١٢٤.

(٢٢) همع الهوامع ١/١٢٤.

كثير من الاراء، ولم تكن هذه المخالفة لتحول حتى عند الدكتور ضيف، دون ان يُسلَك الاخفش والمبرد في البصريين، والفراء وثعلبا في الكوفيين، فكيف يريد منا ان نقتنع ببغدادية ابن كيسان والزجاجي والنحاس وغيرهم بمخالفتهم جمهور البصريين في بعض آرائهم؟

والنحاة المصريون، عند الدكتور ضيف، ثلاثة اجيال:

جيل ولّاد وبينه، وهو جيل من النحاة «كانت المدرسة البصرية واساتذتها غالبا وجهتهم في بغداد، وخير من يصور ذلك ابو العباس بن ولاد تلميذ الزجاج صاحب المبرد»[٢٣].

وجيل النحاس ومن جاء بعده، وهو جيل من النحاة كانت في بغداد ممثلة بابن كيسان ومعاصريه، ولم يكن النحاس بعيدا عنها، وكان قد اختلف كالبغداديين الى أصحاب ثعلب، وسمّى ـ الدكتور ضيف ـ منهم أبا بكر بن الانباري، ولا يشك الدكتور ضيف ان النحاس كان قد اختلف ايضا الى حلقات ابن كيسان ومعاصريه من أوائل البغداديين، فالتحم «نحو المدرسة البصرية بنحو المدرسة البغدادية»[٢٤].

وجيل النحاة المصريين المتأخرين، جيل الشراح واصحاب الحواشي، مثل ابن عقيل وابن الصائغ والدماميني والكافيجي والسيوطي والازهري والاشموني والصبان والخضري، وهو جيل الجامعين الملفقين الذين حشدوا في مصنفاتهم آراء النحاة الاولين من بصريين وكوفيين و(بغداديين واندلسيين ومصريين)، ولم يبد عليهم انهم، اذ كانوا يختارون هذا الرأي أو ذاك، كانوا يصدرون عن اسس مذهبية، ولم يبد على الدكتور ضيف انه استطاع ان يرسم لهم نحوا له اصوله واسسه المذهبية، فقد استعرض اسماءهم وكتبهم، ولم يشر الى ما ينتظمهم من اسس مذهبية معينة.

---

(٢٣) المدارس النحوية ٣٣١.
(٢٤) المدارس النحوية ٣٣١.

فاذا كان الجيل الاول منهم بصريا، والجيل الثاني منهم في اتجاه المدرسة البغدادية، والجيل الثالث في اتجاه غير معروف فكيف تنتظمهم مدرسة بعينها، وليس لهم خط مذهبي ولا طريقة يتناولون في ضوئها موضوعات النحو بالدرس؟!

اليست هذه المحاولة الهازلة في عرض المدارِس النحوية مما يسيء الى روعة البحث العلمي الجاد؟

٢ ـ الدرس النحوي في الاندلس:

لم يَحُلْ بُعْدُ الاندلس عن امصار العلم دون الوصول اليها، والوقوف على ما كان يجري فيها، ولا جعلها انفصالها عن قاعدة الخلافة في المشرق في عزلة عن المشرق والمشارقة، فقد كان الدارسون الاندلسيون بعد ان يستوفوا متطلبات الدرس الاولي بتعلم مبادىء العربية ودراسة النصوص والاشعار يتجهون بابصارهم الى المشرق لطلب المزيد من العلم، وكان يدفعهم الى ذلك حرصهم على القرآن وسلامة لغته والتجويد في تلاوته وضبطه.

وكانت الطبقات الاولى من الدارسين يرحلون الى المشرق لتلقي القراءة والحديث، ثم الرواية اللغوية والادبية التي يستعينون بها على تحقيق ما كانوا يحرصون عليه، فاذا عادوا من رحلتهم تصدروا مجالس الدرس، وبثوا في تلاميذهم ما كانوا قد تلقوه في رحلاتهم.

وكان في مقدمة هؤلاء: ابو موسى الهواري الذي جعله ابو بكر الزبيدي على رأس الطبقة الاولى من النحاة الاندلسيين، وكان أبو موسى «من أهل الفقه في الدين وعلم العرب»[٢٥]، وقد لقي مالكا في المدينة، والاصمعي وابا زيد في البصرة، ولعله كان اول من صنف في الاندلس كتابا في القراءة، وكتاباً في تفسير القرآن الكريم.

---

(٢٥) طبقات النحويين واللغويين ٢٧٥.

وكان الغازي بن قيس يعاصره، وكان قد رحل الى المشرق ايضا، ولقي مالكا، ونافع بن ابي نُعَيم مقرئ اهل المدينة، واخذ عنهما الحديث والقراءة ورجع الى الاندلس ومعه «الموطأ» وقراءة نافع، وتوفي سنة ١٩٩ للهجرة.

ولم يُعْنَ ابو موسى الهواري والغازي بن قيس بغير الفقه والحديث والقراءة فقد كانت العبادة والتفقه في الدين اغلب عليهما.

هذه هي الطبقة الاولى من الدارسين الاندلسيين، وكان اعلامها معنيين بالدراسات القرآنية والحديث، واذا كان لقي بعضهم بعض أئمة اللغة في البصرة فلم يكن الدافع رغبة في الدرس اللغويّ، او التخصص فيه، ولكن الدافع فيما يبدو هو الرغبة في ضبط القراءات والاحاديث. فلا وجه لجعلهما وامثالهما في عداد اللغويين او النحويين الاندلسيين.

ويغلب على الظن ان الدرس النحوي في الاندلس انما بدأ بجوديّ بن عثمان (توفي سنة ١٩٨)، وكان قد رحل الى المشرق، وكانت بغداد غاية مطافه، وفيها لقي الكسائيّ والفراء وغيرهما من البغداديين، واستملاهما، واخذ عنهما، ثم عاد الى الاندلس وهو يحمل كتاب الكسائي[٢٦]. واقام في قرطبة، وتصدر حلقة للاملاء والتدريس، ولا بد انه كان ينحو منحاة البغداديين، الكوفيين، لانه لم يلق غير الكسائيّ والفراء واصحابهما، وكلهم بغداديّ، ولم يأخذ النحو عن بصريّ.

أما كتاب الكسائيّ الذي ادخله الاندلس فلعله كتاب المعاني الذي تشير اليه كتب الطبقات، وعلى هذا يكون جوديّ بن عثمان الدارس الاول للنحو البغدادي الكوفي في هذه البلاد، ويكون الدرس النحويّ الذي عرفته الاندلس اول مرة هو الدرس البغداديّ.

وغبر جوديّ بن عثمان يملّ على تلاميذه نحو الكوفيين، ويصنف في

(٢٦) طبقات النحويين واللغويين ٢٧٨.

النحو على طريقة الكوفيين حتى توفي سنة ١٩٨ للهجرة، وكان قد أخذ عنه جماعة كان منهم: عبدالله بن رافع المعروف بابي حرشن الذي جعله الزبيديّ على رأس الطبقة الثانية من النحويين الاندلسيين. وكان ابو حرشن عالما باللغة والعربية، وكان معروفا بالفصاحة حتى «كان الناس اذا استفصحوا رجلا قالوا: ما هذا الا ابو حرشن»[٢٧].

وعن أبي حرشن اخذ عبد الملك بن مختار، واحمد بن بُتري، وكان هذا فقيها ونحويا ولغويا، وكان هذان الدارسان من الطبقة الثالثة في تصنيف الزبيديّ للنحاة الاندلسيين.

وممن كان على مذهب البغداديين الكوفيين من نحاة الاندلس:

ابو الحسن مفرج بن مالك، وكان قد صنف كتابا في شرح كتاب الكسائي[٢٨].

وابو عمر يوسف بن محمد البلوطيّ «وكان حافظا للغة، وذا حظ من العربية» وكان يقرىء كتاب (اصلاح المنطق) ليعقوب بن السكيت[٢٩].

وسعيد بن قدامة البلوطيّ. قال الزبيديّ: «كان مؤدبا، عالما بالعربية، وكان يميل الى مذهب الكوفيين»[٣٠]. اما النحو البصريّ فقد تأخر ظهوره في الاندلس، وكان الأُفُشْنيق محمد بن موسى بن هاشم من اوائل من حمله الى الاندلس وأذاعه فيها، فقد رحل الى المشرق، ولقي البصريين، وأخذ عن ابي عثمان المازنيّ، وابي علي الدينوري، وقرأ عليهما كتاب سيبويه ثم انتسخه عن نسخة ابي عليّ، وحمل النسخة معه الى الاندلس، وكان هذا فيما يبدو، هو اول عهد الاندلسيين بكتاب سيبويه، ثم اخذ الأُفُشْنيق بعد عودته الى الاندلس يقرىء الكتاب، وأخذه عنه جماعة من الدارسين كانوا

---

(٢٧) طبقات النحويين واللغويين ٢٨١.

(٢٨) نفسه ٢٩٧.

(٢٩) نفسه ٣٢٣.

(٣٠) نفسه ٣٢٣.

حفظة له، وجملة للنحو البصريّ، وتوفي الافشنيق سنة ٣٠٧ او ٣٠٩ للهجرة [٣١].

وممن كان ينحو منحاة أهل البصرة من الاندلسيين:

زيد بن الربيع بن سليمان الحجريّ المعروف بالبارد. كان معاصرا للافشنيق. وكان، كما يقول الزبيديّ حسن الضبط للكتب، وكان معنيا بكتاب الاخفش، وكان هذا الكتاب قد وصل الى الاندلس متفرق الأبواب، وكان الزبيديّ قد رأى النسخة الاولى فرآها مفترقة الابواب، وكان البارد هو الذي رتّب ابوابه. وجمع بينها، فأخذه الدارسون عنه مبوّبا مجموعا، وتوفي البارد سنة ٣٠٠ للهجرة [٣٢].

وأبو وهب بن عبد الرؤوف «وكان قد طالع كتاب سيبويه ونظر فيه» [٣٣].

ومحمد بن عبدالله بن الغازي، وكان قد رحل الى المشرق، ولقي أبا حاتم السجستانيّ والرياشيّ واخذ عنهما، ولقي آخرين من أهل الحديث، ورواة الاخبار والاشعار. وعاد الى الاندلس، وأدخل معه علما كثيرا من العربية والشعر والاخبار، توفي سنة ٣٠٢ للهجرة [٣٤]، او سنة ٢٩٦ او نحوها [٣٥].

وأحمد بن يوسف بن حجاج، وكان من أعلم الناس بمذهب أهل البصرة، وأشدهم لزوما للكتاب، لأنه لم يَأنِ عن مطالعته وقراءته في حال فراغه وشغله، وصحته وسقمه، كما يقول الزبيديّ.

ومحمد بن يحيي الرباحي، وكان من أنشط الداعين الى مذهب البصريين،

---

(٣١) طبقات النحويين ٣٠٥، بغية الرعاة ٢٥٢/١.

(٣٢) طبقات النحويين واللغويين ٣٠٨. بغية الرعاة ٥٧٣/١.

(٣٣) طبقات النحويين واللغويين ٣٢١.

(٣٤) طبقات النحويين واللغويين ٢٨٢.

(٣٥) بغية الرعاة ١٣٩/١.

وكان قد رحل الى المشرق، ولقي أبا جعفر النحاس، وحمل عنه كتاب سيبويه رواية، وكان أبو بكر الزبيديّ من انبه تلاميذ الرباحيّ وأكبر الداعين الى مذهب البصريين.

وأبو بكر محمد بن الحسن الزبيديّ صاحب (الواضح) في النحو، و(مختصر كتاب العين) و(طبقات النحويين واللغويين)، أخذ الرباحي، عن ابي علي القالي، وكان قد عرف فضله «فمال اليه واختص به وأقرّ له» (٣٦).

وبرز بعد الزبيديّ من الدارسين:

أبو عبدالله محمد بن عاصم، وكان قد أخذ عن الرباحيّ والقالي ايضا. وقد ذكره الحميديّ فقال: «هو نحوي مشهور وإمام في العربية... وكان لا يقصر عن أصحاب محمد بن يزيد المبرد» (٣٧).

واحمد بن أبان بن سيد اللغويّ الاندلسيّ وكان من أئمة اللغة والعربية في الأندلس. وأخذ عن القالي وغيره، وله كتابان، كتاب (العالم والمتعلم) وكتاب (شرح كتاب الاخفش).

ثم خلف من بعد هؤلاء خلف كانت البصرية هي السمة البارزة في نحوهم، وكانوا قد اقبلوا على مصنفات البصريين، يأخذون عنها، ويشرحونها، ويصنفون الكتب في شرح شواهدها.

ومن أوائل هؤلاء:

أبو القاسم إبراهيم بن محمد بن زكريا الزهريّ الاندلسيّ المعروف بابن الافليليّ. كان قد أخذ عن أبي بكر الزبيديّ. وروى عنه كتاب الامالي لابي عليّ القالي (٣٨).

والأعلم الشنتمري يوسف بن سليمان بن عيسى المتوفى سنة ٤٧٦ للهجرة

---

(٣٦) جذوة المقتبس ١٦٥.

(٣٧) جذوة المقتبس ٧٤. بغية الرعاة ١/١٢٣.

(٣٨) معجم الادباء ٢٠/٦٠. بغية الرعاة ٢/٣٥٦.

أخذ عن الافليليّ[٣٩]، وله شرح لأبيات سيبويه سماه «كتاب تحصيل الذهب من معدن جواهر الأدب في علم مجازات العرب» وهو الشرح الذي ذَيّل به الكتاب في طبعة بولاق. وشرح كتاب (الجمل) للزجاجيّ وشرح شواهد الجمل[٤٠]. كان ينزع الى البصرة. وكان ابن مضاء يقول: «وكان الأعلم رحمه الله على بصره بالنحو مولعا بهذه العلل الثواني، ويرى انه اذا استنبط منها شيئا فقد ظفر بطائل»[٤١].

وابن السِّيد عبدالله بن محمد بن السِّيد البطليوسيّ (توفي سنة ٥٢١ هـ) وكان ممن عُني بجمل الزجاجي فصنف كتاب «إصلاح الخلل الواقع في الجمل» وكتاب «الحُلَل في شرح أبيات الجمل».

وابن الباذش علي بن أحمد بن خلف الأنصاري الغرناطيّ (توفي سنة ٥٢٨ هـ)، وكان له من المصنفات: شرح كتاب سيبويه، وشرح كتاب المقتضب للمبرّد، وشرح أصول ابن السراج، وجُمَل الزجاجيّ، وايضاح الفارسيّ والكافي لأبي جعفر النحاس[٤٢].

وابن الطراوة سليمان بن محمد (توفي سنة ٥٢٨ هـ) وكان تلمذ للأعلم الشنتمريّ، وسمع عليه كتاب سيبويه، ومن مصنفاته كتاب «المقدمات على كتاب سيبويه»، ومقالة في الاسم والمسمّى[٤٣].

وابن طاهر محمد بن أحمد، توفي عشر الثمانين وخمس المئة للهجرة. تلمذ لابن الرمّاك، وقرأ عليه كتاب سيبويه، ثم اقرأ الكتاب جماعة منهم ابن خروف، ومُصعب الخشني[٤٤].

---

(٣٩) معجم الادباء ٢٠/٦٠. بغية الرعاة ٢/٣٥٦.
(٤٠) معجم الادباء ٢٠/٦٠.
(٤١) الرد على النحاة ١٦٠.
(٤٢) بغية الرعاة ٢/١٤٢.
(٤٣) بغية الوعاة ١/٦٠١٤.
(٤٤) بغية الوعاة ١/٢٨.

والسهيليّ أبو القاسم عبد الرحمن بن عبدالله (توفي سنة ٥٨١ هـ)، وكان تلمذ لابن الطراوة وابن طاهر، و« كان عارفا بعلم الكلام والاصول »[٤٥]، وكان كالأعلم مشغوفاً بالعلل واستخراجها، وقد أشار اليه ابن مضاء ناعيا عليه ذلك، فقال: « وكذلك كان صاحبنا الفقيه أبو القاسم السهيليّ على شاكلته ـ يعني الأعلم ـ رحمه الله، يولع بها، ويخترعها، ويعتقد ذلك كمالا في الصنعة وبصراً بها »[٤٦].

وابن خروف علي بن محمد (توفي سنة ٦٠٩ هـ)، وكان أخذ النحو عن ابن طاهر. ومما صنف: كتاب شرح سيبويه، وكتاب شرح الجمل[٤٧].

والشَّلَوْبين عمر بن محمد (توفي سنة ٦٤٥ هـ) وكان قد روى عن السهيليّ، وصنف تعليقا على كتاب سيبويه[٤٨].

وابن هشام الخضراويّ محمد بن يحي الخزرجيّ الاندلسيّ (توفي سنة ٦٤٦ هـ) وكان تلمذ لابن خروف وتلمذ له جماعة منهم الشلوبين، وكان من مصنفاته: « الافصاح بفوائد الايضاح » و(شرح الايضاح) و(غرر الاصباح في شرح ابيات الايضاح)[٤٩].

وسار الدرس النحويّ هذه المسيرة الرتيبة، وتعاقب الدارسون، وهم يتسمون بانهم ينزعون نزوعا بصريا واضحا، يلاحظ الدارس ذلك حين يستعرض الشيوخ الذين اخذوا عنهم، والمصنفات التي صنفوها. حتى ليكاد النحو عندهم لا يتجاوز حدود ما رسمه المبرد والزجاج والزجاجيّ وأبو علي الفارسيّ واصحابهم » ولم يلاحظ فيما صنفوا أو قالوا شيءٌ جديدٌ يمكن أن يعدّ اضافة. فنحوهم اذا أردنا الى اجمال القول فيه ليس فيه

---

(٤٥) بغية الوعاة ٢/٨١.
(٤٦) الرد على النحاة ١٦٠.
(٤٧) بغية الوعاة ٢/٢٠٣.
(٤٨) بغية الوعاة ٢/٢٢٥.
(٤٩) بغية الرعاة ١/٢٦٧.

اصالة، ولا ابداع. كل ما هنالك شروح لمؤلفات القدماء كالمقتضب والجمل والايضاح، وغلو في التعليل حتى صار النحو عندهم كما صار عند معاصريهم من المشارقة علم القياس والتعليل، فاذا اراد احدهم ان يظهر على معاصريه ظهر عليهم بما يخترع من علل، وبما يجرّد من قياس، ويعتقد ذلك كمالا في الصنعة وبصرا بها على حدّ قول ابن مضاء في غمزه الأعلم والسهيلي.

أما النحو البغدادي (الكوفي) فقد انكمش ظله بعد أن انبسط في الأندلس زمنا طويلا، ولكنه لم يضمحلّ، فقد استطاع ان يثبت وجوده في اعلام من الدارسين ساءهم ما آل اليه امر هذا الدرس حتى استطاع ان يظهر وهو ينبض قوة في دعوة ابن مضاء الى احياء هذا الدرس، وفي ردّه على النحاة.

وابن مضاء هو ابو العباس أحمد بن عبد الرحمن بن محمد بن مضاء اللخميّ القرطبيّ. وكان دارسا طُلَعة، ألمّ بكثير من ثقافات عصره، واتصل بكثير من علمائه. ارتحل الى اشبيلية فلقي عبد الرحمن بن محمد الاشبيليّ المعروف بابن الرمّاك، فقرأ عليه كتاب سيبويه، وقرأ عليه وعلى غيره كتبا كثيرة في النحو واللغة، ولا شك ان هذه الكتب التي قرأها على ابن الرماك وغيره كانت متنوعة الاتجاهات، ولا شك ان من بينها كتبا كوفية كانت الاندلس قد عرفتها قبل ابن مضاء.

وبعد ان استكمل ما كان ينبغي استكماله في الدرس النحويّ هاجر الى المغرب، ولقي القاضي عياضا اكبر فقهاء المغرب ومحدثيه، واخذ عنه الفقه والحديث، ولقي القرّاء واخذ عنهم القراءة فعاد مقرئا مجوّدا، ومحدثا مكثرا، وفقيها رفعته فقاهته الى منصب قاضي الجماعة، وصار «رُحلة في الرواية وعمدة في الدراية»[٥٠].

---

(٥٠) بغية الرعاة ٣٢٣/١.

وله في النحو ثلاثة مصنفات: المشرق في النحو، والردّ على النحاة، وتنزيه القرآن عما لا يليق بالبيان. ويبدو ان ابن مضاء في هذا الكتاب قد تناول بالتجريح مناطقة النحاة المتأوّلين، ولذلك تصدّى ابن خروف للردّ عليه بكتاب سماه: «تنزيه أئمة النحو عما نسب اليهم من الخطأ والسهو».

ولا بد ان يكون ابن مضاء قد اختلف الى شيوخ كثيرين، ووقف على مصنفات القدماء والمتأخرين، ولم يخفَ على من كان له فطنته وذكاؤه أن يدرك الفرق بين أول النحو وآخره، وان يحسّ بمدى الانحراف الذي ابعده عن المنهج الذي كان ينبغي ان ينتهجه، ويتبيّن مآل هذا الدرس الحيويّ عند هؤلاء الدارسين المعاصرين الذين شغلوا بالفروع عن الاصول، وامعنوا في الخوض فيما لا جدوى فيه للدرس، ولا للدارسين، وتسابقوا الى ولوج باب الجدل العقيم في مسائل افترضوها، واطالوا الكلام عليها، وراحوا يفسرون الظواهر النحوية بالتفسير العقليّ الذي خرج بالنحو عن ميدانه، واضاعوا الجهود في متاهات الجدل، وتقليب المسألة النحوية، او اللغوية على وجوهها العقلية المحتملة، حتى ابتعدوا عن الغاية التي يرمي اليها الدرس النحوي او اللغوي.

ولا بد ان يكون ابن مضاء قد ضاق ذرعا بما وقف عليه من تمحل النحاة، وابتعادهم عن القصد، وكان له من الجرأة ان يقف في وجه هذا التيار الذي لا يعرف حدا يقف عنده، وان يتصدّى لهؤلاء الدارسين السادرين فيدلّهم على النهج السويّ الذي انتهجه الدرس النحوي قبل ان ينحرف عنه، وينبههم الى المنطلق الذي انطلق منه اول مرة، ويرسم لهم طريق العودة الى الصواب.

واذا لم يكن في ذهن ابن مضاء فكرة واضحة عن منهج البحث النحويّ الذي يجب ان يقوم عليه الدرس فلا بد أنه كان يدرك فرق ما بين أوائل النحاة ومتأخريهم، وبداية الدرس النحويّ وما آل اليه أمره في زمانه.

وليس مستغربا ان يضيق ابن مضاء الفقيه والمقرىء والراوية بما تمحّله النحاة، وبما «التزموا بما لا يلزمهم، وتجاوزوا فيها ـ يعني صناعة النحو ـ القدر الكافي فيما أرادوه منها، فتوعرت مسالكها، ووهنت مبانيها، وانحطت من رتبة الاقناع حججها»[٥١].

ولم يوجه ابن مضاء الى الكوفيين ما طعن به على البصريين، وهذا يشير الى انه كان نحويا على مذهب الكوفيين، او أنه كان يرى نفسه بجانب الكوفيين. وليس من قبيل المصادفة أنْ يكون الكسائيّ على رأس هذا المذهب، لأن ثقافته القرآنية القائمة على السماع والرواية هي التي وجهته قِبَلَ المذهب الكوفي الظاهريّ السلفيّ. وليس من قبيل المصادفة ايضا ان يدعو ابن مضاء الى الغاء تقدير ما يتعلق به الظرف او المجرور، فعدم تقديره رأي للكوفيين معروف، لان الخبر في مثل قولهم: زيد في الدار، هو «الجار والمجرور» لا المقدّر المحذوف[٥٢].

وليس من قبيل المصادفة ان يرى ابن مضاء أنّ من الصواب أنْ يقال لمن سأل عن علة رفع الفاعل: «كذا نطقت به العرب» فقد سبقه الكسائيّ الى مثله، فقال حين سئل عن (أيّ) وعن اختلاف احوالها، وتعليل ذلك الاختلاف: «أيٌّ كذا خلقت».

ومعنى هذا في وضوح، ان ابن مضاء كان نحويا على مذهب الكوفيين، وكان قد اتخذ من الرواية اساسا لعلمه ودراسته وهذا هو الأساس الذي كان الكسائيّ قد بنى عليه ما رسم من مذهب. ومن اجل هذا صحّح ابن مضاء رأي الكسائيّ في جواز خلوّ الفعل من الفاعل.

فابن مضاء، في دعوته، لم يخرج عن الخط الكوفيّ العام، لأن الاساس الذي بنى عليه دعوته الى الغاء العلل والتأويلات هو الاساس اللغويّ الذي

---

(٥١) الرد على النحاة ـ المقدمة.

(٥٢) الرد على النحاة ١٥١.

بنى الكوفيون مذهبهم عليه.

أطلت الوقوف عند ابن مضاء لابيّن أمرين:

الاول ـ أنّ ابن مضاء نحويّ على مذهب الكوفيين، واذا لم يعلن عن انتسابه اليهم فأقواله والامثلة التي عرضها تنمّ على ارتباطه بالكوفيين ومذهبهم.

والثاني ـ انّ الدارسين المحدثين ربما اتخذوا من دعوة ابن مضاء اساسا بنوا عليه زعمهم أنّ مذهبا نحويا جديدا نشأ في الاندلس لم يكن للدارسين عهد بمثله.

وقد وضح مما أجريت في هذه الوقفة الطويلة من موازنة بين ما ذهب اليه ابن مضاء، وما كان الكوفيون قد ذهبوا اليه من قبل أنّ ابن مضاء لم يجرد دعوته هذه ليذيع في الدارسين مذهبا نحويا جديدا، ولكنه فعل ذلك انتصارا لمذهبه الكوفي الذي لم يجهر بالدعوة له.

فاذا كان ابن مضاء قد سلك هذا المسلك، فانما سلكه، لان النحو الكوفيّ كان قد عرف في بيئات الدرس الأندلسية قبل ان يعرف الدرس البصريّ فيها. واذا دعا ابن مضاء الى ابطال القياس، والغاء العلل الثواني والثوالث، والغاء التقديرات فذلك ان النهج الكوفيّ الذي عرفه قد لقي قبولا عنده، وصادف هوى في نفسه واتفاقا مع مذهب الظاهريين الذي كان ابن مضاء يمثله اتم تمثيل. وليس ما قام به ابن مضاء في دعوته هذه حدثا جديدا ولكنه تطبيق لمذهب الكوفيين الذين كانوا مع النقل والسماع، لا يخفرون له ذمة، ولا ينقضون له عهدا «ويهون على الكوفيّ نقض اصل من أصوله، ونسف قاعدة من قواعده، ولا يهون عليه اطّراح المسموع»[٥٣].

ففكرة (المدرسة الاندلسية) في اكبر الظن، كانت مستوحاة من عمل

---

(٥٣) نظرات في اللغة والنحو ١١.

الزبيدي في طبقاته، لانه خصص للنحويين واللغويين والاندلسيين مكانا خاصا في طبقاته باراء البصريين والكوفيين، فأوهم بوجود مذهب اندلسيّ.

غير انّا رأينا ان الدرس النحويّ، حتى زمان الزبيديّ، لم يختلف في شيء عما كان في بغداد والبصرة، والنحاة الذين سبقوه لم يكونوا الّا نقلة لنحو بغداد والبصرة، أو شراحا لمصنفات البغداديين والبصريين، والنحاة الذين ترجم لهم في طبقاته امّا متابعون للكوفيين، أو متابعون للبصريين، ولم يكن من بينهم من أضاف الى النحو المشرقيّ شيئا، او نزع منزعا ليس بالبصريّ ولا بالبغداديّ الكوفيّ.

ويبدو ان ما اوهم به الزبيديّ كان قد جاز على الدارسين المحدثين فقالوا بوجود مدرسة اندلسية. وتمحلوا القول في التحدث عنها، ومن بين من ذهب الى ذلك من الدارسين المحدثين:

طه الراوي، وكان قد نُشِر له مقال في المجلد الرابع عشر من مجلة المجمع العلمي العربيّ بدمشق (جـ ٩/١٠ ص ٣١٩) وكان عنوانه: (نظرة في النحو) ثم طبع هذا المقال حديثا مع مقالات اخرى في كتاب (نظرات في اللغة والنحو).

صنف (الراوي) النحاة فذكر أنهم بصريون وكوفيون وبغداديون واندلسيون، وان مذاهب النحاة بحسب هذا التصنيف اربعة مذاهب هي أمات المذاهب في النحو، أما ما تفرع منها فمذاهب كثيرة، قال: انها يعسر حصرها [٥٤].

اذا استقام هذا التقسيم الرباعي بالنظر الى الدارسين بحسب اقطارهم فلن يستقيم بالنظر الى المنازع او المذاهب، واذا اقنع الدارسين بوجود المذهبين الرئيسين، أعني مذهب البصريين ومذهب الكوفيين بعرض الاسس المذهبية التي بُنِيَ عليها المذهبان فلا أظنه مقنعا اياهم بوجود مذهب البغداديين

(٥٤) نظرات في اللغة والنحو ١٠.

ومذهب الاندلسيين، لانه لم يفلح في عرض خصائص المذهبين او سماتهما، وكلّ ما قاله فيهما لا يعدو أن يكون دعوى مرسلة لم تؤيد بالدليل، ولا دُعِمت بالشواهد.

وخلاصة الاسس المذهبية للبغداديين عنده هي: «الولع بالتوسع في الروايات، والتباهي بالترخيصات، والتفاخر بالنوادر والطرائف حتى ابتعدوا عن أصول أشياخهم، واستوى لديهم مذهب انحاز عن مذهب اسلافهم عُرِف بمذهب البغداديين»(٥٥).

وخلاصة الاسس المذهبية للاندلسيين عنده هي أنّهم: «أطالوا النظر فيه ـ اي فيما أصّله العراقيون وما فرّعوه ـ ووقفوا على ما بين تلك المذاهب من خلاف ووفاق، وما يستند اليه كل فريق من رواية ودراية، فشقوا لهم طريقا سويا كان عمودهم فيه مذهب البصرية»(٥٦).

وليس فيما تحدث به عنهما ما يصلح ان يكون اساسا مذهبيا، أو سمة أسلوبيّة بآية أنّه لاحظ ان المذهب البصري عمود الاندلسيين في الطريق التي شقوها في دراستهم اللغة والنحو. وأية مزية بقيت للدرس النحوي في الاندلس اذا كان عمودهم هو مذهب البصريين؟!

أما ما كان يشير اليه من مخالفة الاندلسيين للبصريين فمرده وجهة نظر خاصة لا تُخرِج صاحبها من حدود المذهب الذي ينتسب اليه، كما لم تخرج الفراء من حدود الدائرة البغدادية الكوفية مخالفته للكسائي مثلا، ولا أخرجت المبرد من حدود المذهب الذي ينتسب اليه مخالفته سيبويه، ونقضه كثيرا من آرائه.

ومحمد الطنطاوي في كتابه: (نشأة النحو وتاريخ أشهر النحاة)، فقد عرض لطوائف النحاة الاربع التي سبق لطه الراوي أن عرض لها، وكان

---

(٥٥) نظرات في اللغة والنحو ٩.

(٥٦) نظرات في اللغة والنحو ١٠.

موقفه من المذهب البغدادي والمذهب الاندلسي كموقفه، واعتلاله لوجودهما كاعتلاله الا زيادات لا غَناء فيها. وكل ما علل به لمذهب الاندلسيين هو «أنهم عدلوا عن بعض آراء المشارقة في النحو، وخالفوهم في منهاج تعليمه وتدوينه، واستدركوا عليهم مسائل فاتتهم، وبذلك استحدثوا مذهبا رابعا عرف بمذهب المغاربة او الاندلسيين»[٥٧].

ان هذا الخلاف الذي أشار اليه لا يمسّ الاسس، ولا يخرج عن الخطّ العامّ للمذهب، ولذلك لا يصلح أنْ يكون أساسا مذهبيّا يقوم عليه استحداث مذهب رابع، لان الخلاف قد يقع بين اتباع المذهب الواحد، كما بينّا غير مرة.

فما قدمه الدارسان الفاضلان لتقرير فكرة تعدد المذاهب في اذهان الدارسين انما هو محض افتراض ما زال يفتقر الى الدلائل والشواهد، ولم يفلحا في تقديم هذه الدلائل بما عرضاه من حديث لا يقتصر على الاندلسيين او من سمياهم بالبغداديين وحدهم ولكنّه يصدق على رجال المذهبين الرئيسين الذين تناولوا اصول أشياخهم بالتعديل، او ناقشوا اساتيذهم في هذه المسائل او تلك.

والدكتور شوقي ضيف في كتابه (المدارس النحوية)، فقد عقد فيه فصلا خاصا بالمدرسة الاندلسية هو الفصل الثاني من القسم الثالث، وعرض فيه للدارسين الذين اشتغلوا في النحو، مبتدئا بجودي بن عثمان الذي كان ممثلا لمذهب الكوفيين في الاندلس، ثم عرض لاول نحوي على المذهب البصري وهو الافشنيق، وللنحاة الذين اقتدوا به في نزوعه الى البصريين ثم تلا هؤلاء نحاة زعم الدكتور ضيف انهم عكفوا على مدارسة كتاب سيبويه، وكتب البصريين والكوفيين، وذكر منهم ابا بكر الزبيدي، وابا بكر بن القوطية صاحب كتاب (الافعال)، حتى اذا وصل في حديثه الى

---

(٥٧) نشأة النحو ١٨٩.

ابن سيدة (توفي سنة ٤٥٨ هـ) وما اعتمده في عمل كتابه (المحكم) من مصنفات النحويين المتأخرين ظن أن ملاكه الذي اعتمده في تصنيف المذاهب النحوية قد استقام له، فقال: «اننا لا نصل الى ابن سيدة حتى ينغمس نحاة الاندلس في النحو البغدادي بجانب انغماسهم في النحو البصري والكوفي، ويكون ذلك ايذانا بان تتضح شخصيتهم في النحو ودراساته، فقد تعمقوا مصنفاته على مر العصور، وتعمقوا اتجاهاته»[٥٨].

ثم عقد عنوانا لجماعة من الدارسين تابعوا ابن سيدة في تعمقه المذهب البغدادي وساروا في اتجاه المدرسة البغدادية وفي مقدمتهم: الاعلم الشنتمري الذي رأى الدكتور ضيف أنّه «اول من نهج لنحاة الاندلس هذا الاتجاه»[٥٩] وسلك في هذه الجماعة كثيرا من النحاة الذين مر بنا ذكرهم، وجعل فيهم ابن مضاء القرطبي، واتبعه بابن مالك. ثم اتبع هذه الجماعة بجماعة أخرى زعم انهم يمثلون اتجاها خاصا ختمهم بابي حيان الاندلسي المتوفى سنة ٧٤٥ للهجرة.

فاذا اعدنا النظر فيما قال في هذا الفصل رأيناه يصنف النحاة الاندلسيين، كما صنف النحاة في المشرق الى بصريين وكوفيين وبغداديين، ولم يذكر من مزايا هذه الطائفة اكثر مما ذكر من مزايا النحاة المشارقة الذين خلطوا المذهبين وسمّاهم بالبغداديين، ولم يشر الى خصائص مذهبية للاندلسيين البغداديين، أو الذين ساروا في اتجاه المدرسة البغدادية، نابعة عن درس اندلسي مستقل لا يمت الى المذاهب المشرقية بصلة، مما يدل دلالة واضحة ان مؤلف (المدارس النحوية) ليس لديه فكرة واضحة عن مزايا مذهب أندلسي، وأن له شغفا خاصا بتكثير اسماء المدارس دون ان يُعنى بتلمّس الخطوط المذهبية العامة لهذه المذاهب المتعددة او رسم صورة ولو باهتة لكل مذهب على حدة، ولعل له في ذلك عذرا لانه ليس لهذه

---

(٥٨) المدارس النحوية ٢٩٢.

(٥٩) المدارس النحوية ٢٩٣.

المدارس واقع علمي ملموس باستثناء المذهبين الرئيسين البصري والبغدادي الذي سمي بالكوفي مؤخرا.

كل ما قاله في تحديد طريقة الاندلسيين هو أن نحاتها كانوا يخالطون جميع النحاة السابقين من بصريين وكوفيين وبغداديين، وينتهجون نهج البغداديين «من الاختيار من آراء نحاة الكوفة والبصرة، ويضيفون الى ذلك اختيارات من اراء البغداديين، وخصوصاً أبا علي (كذا) الفارسي وابن جني، ولا يكتفون بذلك بل يسيرون في اتجاههم -يعني البغداديين- من كثرة التعليلات والنفوذ الى بعض الاراء الجديدة»[٦٠].

ولكن ما الجديد في هذا؟ وهل يعني اختيارهم من اراء البغداديين انهم اضافوا الى المذهب البغدادي ما ليس فيه؟ الا يدل هذا على ان مؤلف (المدارس النحوية) يتشبث بالوهم في اقناع الدارسين بوجود مدرسة اندلسية، او بوجود مدارس نحوية غير مدرسة البصرة ومدرسة الكوفة؟!

واين تقع مدرسة الاندلس النحوية اذا كان قدماء النحاة فيها كوفيين او بصريين، والمتأخرون منهم بغداديين او سائرين في اتّجاه المدرسة البغدادية؟

(٦٠) المدارس النحوية ٢٩٢، ٢٩٣.

شيوع البغدادية وتأريخها

تردد اسم البغداديين في مؤلفات المحدثين، وهم يريدون بهم جماعة من الدارسين يمثلون مذهبا خاصا لا هو بالبصري ولا هو بالكوفي وانما هو مذهب يقوم على الانتخاب من كلا المذهبين. وقد نشأ هذا المذهب من تلاقي المذهبين القديمين في بغداد، ونهض به دارسون تلمذوا لابي العباس ثعلب ممثل الكوفيين ولابي العباس المبرد ممثل البصريين.

ويبدو ان المحدثين كانوا يصدرون عما جاء في فهرست ابن النديم اذ أرّخ للدرس النحوي واللغوي وللنحاة واللغويين في المقالة الثانية، وكان قد قسمها الى ثلاثة فنون:

تكلم في الفن الاول في النحو واخبار النحويين واللغويين البصريين بادئا بأبي الاسود الدؤلي، ومنتهيا بأبي علي الفارسي.

وتكلم في الفن الثاني في النحو الكوفي وأخبار النحويين واللغويين الكوفيين، بادئا بأبي جعفر الرواسي، ومنتهيا بأبي عمر الزاهد.

وتكلم في الفن الثالث في اخبار النحويين واللغويين ممن خلط المذهبين، وذكر منهم: ابن قتيبة، وابا حنيفة الدينوري، وابا موسى الحامض وابا القاسم الزجاجي وابا الحسن بن كيسان وابا عبدالله نفطويه، وابا الحسن علي بن سليمان الاخفش الصغير.

ويدل على أن المحدثين كانوا يصدرون عما جاء في الفهرست انهم كانوا يقيمون المذهب الجديد على اساس الاختيار والانتخاب من كلا المذهبين القديمين، وهو الذي كان ابن النديم يُعبّر عنه بخلط المذهبين.

فقد جاء في (ضحى الاسلام)، بعد استعراض رجال المدرستين والتقاء المبرد وثعلب في بغداد: «ومع هذا فقد كان التقاء الكوفيين والبصريين في بغداد سبباً في عرض المذهبين ونقدهما والانتخاب منهما، ووجود مذهب منتخب كان من ممثليه ابن قتيبة، قال ابن النديم: كان ابن قتيبة يغلو في البصريين، الا انه خلط المذهبين، وحكى في كتبه عن الكوفيين، ومثله في ذلك ابو حنيفة الدينوري فقد أخذ عن البصريين والكوفيين جميعا»[1].

لم يذكر مؤلف ضحى الاسلام دارسين غيرهما من نحاة حقيقيين سبق لابن النديم وغيره أن زعموا أنهم خلطوا المذهبين كابن كيسان وابن الخياط وابن شقير وغيرهم، وكان ينبغي لمن يرسل الكلام ارسالًا أن يُعزّزه بأمثلة اخرى غير ابن قتيبة وابي حنيفة، واذا كان ابن النديم جعلهما فيمن خلط المذهبين، فانه لم يورط نفسه فيزعم ان هناك مذهبا منتخبا من المذهبين، كما فعل مؤلف (ضحى الاسلام) وكان جديرا بمؤلف ضحى الاسلام أن يختار نماذجه من دارسين آخرين لهم مشاركة جادة في الدرس النحوي، ولهم اراء وأقوال تتناقلها كتب النحو، ولكنه لم يفعل، بل لقد اغفل ذكرهم اغفالا يوحي بأنه لم يكن هو الذي استنتج من ابن النديم فكرة هذا المذهب المنتخب، ولكنه اقتبسه من دارسين محدثين آخرين سبقوه، لان التمثيل بابن قتيبة وأبي حنيفة على مالهما من مكانة في العلم لا يرسم للمذهب الثالث المزعوم صورة ولو كانت باهتة.

وبمتابعة البحث نجد ان هذه الفكرة كانت من عمل مستشرقين كانوا قد توفروا على دراسة العربية، وعلى تحقيق كتب عربية، وتناولوا بالدرس موضوعات نحوية ولغوية.

---

(١) ضحى الاسلام ٢/٢٩٨ الطبعة الثانية.

من هؤلاء المستشرقين ثلاثة من الاعلام الذين عرفت لهم اعمال تتصل بالدرس النحوي وتاريخ النحاة، وهؤلاء هم:

فلوجل Flügel المتوفى سنة ١٨٧٠ للميلاد، الذي نشر فهرست ابن النديم، وكتب بحثا في المدارس النحوية عام ١٨٦٢ للميلاد.

وبروكلمان في كتابه (تاريخ الادب العربي).

وگوتولدڤايل ناشر كتاب الانصاف في مسائل الخلاف لابي البركات الانباري، وكان قد انتهى من تحقيقه عام ١٩١٢ للميلاد، وطبعه في ليدن عام ١٩١٣ للميلاد.

لقد تناول هؤلاء الاعلام بالدرس تاريخ النحو والنحاة، وحاولوا ان يقدموا للدارسين صورة عن واقع المذهبين النحويين، وعن رجال كل منهما، ثم تناولوا بالدرس التقاء المذهبين في بغداد، وما تمخّض عنه هذا الالتقاء من تفاعل وتجاذب.

اما فكرة المدرسة الثالثة، او مدرسة بغداد فقد تبنّاها الأولان، فلوجل وبروكلمان، وكان الرائد في ذلك هو (فلوجل). فقد نشر كتابا عن مدارس النحو اسمه: Die Grammer Schulen أشار اليه بروكلمان في كتابه «تاريخ الادب العربيّ»[٢] وڤايل في مقدمته التي قدم بها لكتاب الانصاف.

وقد تابعه بروكلمان في (تاريخ الادب العربي)، فقد عرض للمدارس النحوية في الباب الرابع الذي عقده لدراسة علم العربية، وذكر مدرسة البصرة ورجالها[٣] ومدرسة الكوفة ورجالها[٤]، ثم مدرسة بغداد ورجالها[٥].

---

(٢) تاريخ الادب العربي ٢/٢٢٢ الهامش، ٢/٢٣٥ الطبعة العربية.

(٣) بروكلمان ٢/١٢٨ - ١٩٥.

(٤) بروكلمان ٢/١٩٦ - ٢٢٠.

(٥) بروكلمان ٢/٢٢١ - ٢٥٦.

لم اقف على ما كتبه فلوجل ولكن يبدو من عنوان كتابه انه عرض للمدارس النحوية متجاوزا مدرسة البصرة ومدرسة الكوفة الى مدرسة او مدارس اخرى، لعل منها مدرسة بغداد، لأن اشارة بروكلمان الى ما كتبه فلوجل عن ابن قتيبة توحي بانه كان قد تناول ما تناوله الدارسون من بعده اعني مدرسة نحوية ثالثة من ممثليها ابن قتيبة وليست (المدرسة) التي يمثلها ابن قتيبة في أذهان الدارسين المحدثين غير مدرسة بغداد، ويغلب على الظن ان فكرة المذهب الثالث او مدرسة بغداد مستوحاة من ابن النديم في فهرسته الذي حققه ونشره فلوجل.

اما بروكلمان فقد عرض لمدرسة البصرة ومدرسة الكوفة ومدرسة بغداد مستوحيا هذا من ابن النديم ايضا. قال بروكلمان: «حقا بقي كثير من العلماء الذين اجتذبتهم عاصمة الخلافة اليها شديدي التمسك والتعصب لمأثورات مدارسهم الأصلية، ولكن الجيل الذي تلا هؤلاء، والذي تهيأت له فرصة الاستماع الى ممثلي كلتا المدرستين لم يلق كبير اهتمام للخلافات القديمة، بل عمد الى انتخاب مزايا كلتا المدرستين، وتوحيد هذه المزايا في مذهب جديد مختار»، ثم قال: «وطبيعي ان هذا المذهب المختار كان متدرج النمو والاكتمال، حتى انّ عددا ممن ذكرناهم ومن سنذكرهم بعد من العلماء يمكن الشك في تحديد المدرسة التي ينتمون اليها، لاسيما اذا كنا لا نستطيع ان نصدر حكما على آرائهم النحوية الا بمشقّة وعسر، وأيّاً ما كان الأمر فان علينا ان نطمئن الى الاستناد على رواية ابن النديم في الفهرست، واذن نعُدّ، مع صاحب الفهرست، أول ممثل لمدرسة بغداد رجلا تجاوزت شهرته حقا دائرة النحو والعربية، ولكنه هو نفسه أراد ان ينظر الى دراساته اللغوية على انها نواة نتاجه الأدبي عامة، ذلك هو ابو محمد عبدالله بن مسلم بن قتيبة»[٦].

ثم اخذ بروكلمان يتحدث عن ابن قتيبة وعن مصنفاته وما يتصل به

---

(٦) بروكلمان ٢/٢٢١.

وبها من اخبار، ولكنه لم يفعل شيئا لتأييد وجهة نظره في تمثيل ابن قتيبة المذهب الجديد المختار، مكتفيا بما استوحاه هو واستوحاه فلوجل من قبل مما كتبه ابن النديم في الفهرست.

فاذا وازنا بين ما كتبه بروكلمان، وما كتبه مؤلف ضحى الاسلام عن مدرسة بغداد رأينا ان ما عرضه مؤلف ضحى الاسلام من وجود مذهب منتخب لا يختلف في كثير ولا قليل عمّا زعمه بروكلمان، ورأينا الرجلين يتفقان في عرض الفكرة عبارة ومأخذاً وتمثيلا. ويغلب على الظن ان بروكلمان كان متابعا فلوجل فيما ذهب اليه، بالرغم من انه القى تبعة ما عرضه من فكرة مدرسة بغداد على رواية ابن النديم في الفهرست.

يقوي هذا الظن ان بروكلمان لم يكن يعرف من مدرسة الكوفة ورجالها ما يمكنه من رسم صورة مكتملة لها، لان «اوائل النحو والدراسات العربية غامضة في الكوفة حاضرة العراق الثانية، على حد تعبيره، وذلك لقلة ما يعرفه «عن نمو هذه المدرسة لقلة ما بقي من مصنفات الكوفيين»، ولان «اخبار المتأخرين عن الخلاف بين المدرستين قليلة الانصاف للمدرسة الكوفية، لان المتأخرين فضلوا المذهب الرسمي النظري الذي تم له الانتصار، وهو مذهب البصريين»[٧].

والدارس الذي لم يكوّن لنفسه فكرة واضحة عن حقيقة الدرس الكوفي، ولا تهيأت لديه الخطوط التي يستطيع بها ان يرسم صورة مكتملة لمدرسة الكوفة، ولا وصل اليه من مصنفات الكوفيين الا القليل، لا يستطيع ان يكوّن لنفسه رأيا عن المدرسة الثالثة التي نشأت في زعمه عن الجيل الذي تلمذ للمدرستين، وتهيأت له فرصة الاستماع الى ممثليهما، ثم عمد الى انتخاب مزايا كلتا المدرستين وتوحيدها في مذهب مختار. وكيف يكوّن لنفسه فكرة واضحة عن نشوء مدرسة بغداد التي نشأت عن توحيد

---

(٧) تاريخ الادب العربي - بروكلمان ٢/١٩٦ الطبعة العربيه.

مزايا كلتا المدرستين اذا لم تتبين له مزايا مدرسة الكوفة! وكيف يرسم صورة للمدرسة الجديدة، وبعض خطوط الصورة تستند نظريا الى مزايا مدرسة الكوفة التي لم يكوّن لنفسه رأيا فيها لقلة ما يعرفه عن الدرس الكوفي، ومصنفات الكوفيين.

والنتيجة المترتبة على هذا هي سكوته عن تطبيق نظريته على ابرز ممثليها وهو ابن قتيبة، وغفاله حتى الاشارة الى ذلك في اثناء كلامه على شخصية ابن قتيبة العلمية، ومصنفاته وآثاره.

ومن الواضح ان بروكلمان في عرضه فكرة الانتخاب انما كان متابعا فلوجل الذي كان فيما يبدو، وفيما اشار اليه (ڤايل) هو صاحب الفكرة الاولى، وان لم تستو عنده نظريا الا بعد جهد جاهد، وعناء كبير في التوفيق بين الروايات المتضاربة عن حقيقة الاتجاه الذي سلكه ممثلو المذهب الجديد في دراستهم اللغوية والنحوية.

واماگوتولدڤايل فكان معنيا بكتاب «الانصاف في مسائل الخلاف» لابي البركات الأنباري، وقد حققه ونشره وقدم له، وكان يعالج مسائل الخلاف معالجة سليمة، ويطيل الوقوف عندها ليلم باراء البصريين وآراء الكوفيين، ويعرف حقيقة الخلاف، ليكوّن لنفسه رأيا في هذه المسائل التي لم يعرض لها مثل هذا العرض دارس محايد يتوخى الانصاف حقا، ولكنه دارس متعصب شديد النكير على خصومه.

وكان ابو البركات قد جمع في كتابه هذا احدى وعشرين مسألة ومئة مسألة، وهي عنده اهم ما اختلف فيه، وكان يقول في مقدمته: «اعتمدت في النصرة على ما اذهب اليه من مذهب اهل الكوفة او البصرة على سبيل الانصاف لا التعصب والاسراف».

وكان أبو البركات يعرض في كتابه احتجاجات مفتعلة زعم انها احتجاجات الكوفيين، وقد يرجع القهقرى فيلقيها على لسان الكسائي

والفراء وتلاميذهما واصحابهما، ويبحث الدارس فيما وصل اليه من كتب المتقدمين منهم فلا يجد فيها ما زعمه أبو البركات، ويظل الدارس يسأل عن مصدر هذه الاحتجاجات ولا يتلقى جوابا لانها من صنع المتأخرين، وانها من صنع بصريين متأخرين كانوا قد حذقوا النهج البصري النظري، وكان لهم آراء خاصة وافقوا فيها الكوفيين، فراحوا يحتجون لها بالاسلوب البصري النظري الذي حذقوه في مقام الرد على البصريين الذين يخالفونهم في هذه المسائل، او من صنع بعض الكوفيين المتأخرين الذين وجدوا انفسهم مضطرين الى التشبث بمثل ما كان البصريون يتشبثون به، ويصطنعون في المناظرات، وفي الرد على خصومهم مثل ما كان البصريون يصطنعون، لتأييد آرائهم ونصرة مذهبهم.

يؤيد هذا ما قاله ابو بكر بن الخياط لابي القاسم الزجاجي، وقد ذكر هذا له ما جرى بينه وبين أبي بكر بن الانباري، وما كان يحتج به أبو بكر لرأيه: « هذه أشياء يولدها من عنده على مذاهب القوم ليست محكية عن الفراء، ولا موجودة في كتبه، ولكنها مما يرى أنها تؤيد المذهب وتنصره »[8].

وقف (ڤايل) على هذا، واطال النظر في صنيع ابي البركات، وخرج من معاناته المشكلة التي وجد نفسه في غمرتها بتفسير لا يبعد كثيرا عمّا عرضنا هنا. قال (ڤايل): انَّ « من الممكن اثبات أنّ الدعاوى التي نسبت الى الكوفيين، والادلة عليها في كثير من المسائل لم يقل بها الفراء، ولا اصحابه بل هي صادرة عن الاخفش والمبرد، ولا يمكن الاعتماد في ذلك على ابن الانباري الذي كان كلّ اهتمامه هو تصوير تناقض الاسس والمبادىء، واذا كان ـأحياناـ يذكر اسماء هاتين الفرقتين النحويتين فانه من ناحية اخرى كثيرا ما يذكر الاراء مجردة عن أصحابها على أنها كوفية، ومن هنا لا يجوز أخذ مسائل الخلاف المئة والاحدى والعشرين

(٨) الايضاح للزجاجي ٦٣.

على انها مسائل خلافية صحيحة قديمة تمثل اختلاف اراء سيبويه والفرّاء بوجه خاص »[٩].

اما رأي قايل فيما ذهب اليه فلوجل وبروكلمان فخلاصته الشك في وجود مدرسة جديدة قامت على اساس الانتخاب من مزايا كلتا المدرستين، لانه -وان كان يرى أن لتسمية تلاميذ المبرد وثعلب بالبغداديين وجها من الحق- كان يرى أن البغداديين لم يكونوا ليمثلوا مدرسة ذات اتجاه خاص اساسه المزج او الاختيار ولكنهم يمثلون دراسة في دائرة النحو البصري « واذا كان البغداديون في المواضع القليلة التي يرد ذكرهم فيها عند النحاة يمثلون رأي الكوفيين فلا يجوز أن يضلّلنا ذلك عن حقيقة امرهم، لانه انما يذكر رأيهم الخاص في الاحوال التي يخالفون فيها اراء البصريين العامة »[١٠].

ثم جاء الدارسون المعاصرون فأخذوا ما جاء في (ضحى الاسلام) على انه قضية مُسلَّم بها، وواقع مفروغ من سلامته، وراحوا يتشبّثون بما صوّر لهم فيه، ويتوسعون في تطبيقه، واتخذوا من محض خلط المذهبين على حد تعبير ابن النديم، والرواية عن الفريقين سبيلاً الى الزعم بوجود مذهب ثالث، أو مدرسة ثالثة.

وإذا كانت مقالة ابن النديم منطلق الزاعمين بوجود مذهب ثالث قام على الانتخاب من المذهبين فان ابن النديم لم يشر الى الذين خلطوا المذهبين على أنهم كانوا ذوي نهج جديد في تناولهم موضوعات الدرس، أو كان لهم اسلوب في الدرس النحوي يختلف عن أسلوب البصريين، أو اسلوب الكوفيين، وكل ما فعله ابن النديم أنه جعل تلاميذ المبرد وثعلب جماعة ثالثة من الدارسين على أساس انهم تلمذوا لممثلي المذهبين، وأخذوا عنهما

---

(٩) مقدمة كتاب الانصاف في مسائل الخلاف.
(١٠) مقدمة كتاب الانصاف في مسائل الخلاف.

جميعاً، ولم يقتصروا على الاخذ من احدهما فقط، كما كان المبرد وشيوخه، وثعلب وشيوخه يفعلون.

أما كتّاب الطبقات الاخرون فلهم تصنيف آخر يختلف عما جاء في فهرست ابن النديم، مما يدل على أن ما فهمه المحدثون من تصنيف ابن النديم، ومن وجود جيل كان ينهج منهجاً يقوم على الانتخاب لم يكن القدماء يعنونه حين يعرضون للبغداديين أو يرددون اسم البغداديين.

فابو الطيب اللغوي (ت ٣٥١ هـ) في «مراتب النحويين» كان قد صنف اللغويين والنحويين طبقات، وكان يسلك في هذا التصنيف أسلوباً يختلف عن سائر المصنفات في الطبقات. كان يعرض لاعلام طبقة من اللغويين والنحويين البصريين، ثم يعرض لمن يعاصرهم من اللغويين والنحويين الكوفيين، ويتناولهم بالدرس في طبقة ايضاً، ثم يعود الى البصريين فيعرض للطبقة الاخرى منهم فإذا انتهى من ذكر اعلامها عاد الى الكوفيين المعاصرين، وتناولهم بالدرس في طبقة اخرى أيضاً، الى أن ينتهي الى الطبقة الاخيرة من البصريين فينعطف الى ما يعاصرها في الكوفة في آخر طبقة أيضاً.

بدأ أبو الطيب بالنحاة البصريين، لان النحو انما نشأ ونما في البصرة، وكانت الطبقة الاولى من البصريين هي: طبقة أبي الاسود الدؤلي وتلاميذه: عطاء بن أبي الاسود ويحيى بن يعمر وميمون الاقرن وعنبسة الفيل، ولم يكن في الكوفة طبقة بازائها.

وكانت الطبقة الثانية هي طبقة عبدالله بن أبي اسحاق وأبي عمرو بن العلاء وعيسى بن عمر، ولم يكن في الكوفة طبقة للكوفيين بازائها ايضاً.

وكانت الطبقة الثالثة هي طبقة يونس بن حبيب وأبي الخطاب الاخفش اللذين أخذا عن أبي عمرو بن العلاء. وبازاء هذه الطبقة كانت الطبقة الاولى من الكوفيين، وفيها: أبو جعفر الرواسي الذي أخذ عن أبي عمرو،

ولكنه لم يكن نظيراً لمن هو بازائه من البصريين، ولا قريباً منهم، وقد أيّد هذا بما حكاه عن أبي حاتم السجستاني، فقد كان أبو حاتم يقول: «كان بالكوفة نحوي يقال له: أبو جعفر الرواسي، وهو مطروح العلم ليس بشيء»[11]. وعاصم بن أبي النَّجود وقيل: انه كان نحوياً، وعقّب أبو الطيب على ما قيل بقوله: «فلعل ذلك كان يسيراً من جليل النحو فلم يذكر قوله ولم يحفظ»[12]. وحمزة بن حبيب الزيات، ويرى أبو الطيب أنّ الكوفيين هم الذين كانوا يرونه اماماً «أما عند البصريين فلا قدْر له»[13]. واذ وصل أبو الطيب الى هذا قال: «والذين ذكرنا من الكوفيين فهم أئمتهم في وقتهم، وقد بيّنّا منزلتهم عند أهل البصرة فأما الذين ذكرنا من علماء البصرة فرؤساء علماء معظمون غير مدافعين في المصرين جميعاً... ولم يكن فيَ الكوفة ولا في مصر من الامصار مثل أصغرهم في العلم بالعربية»[14].

وكانت الطبقة الرابعة هي طبقة الخليل بن أحمدَ صاحب الاحداثات والاختراعات الذي «لم يكن قبله ولا بعده مثله»[15] والذي «لم يكـن في علماء البصريين من قُطِع عليه انه منقطع القرين» مثله[16]. وجعل أبو الطيب معه ثلاثة من اعلام البصريين هم: أبو زيد الانصاري وأبو عبيدة والاصمعي، ثم تلاميذ الخليل والمذكور منهم هنا: سيبويه وحماد بن سلمة والنضر بن شميل وأبو محمد اليزيدي والمؤرّخ السَّدوسيّ وعليّ بن نصر الجهضمي. ثم تلاميذ يونس بن حبيب، محمد بن المستنير المعروف بقطـرب ومحمد بن سلام الجُمَحيّ.

---

(١١) مراتب النحويين ٢٤.
(١٢) المصدر نفسه.
(١٣) المصدر نفسه.
(١٤) مراتب النحويين ٢٦.
(١٥) نفسه ٢٧.
(١٦) نفسه ٣٧.

وإذا انتهى من ذكر أعلام البصريين في هذه الطبقة انعطف ليذكر مَنْ كان بازائهم من الكوفيين، فذكر المفضّل الضبّيّ عالم أهل الكوفة بالشعر. واوثق من بالكوفة في روايته كما حكى عن أبي حاتم[١٧]. وذكر معه حماد الزاوية وآخرين. ثم ذكر الكسائي ولم يذكر بعده أحداً من الكوفيين.

وكانت الطبقة الخامسة من البصريين هي طبقة التوَّزى والخِرمازي والجرمي والزيادي والرياشي، ثم ذكر أبا حاتم سهل بن محمد السجستانيّ ثم أبا عثمان المازني وابن أخي الاصمعي وأحمد بن حاتم الباهليّ، ثم أبا العباس المبرد محمد بن يزيد، ثم تلاميذ المبرد: الزجاج وابن السراج ومبرمان، ثم تلاميذ أبي حاتم، ابن دريد وابن قتيبة، وكان هؤلاء خاتمة هذه الطبقة.. وكانت هذه الطبقة خاتمة الطبقات البصرية.

ثم عرّج على الكوفيين فعرض لمن كان منهم بازاء هذه الطبقة، فذكر الفراء وعلي بن المبارك الأحمر وعلي بن حازم اللحياني وأبا عمرو الشيباني، ومحمد بن زياد الاعرابي، والقاسم بن سلام صاحب (الغريب المصنّف) وسَلَمَة بن عاصم راوية الفراء وناقل علمه، ويعقوب بن السّكّيت، وأحمد بن يحيى ثعلب. ثم المفضل بن سَلَمة الذي أخذ عن ابن السكيتُ وثعلب، والذي وصفه أبو الطيب بالمخلّط المتعصب، ثم القاسم الانباري والد أبي بكر بن الانباري. وبثعلب وابن السّكّيت تختتم هذه الطبقة.

ورأى أبو الطيب اللغوي أن العلم انتهى الى هؤلاء من أهل المصرين «ولا علم للعرب الّا في هاتين المدينتين»[١٨].

ثم أخذ أبو الطيب يستعرض الامصار الاخرى، فذكر المدينة، ونفى أن يكون بها امام في العربية، والذين ذكرهم من رجالها هم:

عيسى بن يزيد المعروف بابن دأب، واتهمه بوضع الشعر واحاديث

---

(١٧) نفسه ٧١.

(١٨) مراتب النحويين ٩٨.

السمر، والشرقيّ بن القطاميّ، ووصفه بالكذاب، وعليّ الجَمَل ونسب اليه كتاباً في النحو قال: انّه لم يكن شيئاً.

وذكر مكة، ونفي ان يكون بها امام ايضاً الّا رجل مـن الموالي يدعىَ ابن قسطنطين، وكان يشدو شيئاً من النحو ولكنه قدم الى البصرة وسمع النـ فطرح ما كان صنف فيه، ثم وضع شيئاً، على حد تعبير أبي الطيب.

وذكر بغداد فوصفها بأنها مدينة ملك لا مدينة علم، وأن أهلها ـحاكياً عن أبي حاتم ـ «حشو عسكر الخليفة، لم يكن بها من يوثق به في كلام العرب، ولا من ترتضي روايته، فان ادّعى أحد منهم شيئاً رأيته مخلّطاً صاحب تطويل وكثرة كلام ومكابرة»[١٩].

ولم يواصل أبو الطيب تطوافه في بغداد في اثناء العصر الذي ولى عصر المبرد وثعلب، ولم يشر الى رجال الجيل الذي نتحدث عنه، فلم يعرض لتلاميذ ثعلب والمبرد ممن خلط المذهبين، كما فعل ابن النديم، ولم يذكر من تلاميذ المبرد الذين لازموه ولازموا مذهب البصريين كالزجاج وابن السراج ومبرمان.

ولعل أبا الطيّب كان ينظر الى تلاميذهما الذين أخذوا عنهما أنهم مخلّطون أصحاب تطويل وكثرة كلام، ولم ير فيهم أحداً يقف بازاء من ترجم لهم من أعلام المصرين.

ويغلب على الظن أنّ أبا الطيب كان قد وهم فلم يفهم ما كان يعنيه أبو حاتم، وظن أن كلامه كان موجّهاً الى الجيل الذي أعقب جيل المبرد وثعلب، ولا أظن أبا حاتم كان يعني ما ظن أبو الطيب أنه كان يعنيه، لان أبا حاتم المتوفى سنة ٢٥٥ للهجرة حين وصف البغداديين بأنهم حشو عسكر الخليفة انما كان يغمز الكسائي وتلاميذه، والفرّاء وتلاميذه، ولعل أبا حاتم لم ير أحداً من تلاميذ المبرد وثعلب الذين كانوا يخلطون المذهبين

(١٩) مراتب النحويين ١٠١.

بالاخذ عنهما، او لم يسمع بأحد منهم.

ولا أريد هنا مناقشة أبي الطيب في اهمال الدارسين الذين خلطوا المذهبين، وهم الجيل الذي أخذ عن أبي العباس المبرد، وأبي العباس ثعلب. ولكني أريد القول إنّ أبا الطيب كان قد عاصر كثيراً من اولئك الذين قيل انّهم خلطوا المذهبين، ولكنه لم يشر اليهم على انهم فريق يُعتدّ به، نهج في الدرس اللغويّ والنحوي نهجاً جديداً، كما اراد المحدثون أن يفهموا من مقالة ابن النديم في الفن الثالث من المقالة الثانية الذي عقده للجماعة التي خلطت المذهبين.

وأبو بكر الزبيدي (ت ٣٧٩ هـ) كان قد ترجم للنحويين قدمائهم والمتأخرين منهم، مستعرضاً الاقطار الاسلامية، ومراكز الثقافة من أمصارها، متتبعاً مسيرة علم العربية مذ بدؤه الى الوقت الذي عاش فيه.

وقد صنّف علماء العربية صنفين؛ نحويين ولغويين، وقد بدأ بالنحويين ثم أعقبهم باللغويين، فعل ذلك في كل مصر على حدة، وقدم البصريين من كلا الصنفين «لتقدمهم في علم العربية، وسبقهم الى التأليف فيها»[٢٠]. وصنفهم في طبقات:

طبقة أبي الاسود الدؤلي، وطبقة نصر بن عاصم الليثي، وطبقة ابن أبي عقرب، وممن فيها: عبدالله بن أبي اسحاق الحضرمي، وطبقة أبي عمرو بن العلاء، وممن فيها: أبو الخطاب عبد الحميد بن عبد المجيد المعروف بالأخفش الكبير، وعيسى بن عمر. وطبقة الخليل بن أحمد وذكر فيمن ذكر حماد بن سَلَمة ويونس بن حبيب. وطبقة النضر بن شميل، وذكر فيمن ذكر فيها: سيبويه والأخفش سعيد بن مسعدة والجرمي. وطبقة أبي عثمان المازني، وممن كان فيها أبو حاتم السجستانيّ والرياشي وقطرب. وطبقة أبي العباس المبرد وطبقة أصحاب المبرد، وذكر منهم الزجاج وابن

(٢٠) طبقات النحويين ١٠.

السراج ومبرمان وابن درستويه، وعلي بن سليان الاخفش الصغير الذي عده ابن النديم فيمن خلط المذهبين، وأبا بكر بن شقير، وأبا بكر بن الخياط اللذين عدهما السيرافي وابن النديم فيمن خلط المذهبين. وطبقة أصحاب الزّجّاج، وفيها أبو القاسم الزجاجيّ الذي عدّه ابن النديم فيمن خلط المذهبين، وأصحاب السراج وفيهم السيرافيّ والرماني والفارسيّ، وأصحاب علي بن سليان الأخفش، وأصحاب ابن درستويه.

هؤلاء هم البصريون في تصنيف الزبيديّ، بُدِئوا بأبي الأسود وخُتِموا بتلاميذ المبرد وتلاميذ تلاميذه، ومنهم من كان قد تلمذ لأبي العباس ثعلب كأبي بكر بن شقير، وأبي بكر بن الخياط، وأبي الحسن علي بن سليان المعروف بالأخفش الصغير.

ثمّ عرج على الكوفة وتتبع مسيرة الدرس النحوي فيها، وصنفها طبقات أيضاً كما فعل في النحاة البصريين، وكانت الطبقات الكوفية عنده: طبقة الرواسي وممن فيها: معاذ الهراء. وطبقة الكسائيّ، وطبقة الفراء، وممن فيها القاسم بن معن وعلي بن المبارك الأحمر وهشام بن معاوية، وطبقة أصحاب الفراء سلمة بن عاصم وأبو عبدالله الطوال، ومحمد بن قادم. وطبقة أصحاب سلمة وفيها أبو العباس أحمد بن يحيى ثعلب، وطبقة أصحاب ثعلب وفيها هارون ابن الحائك وأبو موسى الحامض وأبو الحسن بن كيسان وأبو بكر بن الأنباري وأبو عبدالله نفطويه.

هؤلاء هم النحاة الكوفيون في تصنيف الزبيديّ، بدئوا بأبي جعفر الرواسي، وختموا بأصحاب ثعلب. وكان من أصحاب ثعلب الذين ينتمون الى الكوفيين عند الزبيديّ من كان ابن النديم يعدهم فيمن خلط المذهبين، لأنهم أخذوا عن المبرد وثعلب، وهم: أبو موسى الحامض، وأبو الحسن بن كيسان وأبو عبدالله نفطويه.

فالزبيديّ اذن لم يكن يرى ما رآه ابن النديم، ولا جعل من تلاميذ

المبرد وثعلب طبقة على حدة سلكت في الدرس النحوي نهجاً جديداً على انتخاب مزايا المذهبين، كما أراد المحدّثون أن يفهموه.

واذ انتهى الزبيديّ الى هذا واصل استعراضه لأعلام الدرس النحوي من غير العراقيين، فتناول بالدرس طبقات النحويين في مصر فذكر فيمن ذكر أبا العباس بن ولاد وأخاه أبا القاسم بن ولاد وأبا جعفر بن النحاس، ثم طبقات النحويين في القرويين. وذكر فيمن ذكر أبا ماللك الطرماح وعياض بن عَوانة بن الحكم، وابراهيم بن قَطَن المهريّ، وأبا عبدالله حمدون بن اسماعيل، وأبا محمد المكفوف وغيرهم، ثم طبقات النحويين واللغويين في الأندلس وبدأهم بأبي موسى الهواريّ، وختمهم بمحمد بن يحيي الرباحي الذي كان الزبيدي واحداً من تلاميذه [٢١].

وأبو عبيدالله المرزباني (ت ٣٨٤ هـ) كان قد ترجم للدارسين في أمصار العراق المعروفة؛ البصرة والكوفة وبغداد، وصنفهم ثلاث جماعات:

الجماعة البصرية، وقد بدأها بأبي الأسود، وختمها بعمر بن شبة، وترجم بينهما لجماعة كبيرة من الدارسين من نحويين ولغَويين وأدباء، ذكر فيمن ذكر منهم الخليل بن أحمد، والاصمعي، وأبا عبيدة، ومحمد بن سلاّم، وأبا عثمان عمرو بن بحر الجاحظ.

والجماعة الكوفية، وقد بدأها بقبيصة بن جابر الأسديّ الكوفيّ أحد فصحاء العرب، وختمها بابن الأعرابي، وترجم بينهما لجماعة كبيرة من الدارسين أيضاً ومنهم قرّاء وشعراء ورواة ولغويون ونحويون أمثال أبي عمرو غامر بن شراحيل الشعبي ومحمد بن السائب الكلبي وحمزة بن حبيب الزيات وحماد الرّاوية والمفضل الضبي والكسائي والفراء.

والجماعة البغدادية، وقد بدأها بأبي عبدالله محمد بن أسحاق بن يسار، وختمها بأبي بكر محمد بن يحيي الصولي، وذكر بينهما جماعة من الدارسين

---

(٢١) انظر في « طبقات النحويين للزبيدي.

يتفاوتون تخصصا ومذهبا أمثال الواقدي وأبي عبيد القاسم بن سلام وابن السكيت وأبي العباس المبرد وأبي العباس ثعلب، وعلي بن سليمان الأخفش وابراهيم بن السريّ الزجاج، ومحمد بن السريّ السراج، وابن دريد، وأبي بكر بن الأنباري[٢٢].

هذا هو تصنيف المرزبانيّ للدارسين في هذه الأمصار الثلاثة، وهو تصنيف مبنيّ على أساس الموطن الذي نشأ فيه كل فريق على حدة أو وفد اليه من مصر آخر، فلم يقصد المرزبانيّ اذ ذكر الجماعة البغدادية الى أن يذكر جماعة من الدارسين جمعهم مذهب معين، وانتظمتهم طريقة معينة، وانما كان يقصد من الدارسين الذين وفدوا الى بغداد وأقاموا فيها. والذين ولدوا ونشئوا فيها، ولذلك ذكر فيهم ثعلبا وابن الانباري من الكوفيين، والمبرد والزجاج وابن السراج من البصريين مع ما بين مذهب الكوفيين ومذهب البصريين من اختلاف، وغير خافٍ أنّ ثعلبا وتلميذه ابن الأنباري كانا من شيوخ النحو الكوفي، وأن المبرد والزجاج وابن السراج وهم بغداديون أيضا كانوا من شيوخ النحو البصري.

وعلى هذا لم يكن المرزباني يشير اذ صنف النحاة الى بصريين وكوفيين وبغداديين: الى أنّ هناك جماعات من الدارسين متفاوتة رأيا ومذهبا، ولم يذهب الى مثل ما زعمه المحدثون من وجود مذهب نحويّ ثالث هو مذهب البغداديين الذين كانوا يخلطون المذهبين.

ومن استعراض هذه المصنفات التي عرضت لطبقات النحاة يبدو لنا واضحا أن القول بوجود مذهب ثالث انما هو ضرب من الوهم جرّهم اليه:

١ ـ ما ذكره ابن النديم في فهرسته.

٢ ـ وشيوع اسم البغداديين بازاء اسم الكوفيين والبصريين.

---

(٢٢) انظر في «نور القبس» للمرزباني.

امّا ما ذكره ابن النديم فلا ينهض دليلا على سلامة مزاعم المحدثين. لان ابن النديم في تصنيفه النحاة واللغويين الى بصريين وكوفيين وجماعة ثالثة خلطت المذهبين لم يكن ليعني ما يعنيه المحدثون، ولم يشر الى أن الدارسين الذين خلطوا المذهبين كانوا قد اتخذوا لهم مذهبا نحويا متميزا يقف بازاء المذهبين.

ويكفي للاقتناع بهذا ان ابن النديم كان قد جعل ابن قتيبة على رأس هؤلاء. وكان ابن قتيبة من الدارسين الذين أقاموا في بغداد وعاصروا أبا العباس ثعلبا، ولكنه لم يأخذ عن ثعلب ولا عن أحد من أصحابه، ولم تذكر كتب الطبقات في شيوخه الذين أخذ عنهم واحدا من الكوفيين، انما كان أخذه عن البصريين، فقد أخذ النحو عن الرياشي. واللغة عن السجستاني، وكلاهما بصريّ عرف بالتعصب لمذهب البصريين على مذهب الكوفيين، ولكن ابن قتيبة، بالرغم من ذلك، كان يحكي في كتبه عن الكسائي والفراء وأصحابها، وكانت حكايته عنهم مطعنا عليه، وكان الدارسون البصريون يحملون عليه ويُضعِّفون كتبه، لأنه ـ فيما كانوا يرون، خلّط فيها بحكايات عن الكوفيين «لم يكن أخذها عن ثقات وكان يتسرّع في أشياء لا يقوم بها، نحو تعرّضه لتأليف كتابه في النحو، وكتابه في «تعبير الرؤيا» وكتابه في «معجزات النبيّ ﷺ وعلى آله» و«عيون الأخبار» و«المعارف» و«الشعراء» ونحو ذلك مما أزرى به عند العلماء، وان كان نفق بها عند العامة ومن لا بصيرة له»[٢٣].

ويغلب على الظن أن ابن النديم وغيره رأوا من ترخّص هذا الجيل في الرواية عن الكوفيين بادرة لم يألفوها من قبل فلم يُعْرَف أحد من علماء أهل البصرة كأن يأخذ عن أحد من علماء الكوفة، أو يحكي عنه غير أبي زيد الأنصاري الذي انفرد بالرواية عنهم والاكثار من الحكاية عنهم، وكان يروي شعر القصائد عن المفضل الضبيّ الكوفيّ، وقد جاء في مقدمة

(٢٣) أبو الطيب اللغوي ـ مراتب النحويين ٨٥ القاهرة.

النوادر أنّه « ما كان فيه من شعر القصيد فهو سماعي من المفضل بن محمد الضبّي، وما كان من اللغات وأبواب الرجز فذلك سماعي من العرب »[٢٤].

أما بعد أبي زيد فكانت حملات البصريين على الكوفيين تحول دون اقدام البصريين على الأخذ عنهم، لانهم في نظرهم « حشو عسكر الخليفة، لم يكن بها من يوثق به في كلام العرب، ولا من يرتضي روايته »[٢٥]. أو « أنّهم كانوا يأخذون اللغة عن أعراب الحطمة الذين كانوا ينزلون في سواد بغداد وريفها[٢٦]، على حين أن البصريين، فيما يزعمون، انما يأخذون اللغة « عن حرشة الضِّباب وأكلة اليرابيع »[٢٧] أي لم يأخذوا الّا عن العرب الموثوق بفصاحتهم وسلامة لغتهم.

واذ كان ابن قتيبة يحكي في كتبه عن الكوفيين كانت كتبه مطروحة في نظر الخاصة من الدارسين، نافقة عند العامة، وعند من لا بصر له في العلم. على حد قول أبي الطيب اللغوي[٢٨].

ولعل أبا الطيب كان يرى الأخذ عن الكوفيين ضعفا في العلم وتخليطا، فلم يكن للجيل الذي كان يخلط المذهبين شأن عنده، فلم يعرض لهم، ولم يصنفهم مراتب او طبقات كما فعل مع مَن سبقهم من اعلام البصريين والكوفيين.

وفي هذا الموقف الذي وقفه أبو الطيب كثيرٌ من التعصب الذي لا يليق بالعلماء، وفيه اغفال الدارسين من بينهم علماء أخذ هو عنهم. وتلمذ لهم كأبي عمر الزاهد، وأبي بكر محمد بن يحيي الصولي. واذا كان أبو عمر الزاهد من الملازمين لمذهب الكوفيين فان أبا بكر الصولي كان قد تلمذ

---

(٢٤) كتاب النوادر ص ١.

(٢٥) مراتب النحويين ٧٤.

(٢٦) انظر: نور القبس ٢٨٧.

(٢٧) اخبار النحويين البصريين ٦٨ القاهرة.

(٢٨) مراتب النحويين ٨٥.

لأبي العباس المبرد وأبي العباس ثعلب[29]. وكان بهذا مِمّن خلط المذهبين، واذا كان أَخْذُ الدارس عن الكوفيين عنده تخليطا فكيف يفسر لنا أخذه عن أبي عمر الزاهد[30]، وأبي بكر الصولي[31]، واذا كان سبب تضعيفه ابن قتيبة انه حكى عن كوفيين ثقات فانه لم يبيّن لنا الموثوق بهم من غير الموثوق بهم من الكوفيين، والذي يقف على الكوفيين الذين حكى عنهم ابن قتيبة يجد من بينهم الكسائيّ، والفراء، وثعلباً، فاذا لم يوثق بهؤلاء فبمن يوثق مِنْ سواهم؟

لا شك أن أبا الطيّب كان مضطرباً في أحكامه، متحاملا على ابن قتيبة بدون سبب معروف، متعصبا على الكوفيين تعصبا يحمل الدارس على أن يعيد النظر في سلامة أحكامه، جاحدا ما قدمه الكوفيون للدرس النحويّ واللغوي من غناء، وما تعهده به أستاذه الكوفي من رعاية، واذا كان هذا موقفه من الكوفيين وممن يحكى عنهم فكيف يوفق بين ذلك وأخذه عنهم بتلمذته لابي عمر الزاهد الكوفي، ولأبي بكر الصولي الذي أخذ عن البصريين والكوفيين؟؟

ومهما يكن من أمر فانّ ما جاء في فهرست ابن النديم، وتردد في أقوال دارسين آخرين كأبي سعيد السيرافي في (أخبار النحويين البصريين) وأبي القاسم الزجاجيّ في (الايضاح) وابي البركات الانباري في (نزهة الالباء) وغيرهم كان منطلقا للدارسين المحدثين الى ما زعموا من وجود مذهب نحويّ جديد هو المذهب البغداديّ القائم، فيما صوّروا، على أساس من انتخاب مزايا كلا المذهبين النحويين الكبيرين وتوحيد هذه المزايا في مذهب منتخب مختار، وهو زعم لم يتجاوز حدود الفكرة المجردة التي تفتقر الى التطبيق، غير أنّ النظرة الفاحصة فيما جاء في كلام أصحاب

---

(٢٩) نزهة الالباء ٤٣٣.
(٣٠) بغية الرعاة ٣١٧.
(٣١) نزهة الالباء ٣٤٣.

الطبقات، والمترجمين لاعلام الدرس النحويّ تنتهي بالدارس الى أنّ خلط المذهبين الذي جاء نتيجة لتلاقي المذهبين في مجالس الدرس في بغداد لم يكن يعني احداث مذهب نحويّ، او رسم خطّة لمزج المذهبين، ولكنه كان يعني ترخص الدارسين في الاخذ عن الفريقين بعد زوال أسباب التعصب المذهبيّ والاقليمي. ولا يعني ترخّص الدارسين في الرواية عن هؤلاء وهؤلاء غير محض التلاقي، واتصال الآراء والاخذ ببعضها للتعبير عن رأي خاص في الاحوال التي تقتضي ابداء هذا الرأي، كأنْ يكون تعبيرا عن وجهة نظر خاصة وجدت في نفس الدارس قبولا، وقد يكون هذا الدارس بصريًّا تتفق وجهة نظره مع وجهة نظر كوفيّ في هذه المسألة او تلك، وقد يكون كوفيا يلتقي مع هذا البصريّ في هذا القول أو ذاك، ومثل هذا الخلاف قد يقع بين تلاميذ المدرسة الواحدة فلا يخرج بهم عن حدود المذهب الذي ينتمون اليه.

فالذين خلطوا المذهبين ما زالوا ينتمون الى المذهب الذي انتسبوا اليه سواء أكان هذا المذهب كوفياً ام بصريا، ولذلك نرى السيرافي في «اخبار النحويين البصريين» لم يتردد في عدّ ابن كيسان من الدارسين البصريين، ومن اصحاب ابي العباس محمد بن يزيد المبرد، وترجمته له في النحاة البصريين. ولم يثنه عن هذا انه كان يخلط المذهبين. كما صرح بذلك، كما لم يتردد في عدّ ابي بكر بن السراج في الدارسين البصريين، وجعله رئيسا انتهت اليه الرئاسة في النحو البصري بعد الزجاج وابن كيسان، ولم يحل دون ذلك أنْ كان ابن السراج يحكي في «الاصول» عن سائر الكوفيين [٣٢].

ولم يُخرج أبا القاسم الزجاجيّ عن دائرة النحو البصريّ أنّه أخذ عن كوفيين وبصريين، وكان يقول: «فمن العلماء الذين لقيتهم وقرأت عليهم شيخنا ابو اسحاق الزجاج رحمه الله، وابو جعفر محمد بن رستم الطبري

(٣٢) أخبار النحويين البصريين ٨٠، ٨١.

غلام ابي عثمان المازنيّ وأبو الحسن بن كيسان، وأبو بكر احمد بن العباس المعروف بابن شقير، وأبو بكر محمد بن منصور المعروف بابن الخياط، وأبو بكر بن السراج، وأبو الحسن علي بن سليمان الاخفش. ومن علماء الكوفيين الذين اخذت عنهم أبو الحسن بن كيسان، وابو بكر بن شقير، وأبو بكر ابن الخياط لان هؤلاء قدوة اعلام في علم الكوفيين، وكان اول اعتمادهم عليه ثم درسوا علم البصريين بعد ذلك فجمعوا بين العلمين، وأبو بكر بن الانباريّ وابو موسى الحامض و... و... »[٣٣].

فمن اساتيذ الزجاجيّ كما يدل عليه النص مَنْ كان بصريّ المذهب، شديد اللزوم له كالزجاج والطبريّ وابن السراج، ومنهم من كان كوفيّ المذهب ملازما لطريقة الكوفيين كأبي بكر بن الأنباري، ومنهم من كان يخلط المذهبين كابن كيسان وعلي بن سليمان الاخفش، ومع ذلك لم يخرج عن كونه بصريّ المذهب ومن أشد الدارسين لزوما لمذهب البصريين.

ولعل تعبيره عن خلط المذهبين بالجمع بين العلمين اقوى دلالة على ما نحن بصدد تقريره، لأن المفهوم من قوله: « فجمعوا بين العلمين » انما هو خلط المذهبين خلطا محضا، ليس فيه ايماء الى انتخاب مزايا المذهبين، وتوحيدها في مذهب جديد مختار، كما صوّره المحدثون.

وأما شيوع اسم البغداديين بازاء اسم الكوفيين والبصريين فلا يؤيد ما ذهبوا اليه أيضا، لان اسم البغداديين قديم بدأ يشيع بين الدارسين منذ أنْ عرفت مجالس الدرس في بغداد دارسين يختلفون اليها شيوخا وطلابا.

اما الاسم الذي ينبغي ان يبحث في نشأته فهو اسم الكوفيين، لأن هذا الاسم انما يطلق على الدارسين الذين ينتمون الى مذهب كوفيّ في النحو يقف بازاء المذهب البصريّ، ومذهب الكوفيين لم تُرسمْ خطوطه في الكوفة وانما نَشأ وشب ونضج في بغداد، وعلى يد الكسائيّ أوّلًا ثم على يد الفرّاء ثانياً.

---

(٣٣) الايضاح ٧٨، ٧٩.

اما الدارسون الكوفيون الذين ينتسبون الى المِصْر المعروف، ويقيمون فيه فلم يكونوا لينهضوا بهذا العبء، ولم يكن لهم تأثير خاص فيمن تلمذ لهم، ولا حفظت كتب النحو لهم اقوالا وآراء، فاذا أريد الى تاريخ الدرس النحويّ الذي سمي كوفيا فانما يؤرخ باعمال الكسائيّ والفراء واصحابهما وتلاميذهما، وهؤلاء هم اعلام هذا الدرس في بغداد. واذا كان الكسائيّ والفراء كوفيين مولدا ومنشأ فلم يتصدرا حلقات الدرس في الكوفة، ولا عرفا بين النحاة قبل اقامتهما في بغداد وتصدّرهما مجالس الدرس فيها.

اما ما زعمه أصحاب الطبقات الذين أرّخوا للنحاة من عدّ الرواسيّ والهراء من النحاة الكوفيين فينطلق من فهم ساذج لمعنى المذهب، ولا ينبغي أن يذكر الرواسيّ او الهرّاء الّا حين يؤرخ للكسائيّ والفراء، ولبداية اشتغالهما في العربية، والعربية في عهد الرواسيّ والهراء رواية لغة وشعر واخبار وقراءة ومعرفة محدودة بالدرس النحوي والصرفي.

أما ابو جعفر الرواسي فهو محمد بن الحسن، أخذ العربية عن ابي عمرو ابن العلاء [٣٤]، او عيسى بن عمر [٣٥]، ونسبت اليه تصانيف، واشهر ما نسب اليه من تصانيف كتاب قيل ان اسمه (الفيصل)، وحُكي عنه أنّه قال: « ارسل اليّ الخليل بن أحمد يطلب كتابي، فبعثته اليه فقرأه ووضع كتابه » [٣٦] وزاد السيوطي فأردف هذا قوله « فكل ما في كتاب سيبويه (وقال الكوفيّ كذا) فانما عنى الرواسيّ » [٣٧].

ونبحث عن هذا الكتاب فلا نجد له أثرا، ولا نقرأ نصّا منقولا منه، وحياة الرواسيّ العلمية مجهولة لا نعرف لها اجمالا ولا تفصيلا. امّا ما

---

(٣٤) مراتب النحويين ٢٤.
(٣٥) طبقات النحويين ١٣٥.
(٣٦) النزهة ٦٦ مصر.
(٣٧) بغية الوعاة ٣٩٣.

اضافه السيوطيّ على النص فوهم وتخليط، لانه ليس في كتاب سيبويه اشارة الى قول منسوب الى هذا الكوفيّ.

واما معاذ الهراء فهو عمّ ابي جعفر الرواسيّ، ولم أقف على من تلمذ هو له، ولم يصل الينا شيء من اقواله في النحو او الصرف يجعله من النحاة او أهل التصريف، غير ان السيوطيّ كان قد لمح، على حدّ وهمه، أن معاذا هو أول من وضع (التصريف) بقول نسب اليه، فقد سمعه ابو مسلم مؤدب عبد الملك بن مروان «يقول لرجل: كيف تقول من تؤزّهم أزّا: يا فاعل افعل»[٣٨]، وهو وهم وتخليط ايضا.

هذان هما اشهر الدارسين في الكوفة قبل الكسائيّ وهما، مع هذه الشهرة المفتعلة، ليسا بشيء، وليس لهما تأثير في الدرس، ولا حوت كتب النحو الكوفية المعروفة أقوالا نحوية او صرفية تنسب اليهما، ولم يصفهما في طبقات النحاة الّا روايات مفتعلة تناقلتها كتب الطبقات، كما تناقلت كثيرا من الأوهام.

وليس افتعال الاخبار بعزيز على اولئك الدارسين الجمّاعين الذين لم يهمّهم سلامة النص بمقدار ما يهمهم سلامة السند، كالسيوطيّ وامثاله الذين تلقوا العلم في عصر كان للدراويش واصحاب الطرائق شأن كبير فيه.

وليس غريبا أن يجوز على الدارسين المتأخرين الذين لم يتحرروا من تأثير ذلك العصر واوهامه واساطيره، كصاحب (نشأة النحو)، وصاحب (في أصول النحو) وصاحب (مدرسة البصرة النحوية) وامثالهم الذين لقيت مصنفاتهم رواجا في مجالس الدرس في العصر الحديث، ولكن الغريب ان يجوز ذلك على دارسين عرفوا في بيئات الدرس الحديث نقادا ومنهجيين كالدكتور يوسف خليف وامثاله من اعلام الدرس المعاصر، فقد اخذوا يرددون الاوهام، وكأنها من الحقائق التي ارتفعت عن النقد.

---

(٣٨) بغية الوعاة ٣٩٣.

لقد عرض الدكتور يوسف خليف في كتابه (حياة الشعر في الكوفة) لتاريخ النحو في ايجاز مرددا مقالات القدماء بدون فحص ولا نقد، ولم يشفع له عرضها على صورة احتمالات، لانه انتهى الى مثل ما انتهى اليه القدماء.

فالرواسيّ عنده «استاذ الكوفة الاول»[٣٩].

والرواسيّ عنده كان قد «مضى يصنّف حتى أتمّ مجموعة غير قليلة وصلت إلينا اسماؤها في كتب الطبقات»[٤٠].

وكتب الرواسيّ عنده «يبدو انها كانت من المصادر التي اعتمد عليها سيبويه في تأليف كتابه»[٤١].

وسيبويه، عنده «اذا ذكر في كتابه (الكوفي) فانما يعني به ابا جعفر الرواسيّ»[٤٢].

ومعاذ الهراء، عنده، زميل الرواسيّ «في الاستاذية الأولى لمدرسة الكوفة»[٤٣].

الى غير ذلك من الاقوال التي لا ترتفع عن مستوى الأوهام التي تناقلتها كتب الطبقات، وأضفت عليها جلبابا مهلهلا من (الحقيقة).

وبالرغم من ان الدكتور (خليف) لم يعرف من مصنفات الرواسيّ الّا اسماءها زعم «انها كانت من المصادر التي اعتمد عليها سيبويه في تأليف كتابه»[٤٤].

وجازت عليه البهرجة التي زعمت ان «سيبويه اذا ذكر في كتابه

---

(٣٩) حياة الشعر في الكوفة ٣٦٢.
(٤٠) ص ٢٦٣.
(٤١) ص ٢٦٣.
(٤٢) ص ٢٦٣.
(٤٣) ص ٢٦٣.
(٤٤) ص ٢٦٣.

(الكوفيّ) فانما يعني به ابا جعفر الرواسيّ »[٤٥] .

على حين انّ مثل هذا الزعم لا اساس له من الواقع لان سيبويه لم يقل في كتابه: « قال الكوفيّ »، ولم نجد في كتابه اشارة الى قول منسوب الى هذا الكوفيّ، وقد سبق أنّ اشار الى بطلان هذا الوهم اكثر من دارس، ونشر ذلك في اكثر من بحث.

وربما أوقع الدكتور (خليف) نفسه في تناقض لم يلتفت اليه، ذلك انه بعد أن اثبت للرواسيّ تلك المنزلة في العلم والرئاسة، وجعله نِدًّا للخليل بتلمذته لعيسى بن عمر، وجعل مصنفاته التي لم يعرف الّا أسماءها مصادر أفاد الخليل منها، واعتمد سيبويه عليها في تأليف كتابه.. بعد أن أثبت الدكتور (خليف) ذلك أخذ يعلل خروج الكسائي الى البصرة ليأخذ النحو عن الخليل بأن « علم الكوفة لم يشبع رغبة الكسائيّ وتعطشه » للعلم، ولم يلق الكسائيّ في البصرة غير الخليل..

فماذا وجد الكسائيّ من علم البصرة وعلم الخليل اذا كان قد تلمذ للرواسيّ الذي أفاد الخليل من كتابه، وكانت كتبه من المصادر التي اعتمد عليها سيبويه!![٤٦]

ولماذا كان الكسائي معجبا بالخليل وعلمه، ولم يكن له همّ، بعد رحلته الى بوادي الحجاز ونجد وتهامة، الّا البصرة والخليل[٤٧] ؟؟

ولماذا لزم الفراء، وهو النحوي العظيم، الكسائيّ، وانقطع عن الرواسيّ وكان الرواسيّ قد أغراه أن يخرج الى بغداد، لينافس الكسائيّ، لانه أميز منه على حدّ قول الرواسيّ؟؟[٤٨]

هذه الأسئلة تفرض نفسها على الدارس اذا كان بنجوةٍ من التقليد

---

(٤٥) حياة الشعر في الكوفة ٢٦٣ .

(٤٦) ص ٢٦٣ أيضا.

(٤٧) نزهة الالباء ٨٣، ٤٨ . معجم الادباء ١٣/١٦٩ .

(٤٨) نزهة الالباء ٦٥ .

والاتّباع ولكن الدكتور (خليف)، فيما يبدو، لم يرد في عرضه لهذه الأقوال، واقحامه هذا الموضوع في (حياة الشعر في الكوفة)، أن يميز الوهم من الحقيقة، والخيال من الواقع.

وبعد أن وضعنا الرواسيّ والهرّاء في مواضعهما الحقيقية يبدو للدارس واضحا أن مدرسة الكوفة النحوية، وهي تسمية متأخرة، لم تنشأ في الكوفة وأنما نشأت في بغداد، ولم يكن لها شيوخ قبل الكسائيّ والفراء، وأنّ الكسائيّ والفرّاء وثعلبا لم يسمهم أحد من قدماء البصريين بالكوفيين وانما كانوا يُسمّون بالبغداديين.

وقد سبق لي في كتابي (مدرسة الكوفة) أن انتهيت الى هذا، والى أنّ الاستاذ الذي انتهت اليه الرئاسة في النحو في تاريخ الدرس النحويّ هو الخليل بن أحمد الفراهيديّ، وأن رئاسة ما سمي بمدرسة البصرة ومدرسة الكوفة انما انعقدت في مجلس الخليل لأنبه تلاميذه:

سيبويه الذي انتهت اليه رئاسة النحو في البصرة بعد الخليل.

والكسائيّ الذي انتهت اليه رئاسة النحو في بغداد بعد تلمذته للخليل وبعد عودته من رحلته الى البوادي التي كان قام بها بتوجيه من الخليل.

فالكوفيون الذين يمثلون فريقا منافسا للبصريين انما بدأوا بالكسائيّ الذي رسم خطوط المذهب الجديد، وأرسى قواعد الدرس النحويّ في بغداد. واذا أشير الى الكسائيّ واصحابه وتلاميذه، في الحقبة التي أخذوا بأيديهم زمام الدرس النحويّ في بغداد اشير اليهم على أنّهم بغداديون او عراقيون.

واذا نسب الكسائيّ الى الكوفة احيانا فلأنه ولد في الكوفة، ونشأ فيها وشُهر بالقراءة والاقراء بين الدارسين فيها، ولم يتعلم الّا على كِبَر [٤٩]، والّا بعد أن لزم مجلس الخليل، واستكثر عنه، وارتحل الى بوادي الحجاز

---

(٤٩) تاريخ بغداد ١١/٤٠٤.

ونجد وتهامة بتوجيه منه، ولم يستقرّ به المقام في الكوفة بعد عودته من البصرة، فقد كتب المهديّ «بازعاجه من الكوفة»[٥٠]، ليقيم في بغداد يؤدب ولده، ويذيع قراءته، ويخطط لمذهب جديد في اللغة والنحو.

فمتى شاعت تسميته بالكوفيّ، وصار هذا الاسم علما لمذهب نحويّ اتخذ له سبيلا مستقلة عن مذهب البصريين؟؟

من أجل أن نحدّد الزمن الذي بدأت فيه هذه التسمية تشيع، وتتردد على السنة الدارسين، وتجري بها أقلامهم لا بد أن نستأنس بأقوال المعاصرين من الدارسين البصريين الذين شهدوا مولد هذا المذهب، ونموّه، ونضجه، واستهانوا به بادىء ذي بدء، ثم راعهم أن صار منافسا قويا بيده أسباب القوة والحياة التي تضمن دوامه في تأدية رسالته، وحاولوا جاهدين ان يغضّوا من شأنه، ويهوّنوا من قدره فلم تكتب لهم الغلبة، وظلوا ينفسون هذه الحياة المتدفقة في الدرس البغداديّ اذ بدأ الجمود يدب في أوصال مذهبهم.

وبلغ الامر بالذين يستهينون به ان تعصبوا عليه، ودأبوا يشنون عليه الحملات بالتوهين من شأنه وتضعيفه، ويحملون على شيوخه وتلاميذه، ويتهمونهم بافساد النحو، وبأنهم يرقون بالعلم الى اسفل على حد قول اليزيديّ في الكسائيّ واصحابه[٥١]. وبأنهم لم يكونوا شيئا «وعلمهم مختلط بلا حجج ولا علل الّا حكايات عن الأعراب مطروحة»[٥٢] على حدّ قول

---

(٥٠) تاريخ بغداد ١١/٤٠٦.

(٥١) اليزيدي: هو ابو محمد يحي بن المغيرة اليزيدي، كان يقول في الكسائي وأصحابه: (أخبار البصريين ٤٤. نزهة الالباء ١٠٨).

كنا نقيس النحو فيما مضى ... على لسان العرب الاوّل
فجاءنا قوم يقيسونه ... على لغى اشياخ قطربل
فكلهم يعمل في نقض ما ... به يصاب الحق لا يأتلي
ان الكسائي وأصحابه ... يرقّون في النحو الى أسفل

(٥٢) مراتب النحويين ٧٤.

أبي حاتم في الكسائيّ وأصحابه والفرّاء وأصحابه.

وكان أبو حاتم السجستاني من أشد المتعصبين عليهم، وأكثرهم اتهاما لهم. وعلى كثرة أقواله فيهم لم يسمّهم بالكوفيين ولكنه كان يتحدث عنهم على أنهم بغداديون. جاء ذلك في كلام له يحمل فيه على الكسائيّ والفراء وأصحابها، ويقول فيه: «أهل بغداد حشو عسكر الخليفة، لم يكن بها من يوثق به في كلام العرب، ولا من يرتضى روايته، فان ادّعى أحدٌ منهم شيئا رأيته مخلّطاً، صاحب تطويل، وكثرة كلام ومكابرة، ولا يفصل بين علماء البصرة بالنحو وبين الرواسيّ والكسائيّ، ولا بين قراءة أهل الحرمين وقراءة حمزة، ويتحفظ احدهم مسائل من النحو بلا علل ولا تفسير، فيكثر كلامه عند من يختلف اليه. وانما همّ أحدهم اذا سبق الى العلم (وهنا بدأ يغمز الفراء) ان يسير اسما يخترعه لينسب اليه، فيسمى الجر خفضا، والظرف الصفة، ويسمون حروف الجر حروف الصفات، والعطف النسق و(مفاعيلن) في العروض (فعولان)، ونحو هذا من التخليط[٥٣].

وقد سمّاهم أهل بغداد، لان الدرس في بغداد هو درسهم، والمذهب المتبع فيها هو مذهبهم.

ويمضي بنا الزمن الى أبي العباس المبرد، وكان له الفضل في تعريف البغداديين بنحو البصرة ومذهب البصريين، لأنه النحويّ البصريّ الوحيد الذي استطاع أن يروّج لمذهب البصريين في بغداد، ويذيع في الدارسين البغداديين علم أهل البصرة، لغتهم ونحوهم، ويمكّن لأسلوبهم العقليّ في معالجة موضوعات النحو أن يتسرب الى عقول الدارسين في بغداد.

وكان يقصد الى مفاتشة البغداديين ومناظرتهم قصدا، لتثبيت أقدامه في أرض عَزَّتْ على أقدام غيره من قبل، وكان أبو العباس ثعلب الذي انتهت اليه الرئاسة في النحو منافسه القويّ في بغداد.

---

(٥٣) مراتب النحويين، ١٠١، ١٠٢.

غير ان المبرد استطاع، بحذقه ومهارته في الجدل، وحسن بيانه أن يحرز للدرس البصريّ بعض الانتصارات الميدانية التي أعجب بها السذج من الدارسين، وان يستأثر ببعض تلاميذ ثعلب، ولكنه، مع ذلك كان يحسب لعلم ثعلب وسعة اطلاعه، وقوة حفظه حسابا، لأنه كان أعلم الناس بعلم ثعلب وصدقه وتوثيق العلماء اياه، وكان لا يخفي اعجابه ببعض من لا تسعفه القريحة بالغضّ منه، وكان معجبا بكتاب (اصلاح المنطق) لابن السكّيت، وكان يقول في تقويم هذا الكتاب: «ما رأيت للبغداديين كتابا خيراً من كتاب يعقوب بن السكّيت في المنطق»[54].

ويعقوب بن السكّيت من الدارسين الكوفيين، ولم يسمّه بالكوفيّ، بل سماه وسمّى غيره من الدارسين الذين سموا بالكوفيين بالبغداديين.

وربما حكى المبرد عن هؤلاء الكوفيين البغداديين بعض آرائهم، فقد جاء في شرح الكافية، في اثناء الكلام على (أن) المخففة: «وجوز الفراء وابن الانباريّ وقوع المصدرية بعد فعل علم غير مؤول، فيجوز ان يكون قوله:

فلما رأى أنْ ثمّر الله ماله وأثّل موجودا وسدّ مفاقره

من هذا، ويجوز ان تكون مخففة من غير عوض، كما حكى المبرد عن البغاددة [في الطبعة الحجرية: عن البغداديين]: عَلِمْتُ أنْ تَخْرُجُ، بالرفع بلا عوض»[55].

ومعنى حكاية المبرد عن البغاددة أو البغداديين أنه انما يحكى عن معاصرين له، أو متقدمين عليه، ويستبعد أنْ يكونوا من الجيل الذي خلط المذهبين.

هذا ولم يجر قلم المبرّد في (المقتضب) باسم الكوفيين الّا مرة

(٥٤) نزهة الالباء ٢٤٠.

(٥٥) شرح الكافية للرضى ٢/ ٢٣٢.

واحدة[٥٦]، أمّا فيما عدا ذلك فكان يشير اليهم، اذا عرض لرأي لهم يناقشه بقوله: «وقال قوم»، ونحوه، او بقوله: «وبعض النحويين من غير البصريين»، أو بقوله: انَّ قوما يقولون، الى غير ذلك من العبارات التي يريد بها الكوفيين، ولا يسميها بهذا الاسم.

على أن ورود اسم الكوفيين مرة واحدة في كتابه لا يعني أنه كان يعرف هذه التسمية، فقد يُحْمَل على انه تصرف من النساخ أو من بعض التلاميذ الذين شاعت بينهم هذه التسمية.

ومن ذلك قوله في المقتضب، في معرض الكلام في نصب المستقبل بدون (أنْ): «وبعض النحويين من غير البصريين يجيز النصب على اضمار (أنْ)، والبصريون يأبون ذلك الّا ان يكون منها عوض، نحو الفاء والواو وما ذكرناه معها»[٥٧].

وقوله في تعريف العدد: «اعلم ان قوما يقولون: اخذت الثلاثة الدراهم يا فتى، واخذت الخمسة عشر الدرهم، وبعضهم يقول: اخذت الخمسة العشر الدرهم التي تعرف. وهذا كله خطأ فاحش»[٥٨].

والرأيان اللذان ضعّفهما هنا للكوفيين، ولكنه لم يسمهم بالكوفيين، ولا بالبغداديين.

ونقف عند ابن قتيبة الذي كان قد اخذ عن ابي حاتم السجستانيّ، ولم يأخذ عن كوفيّ قط، فلم نجد في شيوخه واحدا من الكوفيين، الّا انه لم يقصر الحكاية على البصريين وحدهم، بل كان يحكي عن الكوفيين، ويحكي عنهم كثيرا. وقد سبق ان استظهرنا أنّ حكايته عن الكوفيين هي التي دفعت ابن النديم الى ان يضعه مع الذين خلطوا المذهبين، وهي التي جرّت عليه حملة ابي الطيب اللغوي بتضعيف كتبه وتقليل شأنه.

---

(٥٦) المقتضب ١٥٥/٢.
(٥٧) المقتضب ٨٥/٢.
(٥٨) المقتضب ٧١٥/٢.

كان ابن قتيبة يحكي عن الكوفيين فعلا. كان يحكي عن الكسائي والفراء وثعلب، وقد تردد اسم الكسائي في كتابه (ادب الكاتب) نحو ثلاثين مرة، والفراء نحو ستين مرة، وثعلب مرة واحدة، وكان اذا أراد ان يحكي قولا لعامة الكوفيين قال: قال بعض البغداديين، او: البغداديون يقولون كذا وكذا، أو يرون كذا وكذا، الى غير ذلك، وهو يذكر اسم البغداديين دون تخصيص.

من ذلك قوله: «ورثأت فلانا اذا قلت فيه مرثية. هذا قول البصريين الأخفش وغيره. اما الفراء وغيره من البغداديين فيجعلونه من غلطهم، مثل حلّأت السويق»[٥٩].

فقد جعل الأخفش ممثلا للبصريين والفراء ممثلا للبغداديين، وذلك يؤيد ان اسم الكوفيين لم يكن معروفا بازاء اسم البصريين في زمانه.

ومن ذلك قوله: «واذا اردت أنْ تُعرِّف عددا تكثر الفاظه نحو ثلاث مئة الف درهم، وخمس مئة الف درهم الحقت الالف واللام في آخر لفظة منها فتقول: «ما فعلت ثلاث مئة الف الدرهم، وخمس مئة الف الدرهم، هذا مذهب البصريين، لا يجيزون غيره. والبغداديون يجيزون: ما فعلت ثلاث مئة الالف الدرهم»[٦٠].

والنحويون الذين يُعرّفون العدد والمعدود هم الكوفيون.

ومن ذلك قوله: «قال البصريون: تقدير انسان: فِعْلان، زيدت الياء في تصغيره، كما زيدت في تصغير ليلة فقيل: لُيَيْلة، وفي تصغير (رجل)، فقيل: رُوَيْجِل. وقال بعض البغداديين: الأصل فيه: إنسيان على إفعلان، فحذفت الياء استخفافا، لكثرة ما يجري على ألسنتهم، فاذا صغروه قالوا: أُنَيْسِيان، فردوا الياء»[٦١].

---

(٥٩) أدب الكاتب ٣٩٠ بريل.

(٦٠) أدب الكاتب ٢٩٩ بريل.

(٦١) أدب الكاتب ٦٣٧ بريل.

والمقصود من البغداديين هنا هم الكوفيون، لان هذا الرأي الذي نسبه ابن قتيبة الى البغداديين كان غيره قد نسبه الى الكوفيين، فقد صرح أبو البركات الأنباريّ بان مذهب الكوفيين هو: «ان الاصل في انسان: انسيان افعلان من النسيان» [٦٢].

وجاء في حاشية الصبان: «قال الكوفيون: أُنَيْسِيان تصغير إنسان، لأن اصله: إنسيان، على وزن افعلان بكسر الهمزة والعين، واذا صُغّر افعلان قيل: أُفيعلان، وهو مبني على قولهم: انسان مأخوذ من النسيان فوزنه افعان. ومذهب البصريين انه من الانس، فوزنه فِعْلان» [٦٣].

وجاء في التصريح على التوضيح: «ذهب معظم الكوفيين الى أن انسانا أصله: انسيان من النسيان، فلا يكون تصغيره على أُنيسيان شاذا» [٦٤].

فما نسبه أبو البركات والصبان والأزهري الى الكوفيين كان ابن قتيبة قد نسبه الى البغداديين، مما يؤيد ان اسم البغداديين اسم قديم لمن سُمّوا بالكوفيين من بعد.

وتقف عند الأزهري في تهذيب اللغة، وهو من رجال القرن الرابع للهجرة فنجده يسمي الكسائيّ والفراء واصحابهما بالكوفيين مرة وبالعراقيين مرة أخرى، وقد جرى قلمه بالاسمين جميعاً. نجد ذلك في اثناء استعراضه طبقات الدارسين من اللغويين والنحويين الذين كان اعتماده عليهم في جمع مادة كتابه، وبدأ بذكر البصريين مبتدئا بأبي عمرو بن العلاء، وكان تصنيفه لطبقات النحويين واللغويين كتصنيف ابي الطيب اللغويّ، يذكر طبقة من البصريين ثم يذكر من كان بازائها من الكوفيين، واذ ذكر الطبقة البصرية التي ذكر من اعلامها أبا زيد الانصاريّ وأبا عبيدة والاصمعيّ وآخرين قال: «ومن هذه الطبقة من الكوفين: أبو الحسن علي بن حمزة

---

(٦٢) الانصاف ـ المسألة الـ ١١٧.

(٦٣) حاشية الصبان على شرح الاشموني ٤/١٦٤.

(٦٤) التصريح ٢/٣١٩.

الكسائيّ »[٦٥]. ولا أحسبني رأيته يذكر اسم الكوفيين مرة أخرى.

واذ وصل في استعراضه طبقات الدارسين البصريين الى طبقة ابي حاتم السجستاني وتلاميذه قال: « ومن هذه الطبقة من العراقيين: ابو العباس أحمد بن يحيى الشيباني الملقب بثعلب، وابو العباس محمد بن يزيد الثمالي الملقب بالمبرد. واجمع اهل هذه الصناعة من العراقيين وغيرهم انهما كانا عالمي عصرهما، وان أحمد بن يحيى كان واحد عصره، وكان محمد بن يزيد أعذب الرجلين بيانا، واحفظهما للشعر المُحْدَث، والنادرة الطريفة، والاخبار الفصيحة، وكان من أعلم الناس بمذاهب البصريين في النحو ومقاييسه. وكان احمد بن يحيى حافظا لمذهب العراقيين، أعني الكسائيّ والفراء والاحمر، وكان عفيفا عن الأطماع الدنيّة، متورعا من المكاسب الخبيثة »[٦٦].

فقد سمى الأزهريّ الكسائي بالكوفيّ اولا ثم سماه وسمى الفراء والاحمر والدارسين البغداديين الآخرين بالعراقيين، وحين ذكر ثعلبا والمبرد جعلهما من العراقيين. ويبدو ان التسمية بالعراقيين مساوية للتسمية بالبغداديين لأن العراق انما كان يطلق على بغداد وبلادها وما يليها من ديار بكر وربيعة ومضر[٦٧].

ويبدو ان الأزهري حين سمى الكسائي بالكوفيّ كان ينظر الى منشئه، وحين جعله من العراقيين مع الفراء والاحمر كان ينظر الى مقامه. يؤيد هذا أنّه نسب ثعلبا والمبرد كليهما الى العراقيين مع أنّ ثعلبا كوفي المذهب والمبرد بصري المنشأ والمذهب.

فاسم البغداديين على هذا انما يطلق على الدارسين الذين اقاموا في بغداد، وهذا ينجرّ الى اوائل الدارسين في بغداد وهم الكسائيّ واصحابه،

---

(٦٥) تهذيب اللغة ١/١١.

(٦٦) تهذيب اللغة ١/٢٧.

(٦٧) صبح الاعشى ٤/٤٢١.

والفراء واصحابه، وثعلب واصحابه، ولا يقتصر الاسم على الجيل الذي اعقب ثعلبا والمبرد، كما زعم المحدثون.

ثم نقف على حكايات ابي علي الفارسيّ واقواله، وأبو عليّ هذا من النحاة الملازمين لمذهب البصريين، وقد عدّه الزبيدي في الطبقة العاشرة من طبقات النحويين البصريين. وكان أبو حيان التوحيديّ يراه كذلك ويقول: «قلت: وأما أبو عليّ فاشدّ تفردا بالكتاب، واشد اكبابا عليه، وابعد من كلّ ما عداه مما هو علم الكوفيين»[٦٨].

قال أبو علي: «وحكى أحمد بن يحيي عن بعض البغداديين: يقال: هديّ بيت الله، وأهل الحجاز يخففون، وتميم تثقّله»[٦٩]. وأحمد بن يحيي هو أبو العباس ثعلب، واذا حكى ثعلب عن بعض البغداديين فذاك احد أصحابه أو شيوخه من الكوفيين، ولم يقصد أبو عليّ من (البغداديين) غير الدارسين في بغداد من المعاصرين لثعلب والمتقدمين عليه، وهؤلاء هم الكوفيون.

ثم نقف على حكايات ابي الفتح بن جني واقواله فنجده يذكر الكوفيين والبغداديين، ومن مقابلة اقوال البغداديين التي أوردها بأقوال الكوفيين المعروفة نرى ان القول واحد، وان اسم البغداديين اذا جاء في لسان ابن جني فليس هو اسما آخر بازاء اسم البصريين واسم الكوفيين.

قال ابو الفتح في معرض التفريق بين الكلام والقول: «لو سألت رجلا عن علة رفع (زيد) من نحو قولنا: زيد قام اخوه، فقال لك: ارتفع بالابتداء لقلت: هذا قول البصريين. ولو قال: ارتفع بما يعود عليه من ذكر لقلت: هذا قول الكوفيين، اي: هذا رأي هؤلاء، وهذا اعتقاد هؤلاء»[٧٠].

---

(٦٨) الامتاع والمؤانسة ١/١٣١.

(٦٩) الحجة ١/١٣٩.

(٧٠) الخصائص ١/١٨.

ثم قال في موضع آخر: «ومن ذلك قول البغداديين: ان الاسم يرتفع بما يعود عليه من ذكره، نحو: زيد مررت به، واخوك أكرمته فارتفاعه عندهم انما هو لأنّ عائدا عاد عليه فارتفع بذلك العائد»(٧١).

والمسألة هنا هي المسألة هناك، ورأى البغداديين هناك هو رأي الكوفيين نفسه هنا. وقد فطن محقق كتاب الخصائص لهذا فقال في الهامش: «سبق له نسبة هذا الى الكوفيين في ص ١٨»(٧٢).

وقال ايضا: «وسمعت الشجريّ أبا عبدالله غير دفعة يفتح الحرف الحلقيّ في نحو: (يَعَدَو) وهو (محَموم)، ولم اسمعها من غيره من عقيل فقد كان يرد علينا منهم من يؤنس به، ولا يبعد عن الأخذ بلغته، وما أظن الشجريّ الّا استهواه كثرة ما جاء عنهم من تحريك الحرف الحلقيّ بالفتح اذا انفتح ما قبله في الاسم على مذهب البغداديين»(٧٣).

ورأيت الرّضي ينسب هذا الرأي الى الكوفيين، فيقول عند الكلام في مناسبة حرف الحلق للفتح: «وان كان عين فَعْل المفتوح الفاء حلقيا ساكنا جاز تحريكه بالفتح نحو: الشَعْر والشَعَر، والبَحْر والبَحَر مثلها لغتان عند البصريين في بعض الكلمات، وليست احداها فرعا للاخرى، وأما الكوفيون فجعلوا المفتوح العين فرعا لساكنها، ورأوا هذا قياسا في كلّ فعل شأنه ما ذكرنا، وذلك لمناسبة حرف الحلق للفتح»(٧٤).

وقال أبو الفتح في موضع آخر: «ومن بعد فقد قالوا أيضا: صبُوان وصبُوة وقُنوة، وعلى أن البغداديين قالوا: قنوت وقنيت، وانّما كلامنا على ما أثبته اصحابنا، وهو قَنَوْت لا غير»(٧٥).

---

(٧١) الخصائص ١٩٩/١.

(٧٢) هامش ١٩٩/١.

(٧٣) الخصائص ٩/٢.

(٧٤) شرح الشافية ١٨، ١٩ ط تركية.

(٧٥) الخصائص ١٦٣/٣.

فقد ذكر أبو الفتح البغداديين بازاء البصريين الذين عناهم بقوله: (أصحابنا)، والرأي الذي أثبته هنا للبغداديين رأيٌ كوفيٌّ، قال ابن منظور عند الكلام في قنيت وقنوت: «وأما الكوفيون فجعلوا قنيت وقنوت لغتين» [٧٦].

وقال أيضا في موضع آخر في معرض تحمُّل الخبر الضمير: فاذا قلت: أنت كزيد، وجعلت الكاف اسما فلا ضمير فيها، كما أنك اذا قلت: انت مثل زيد فلا ضمير في (مثل) كما لا ضمير في الأخ ولا الابن اذا قلت: انت أخو زيد وأنت ابن زيد. هذا قول اصحابنا، وان كان قد أجاز بعض البغداديين أن يكون في هذا النحو الذي هو غير مشتق من الفعل ضمير، كما يكون في المشتق» [٧٧].

والقول بتحمل الجامد ضميرا قول كوفي نسبه ابن مالك الى الكسائيّ في قوله: «ولا يتحمل غير المشتق ضميرا ما لم يؤول بمشتق خلافا للكسائيّ» [٧٨]، وكذلك فعل الرضيّ فقال: «وان لم يكن [يعني الخبر] مؤولاً به [أي بالمشتق] لم يتحمله خلافا للكسائيّ» [٧٩]. ونسبه الأشموني الى الكوفيين وقال: «والخبر المفرد الجامد منه فارغ من ضمير المبتدأ خلافا للكوفيين» [٨٠].

أما المتأخرون فقد فعلوا فعل أبي الفتح، وكانوا يذكرون البغداديين، ويذكرون الكوفيين، دون التفات الى وحدة الرأي في المنقول عنهم، ولعلهم كانوا يتأثرون بابن جني في ذلك حين رأوه ينسب الرأي الى البغداديين والى الكوفيين دون ان يشير الى أن هؤلاء هم اولئك، وحسبوا أن البغداديين فريق والكوفيين فريق آخر، وحفلت تصانيفهم بالاسمين جميعا،

---

(٧٦) لسان العرب ١٥/٢٠١ بيروت.

(٧٧) سر صناعة الاعراب ١/١٩٠، ١٩١.

(٧٨) التسهيل ٤٧.

(٧٩) شرح الكافية ١/٩٧.

(٨٠) شرح الأشموني ١/٢٠٦.

فكان الدارس منهم اذا أراد أن يعرض رأيا له فيه وجهة نظر نسبه الى من وجده منسوبا اليه، فذكر هذا الدارس البغداديين، وذكر ذلك الكوفيين، ولم يلتفت هذا أو ذاك الى أن الرأي واحد، وقد اختلط الأمر لديهم اختلاطا عجيبا حتى كان الدارس منهم ينسب رأيا معينا الى البغداديين حينا، حاكيا رأي بعض الدارسين في نقوله عنه، ثم ينسبه الى الكوفيين حاكيا رأي دارس آخر في نقوله عنه، وكأنه اكتشف جديدا، ولم ينتبه الى أن الفريقين فريق واحد، وأن البغداديين الذين عُزِي اليهم رأي هم الكوفيون الذين عُزِي اليهم الرأي نفسه، وأنه انما نقل الرأي من دارس وقع له الرأي منسوبا الى البغداديين، ودارس آخر وقع له الرأي نفسه منسوبا الى الكوفيين.

وجاز ذلك على الدارسين المحدثين فراحوا يعززون بهذه النقول المخلّطة زعمهم بوجود مذهب ثالث يقف بازاء المذهبين النحويين الكبيرين مذهب البصريين ومذهب الكوفيين.

ومن نماذج هذا التخليط ما جاء في الخزانة عن ذكر الشاهد على استعمال (ليس) أداة عطف، وهو قوله:

فاذا أقرضت قرضا فاجزه إنما يجزي الفتى ليس الجمل

قال البغدادي: «على أنَّ بعضهم قال: (ليس) فيه عاطفة، والظاهر انها على اصلها، اي: ليس الجمل جازيا. والاول مذهب البغداديين، احتجوا بهذا البيت على أنَّ (ليس) عاطفة، قالوا: كما تقول: قام زيد لا عمرو، فـ (ليس) محمولة على (لا) في العطف. قال ابو حيان: وحكى النحاس وابن بابشاذ هذا المذهب عن الكوفيين، وحكاه ابن عصفور عن البغداديين»[٨١].

وبابطال هذين الأساسين؛ أعني ما ذكره ابن النديم من وجود جماعة من

---

(٨١) الخزانة ٤/٤٧٧.

الدارسين كانوا يخلطون المذهبين، ومن شيوع اسم البغداديين بازاء اسم الكوفيين واسم البصريين بطلت دعوى المحدثين بوجود مذهب ثالث، أو مدرسة ثالثة، هي مدرسة بغداد.

التسمية بالكوفيّة:

أما نسبة هؤلاء الدارسين البغداديين فمردها:

أن مؤسس مذهب البغداديين في النحو هو أبو الحسن علي بن حمزة الكسائيّ وهو انما ولد ونشأ وتعلم، وعرف قارئا، ورئيسا في القراءة بعد حمزة بن حبيب الزيات ـ في الكوفة، ولم يخرج من الكوفة ليتعلم العربية على شيخ العربية في البصرة؛ الخليل بن أحمد الفراهيدي الّا على كِبَر. كما قال الفراء [٨٢]. ولم يعد الى الكوفة الا بعد رحلة طويلة في بوادي نجد والحجاز وتهامة، يشافه الأعراب، ويحكي اللغات ويدوّن ما يسمع، وعاد الى الكوفة ثقالاً عيابه بالمكتوب والمحفوظ، ولكنه لم يكد يستقر به المقام في الكوفة حتى دعي الى بغداد ليؤدب اولاد الخليفة، ويتصدر مجالس الدرس، ويقرىء القرآن فيها.

وكان لثقافته الاولى في الكوفة، ومشافهة الاعراب في البوادي، وكثرة سماعه من الفصحاء تأثير واضح في مذهبه في النحو، ولم يفطن الدارسون لطبيعة المذهب الجديد الّا بعد المسألة التي جرت بينه وبين سيبويه عن قول العرب: «قد كنت اظن ان العقرب اشد لسعة من الزنبور فاذا هو هي، او فاذا هو اياها» فقد تمسك سيبويه بوجه الرفع لانه القياس، وجوّز الكسائيّ النصب ايضا، لان السماع يعضده. ويبدو ان الامر كذلك، لان أبا زيد الأنصاري حكى عن العرب: «قد كنت اظن ان العقرب أشدّ لسعة من الزنبور فاذا هو اياها» [٨٣] وكان الكسائي قد قال في

---

(٨٢) نزهة الألباء ٨٢ مصر.

(٨٣) انباه الرواة ٢/٣٥٩.

جوابه: « العرب ترفع في ذلك كله وتنصب »[٨٤].

هذا المذهب الذي يعتدّ بالسماع، ويترخص في الأصول الموضوعة مذهب جديد ظهر اول ما ظهر في بغداد وعلى يد الكسائي الكوفي. ثم تهيأ له دارسون تعهدوه ورعوه، واسهموا في ترسيخ أسسه. وفي مقدمة هؤلاء: أبو زكريا يحيى بن زياد الفراء الذي منح المذهب صورته الجديدة وشخصيته المتميزة. والفراء كوفيّ المولد والمنشأ ايضا. ولكنه اقام في بغداد بُعَيْدَ اقامة الكسائي فيها، وبقي فيها زمنا طويلا حتى وافاه الاجل. واستطاع الفراء بحذقه وفطنته انْ يعمّق جذور المذهب في نفوس الدارسين، ويثبّت اصوله في أذهانهم.

ثم جاء ابو العباس ثعلب البغدادي المولد والمنشأ، وتلمذ لتلاميذ الفراء، وفي مقدمتهم سلمة بن عاصم، فاقرأه كتب الفراء، ولم يمض عليه زمان طويل حتى حفظ كتب الفراء. وتصدر مجلس الدرس وهو ابن خمس وعشرين[٨٥]. ونشأ على مذهب الكوفيين الكسائي والفراء، لا مستخرجا للقياس ولا طالبا له، فاذا سئل عن الحجة والحقيقة في ذلك لم يعرف النظر »[٨٦]، وهذا هو المذهب الذي ساد مجالس الدرس، وعلى هذا الاسلوب اللغوي درب الدارسون البغداديون.

ثم جاء الجيل الذي تلمذ لثعلب، ثم للمبرد أيضا بعد وروده بغداد من سر من رأى، واعلامه كلهم بغداديون منشأ ودراسة. وكانت بغداد قد اجتذبت اعلام الدارسين في المصرين الكبيرين؛ الكوفة والبصرة، وكانت مجالس الدرس فيها غاصة بطلبة العلم، وقد اجتذبت شخصية المبرد، وحسن بيانه، وقوة جدله اكثر الدارسين الذين كانوا يختلفون الى مجلس أبي العباس ثعلب عالم بغداد وامام الدارسين فيها، ولم يستطع ثعلب أنْ

---

(٨٤) مجالس العلماء ٩، ياقوت ١٣/١٨٧، ١٦/١٢٠.
(٨٥) ياقوت ٥/١٤٠.
(٨٦) ياقوت ٥/١٢٠.

يصبر عن انقطاع تلاميذه عنه واختلافهم الى مجلس المبرد، فبدأ الصراع هادئا اول الامر بين الرئيسين ثم أخذ يشتد شيئًا فشيئا بازدياد رسوخ المذهب الجديد الوافد وبالتفاف تلاميذه القدماء حول المبرد. وقد بدأت الحملات بين الرجلين مناظرة، وتهاجيا، وانجرت هذه الخصومة الى تلاميذ الشيخين، واعادت هذه الخصومة ذكريات الخصومة القديمة التي كان يثيرها متعصبون من البصريين من جهة ومن تلاميذ الكسائيّ والفراء من جهة اخرى، واستطاع المبرد أنْ يُثبّت قواعد مذهب البصريين في بغداد، وأن يميّز مذهبه من مذهب منافسه بتسمية مذهبه بالبصريّ، وعمل على تثبيت هذه التسمية بنشر فضائل المذهب وشيوخه القدماء، فصنف كتابا سماه: طبقات النحويين البصريين [٨٧].

ولعل تصنيف أبي سعيد السيرافي كتابه في (أخبار النحويين البصريين) كان تأكيدا لما بدأه المبرد، وقد قصره على النحويين البصريين تجاهلا لمنافسهم، وغمزا لهم، وايماء الى أن غير البصريين ليسوا في العلم بدرجة يذكرون معها بازاء البصريين.

واذ اشاع المبرد هذه التسمية، واستطاع ان يفرضها، ويثبّتها في اذهان الدارسين كان تلاميذه واصحابه يعتزون بها وينتصرون لها، ومن هنا انشئوا اسم الكوفيين تمييزا لانفسهم من خصومهم، واستعادة لتلك الخصومات الاقليمية القديمة التي كانت تثار بين المصرين الكبيرين، وتعقد بين وفودها المجتمعين في مجالس الخلفاء والامراء.

ولم تكن هذه التسمية الّا من صنع تلاميذ المبرد المتحمسين لمذهب البصريين، ثم انسحب هذا الاسم على اوائل الدارسين البغداديين الكسائي والفراء وأصحابهما.

أما الكوفيون انفسهم فلم يكونوا يعرفونها، ولم يسمّ احد منهم مذهبه

---

(٨٧) بغية الوعاة ١/٢٧٠.

بالكوفيّ، ولا أصحابه بالكوفيين، ولم يسمهم بها خصومهم الاولون، وقد استعرضنا أقوال الدارسين الاولين فلم نسمع أحدا منهم كان قد سماهم بهذا الاسم، واذا أرادوا أن يُشيروا اليهم على أنهم بغداديون أو عراقيون، حتى المبرد نفسه كان اذا تحدث عنهم سماهم بالبغداديين.

ولم يسم تلاميذ المبرد خصومهم بالبغداديين، لأن هذا الاسم ينسحب عليهم لانهم بغداديون ايضا. وبتسمية تلاميذ ثعلب الذين لازموا مذهبه بالكوفيين تميَّزَ رجال هذا الجيل بعضهم من بعض.

وبالرغم من اصرار البصريين من رجال هذا الجيل على تسمية خصومهم بالكوفيين لم ينس الدارسون اسم البغداديين، لذلك نجد هذا الاسم يتردد في مصنفاتهم الى جانب الاسم الجديد، كما رأينا ابن جني في الخصائص يورد الاسمين جميعا، والمعنى واحد، وكان ورود الاسمين في بعض المصنفات في هذا العصر مصدر وَهْمِ المتأخرينْ أنّ البغداديين فريق، والكوفيين فريق آخر، فراحوا يوردون الرأي الواحد وينسبونه الى الكوفُيين حينا، والى البغداديين حينا آخر، وبقي الدارسون في العصور المتعاقبة يخوضون في هذا الوهم، ولم يلتفتوا الى انهما اسمان لمسمى واحد.

وجاز هذا الوهم على الدارسين المحدثين فراحوا يتمسكون به، ويثبتون عليه فكرتهم بوجود مذهب ثالث او مدرسة ثالثة سموها بمدرسة بغداد، لينسجم هذا الاسم مع اسمي المدرستين الكبيرتين مدرسة البصرة ومدرسة الكوفة، ووجدوا من كلام ابن النديم والزجاجي والسيرافي ومَنْ تابعهم وحكى عنهم ما ينصر في الترويج لفكرتهم.

غير ان هذه الفكرة التي قامت على هذين الأساسين لم تصمد امام البحث، لأنها فكرة لم تخرج عن حدود النظرية التي لم تجد سبيلا الى التطبيق ولأن أصحاب هذه الفكرة لم يستطيعوا ان يصوروا هذا المذهب، او يهتدوا الى خصائصه، او يرسموا خطوطه المذهبيَّة.

واكبر الظن ان الزجاجيّ بصريّ المذهب، لا تكاد تجد في كتبه دفاعا عن رأي كوفيّ، أو موافقة لدارس كوفي في قول، ولم يظهر في اقواله ما يؤيد أنه أفاد من الشيوخ الذين سماهم بالكوفيين، ووصفهم بانهم قدوة اعلام في علم الكوفيين، كابن كيسان وابن الخياط وابن شقير، وكتابه (الايضاح) حافل بتصديه للكوفيين ومناقشتهم وتضعيف آرائهم.

ثم جاء ابو البركات الأنباري فأكمل العمل الذي بدأه الزجاجيّ، وغلا في خصومته للكوفيين، وعرض في كتابه احدى وعشرين ومئة مسألة، وبسط فيه احتجاجات نسبها الى الكوفيين، لم يسمع مثلها من كوفيّ، ولا كان لمثلها مكان في مصنفات الكوفيين، وربما أورد آراء واحتجاجات غفلا من اسماء اصحابها على أنها كوفية، ثم ينقض عليها تضعيفا وتفنيدا، ولم يسلم برأي كوفيّ الّا حين تعوزه الحجة ويخونه الدليل.

اما الجماعة التي قيل انها خلطت المذهبين فهي جماعة من الدارسين لم يجدوا في انفسهم ما يدعو الى التحرّج في الاخذ عن هذا، او ذاك، او الحكاية عن هذه الطائفة او تلك، وكانوا يأخذون عن الطائفتين من الآراء ما يتفق مع آرائهم الخاصة، فتلقوا عن هذا الفريق وعن ذاك، واختلطت الحكايات في أذهانهم، ووجد لذلك صدى في كتبهم. وربما كان الطابع لدارس بعينه بصريا فاذا حكى عن كوفي بعض الأقوال فان ذلك لم يثنه عن الالتزام بخط المذهب البصري العام. وقد يكون الدارس كوفيا ولا يجد في الاخذ عن بعض البصريين ما يتعارض مع خط مذهبه العام.

هذا هو ما أفهمه من (خلط المذهبين)، وقد انبنى فهمي هذا على صنيع السيرافي وابن النديم. فقد جعل السيرافيّ ابن كيسان في النحويين البصريين. وفي طبقة الزجاج حين ترجم له في (اخبار النحويين البصريين). واليهما في نظره انتهت الرئاسة في النحو بعد المبرد، مع عرفانه انه كان يخلط المذهبين. وعدّ ابن النديم أبا موسى الحامض فيمن خلط المذهبين، وقد يكون هذا واقعا، ولكن الحامض كان كوفيا ينتصر للكوفيين

ويتعصب على البصريين[88] ولم يصرفه عن كوفيته انه أخذ عن هذا البصري أو ذاك، ولا أن اتفق رأيه مع رأي بعض البصريين، كذلك عدّ ابن النديم فيمن خلط المذهبين دارسا عاصر ثعلبا، ولكنه لم يأخذ عنه، ولا عن احد غيره من الكوفيين وهو ابن قتيبة، وكل ما كان من ابن قتيبة انه حكى في كتبه من أئمة الكوفيين امثال الكسائي والفراء، وكانت حكايته عنهم لافتاً اذهان الدارسين، فمن كان منهم غير مشارك في الصراع المذهبيّ نظر الى ابن قتيبة على انه طراز جديد من الدارسين، لم يتحرج في الحكاية عن الكوفيين، ومن كان منهم مشاركا جعل حكايته عنهم مطعنا عليه، كما فعل أبو الطيب اللغويّ حين عرض له في (مراتب النحويين).

أما أنْ يكون معنى خلط المذهبين هو الانتخاب من مزايا كلا المذهبين، وتوحيد ذلك في مذهب مستقل، كما ذهب اليه بروكلمان واحمد أمين وشوقي ضيف فلا اظنه كان يتردد في ذهن ابن النديم، ولا في اذهان الدارسين الذين ذهبوا مذهبه، ولم يبد من أقوالهم ما يدل على انهم كانوا يختارون من هذا المذهب او ذاك على أساس مذهبيّ مخطّط، بدليل ان هؤلاء الذين قيل انهم خلطوا المذهبين يمكن ان يلحقوا بالفرقين، مثل أبي الحسن بن كيسان وابي بكر بن شقير. فهذان الدارسان في نظر الزجاجيّ معدودان في الكوفيين، لانهما من العلماء الذين كانوا قدوة إعلاما في علم الكوفيين[89]، وأبو بكر بن شقير خصوصا كان أشد ميلا الى الكوفيين، وكان «شديد التعصب مع الكوفيين على البصريين»[90].

فلو كانُ ابن النديم وغيره يعنون بمن خلط المذهبين ما فهمه المحدثون لما جعل ابن النديم ابن قتيبة فيهم، لأنه لم يأخذ عن احدٍ من الكوفيين، وكان اعتماده أولا وآخرا على البصريين، أخذ النحو عن الرياشيّ، واللغة

(٨٨) بغية الوعاة ١/٦٠١.
(٨٩) الايضاح في علل النحو ٧٩ ط ١.
(٩٠) الايضاح ٨١.

عن السجستانيّ. ولا الزجاجيّ ايضا، مع انه معدود فيهم وسالك هو نفسه في البصريين. بالرغم من انه كان قد تلمذ للبصريين والكوفيين.

على أن منَ المستغرب ان يذهب المحدثون الى وجود مذهب ثالث، ثم يستخلصون مما ذهبوا اليه نتائج لا واقع لها، دون ان يرسموا خطوط هذا المذ ب المزعوم، او يبينوا خصائصه، وكل ما قالوه انه مذهب قام على الانتخاب من المذهبين، وهو قول غامض، وزعم لا يقوم على اساس، وهو قول خير ما يقوّم به انه وهم وتخليط.

شوقي ضيف والمذهب البغداديّ المزعوم:

ومن امثلة التخليط الذي وقع فيه المحدثون المعاصرون: ما جاء في (المدارس النحوية) فقد عرض الدكتور ضيف في كتابه هذا لما سماه بالمدرسة البغدادية، فقال: «اتبع نحاة بغداد في القرن الرابع نهجا جديدا في دراساتهم ومصنفاتهم النحوية يقوم على الانتخاب من آراء المدرستين البصرية والكوفية جميعا، وكان من أهم ما هيّأ لهذا الاتجاه الجديد انّ أوائل النحاة تتلمذوا للمبرد وثعلب، وبذلك نشأ جيل يحمل آراء مدرستيهما، ويعنى بالتعمق في مصنفات اصحابهما، والنفوذ من ذلك الى كثير من الآراء النحوية»[٩١].

ثم قال: «وحاول بعض الباحثين المعاصرين ان ينفي وجود المدرسة البغدادية معتمدا على من ينظمون افرادها في البصريين والكوفيين، وأنّ علمين من اعلام جيلها الثاني ينسبان انفسهما في البصريين، وهما أبو علي الفارسيّ وتلميذه ابن جنّي، اذ يعبران في تصانيفهما عنهم كثيرا بكلمة (اصحابنا) وينتصران في اغلب الامر للآراء البصرية، وكثيرا ما يطلق ابن جني على الكوفيين اسم البغداديين، وكأنهم مدرسة واحدة»[٩٢].

---

(٩١) المدارس النحوية ٢٤٥.

(٩٢) المدارس النحوية ٢٤٥.

ولم ير الدكتور ضيف في هذا ما يكفي لنفي وجود المدرسة البغدادية، لأنهما، وان نسبا انفسهما الى البصريين، كانا يتبعان في مصنفاتهما لمذهب البغداديّ الانتخابي، وغلبة النزعة البصرية «لم تخرجهما عن دوائر الاتجاه البغداديّ القائم على الانتخاب من آراء البصريين والكوفيين» [٩٣].

ثم جعل الدكتور ضيف البغداديين جيلين:

يبدأ الجيل الاول بابن كيسان، ويختم بالزجاجيّ.

وجعل من الجيل الثاني أبا عليّ الفارسيّ، وابا الفتح بن جنّي.

وقد اعتمد في القول ببغدادية هؤلاء، فيما اظن، ما وجده عند ابن النديم من أنّهم كانوا يخلطون المذهبين، وما وقف عليه من آراء لهم يتفقون في بعضها مع البصريين، وفي بعضها الآخر مع الكوفيين.

غير ان هذا لم يكفِ في القول ببغداديتهم، لان ابن النديم اذ يجعل هؤلاء فيمن خلط المذهبين لم يبدُ عليه انه كان يلمح في مصنفاتهم وآرائهم أنهم ينهجون نهجا جديدا يقوم على الانتخاب والمزج والتوحيد، ولكنه رأى عندهم حرية في الأخذ عن هؤلاء وهؤلاء لم يعهدها في البصريين من قبل، لان البصريين كانوا يروون الحكاية عن الكوفيين مأخذا على الدارس، لانهم كانوا لا يرون في الكوفيين «من يوثق به في كلام العرب، ولا من يُرتضى روايته، فإن ادّعى احد منهم شيئا رأيته مخلّطا صاحب تطويل وكثرة كلام ومكابرة» [٩٤] ولذلك لم يرو احد من البصريين عن الكوفيين بعد ابي زيد الأنصاريّ، ولم أهتد في حملة ابي الطيب اللغوي على ابن قتيبة الى سبب غير انه لم يكن يتحرج في حكايته عن الكسائيّ والفراء وغيرهما من الدارسين البغداديين.

فاذ رأى ابن النديم فيهم هذا جعلهم في جماعة ثالثة غير ناظر الى النزعة

---

(٩٣) المدارس النحوية ٢٤٦.

(٩٤) مراتب النحويين ١٠١.

البصرية عند بعضهم، او النزعة الكوفية عند بعضهم الآخر، وان تلمذوا لثعلب والمبرد، وحكوا عنهما في مصنفاتهم.

ومن هنا يبدو مدى تمحّل الدكتور ضيف في جعله ابن كيسان والزجاجي وأبا علي الفارسيّ وأبا الفتح بن جني أعلاما لمدرسة بغداد المتوهّمة، لان حكاية هؤلاء عن الكوفيين أو اختيارهم بعض آرائهم لم تفصلهم عن النزعة القوية التي تشدهم الى البصريين.

أما ابن كيسان فلم يستقر القدماء على رأي فيه، فبينا كان ابن النديم يعده من الجماعة التي خلطت المذهبين اذ كان الزجاجيّ يرى أنه من علماء الكوفيين الذين كانوا قدوة إعلاماً في علم الكوفيين، وكان السيرافيّ يعده في البصريين، ويرى أنّ الرئاسة في النحو البصري آلت اليه والى الزجاج بعد أبي العباس المبرد » [٩٥].

أكبر الظن أن القدماء اذ جعلوا ابن كيسان فيمن خلط المذهبين لم ينظروا الى خصائص طريقته، وانما نظروا، في أكبر الظن، الى أنه كان واقفا على آراء البصريين والكوفيين بتلمذته لثعلب والمبرد، ووقوف الدارس على آراء مدرسة بعينها لا يعني أنه من رجالها، ما لم يكن آخذا بأسلوبها في تناول الموضوعات بالدرس، ولا أرى ابن كيسان الّا بصرياً، لأنه كان ينزع منزعا بصريا بعنايته بالعلل، واحتذائه المناطقة، وتلك سمة من أبرز سمات المذهب البصريّ في النحو.

وأما الزجاجيّ فلا أظن موقف الدكتور ضيف منه أحسن من موقفه من ابن كيسان، فقد كان في كتابه (الايضاح) مطبوعا بطابع بصريّ أصيل، وكان هو يتحدث عن نفسه تحدث البصريّ، وكان يقف من الكوفيين موقفا اذا لم يكن أثر التعصب عليهم واضحا وضوحه في موقف أبي حاتم السجستاني منهم فهو موقف الغريب عنهم فلم يكد يتناول مسألة

(٩٥) انظر: أخبار النحويين البصريين ١٠٨ بيروت.

من مسائل الكوفيين الّا كان لها مضعّفا، وكان يصرّح في وضوح أنه يجهل علم الكوفيين وآراءهم، وأنه اذا أراد الوقوف على رأي الكوفيين نشده عند ابن كيسان وابن شقير وابن الخياط وكان يقول: «وأكثر ما أذكره من احتجاجات الكوفيين انما أعبر عنها بألفاظ البصريين»[٩٦].

يضاف الى ذلك أنّه انما قرأ على بصريين، على أبي اسحاق الزجاج، ثم أبي بكر بن السراج، وانه كان ينتصر لمذهب البصريين، ويسلك نفسه فيهم، ويستمسك بمصطلحاتهم وعباراتهم، وينتهج منهجهم في الاحتجاج والاعتلال. وان الدكتور ضيف نفسه يرى أن الزجاجيّ كان ينحو في كتابه (الايضاح) منحى البصريين «ومن يقرأ الكتاب يرى الفلسفة والمنطق وعلم الكلام والفقه، أو بعبارة أدق عللها جميعا تمسّ جوانب التعليل والاحتجاج به»[٩٧].

الحق أنه ليس في كتاب «الايضاح» ما يشير الى أنه كان يستند في بعض أقواله الى رأي كوفيّ، فقد كان يتحدث فيه عن حدود الاسم والفعل والحرف، ويوازن بين حدود المناطقة وحدود النحاة، ويعرض لبعض مسائل الخلاف بين البصريين والكوفيين، كأصالة المصدر او الفعل، وكالكلام على علل النحو، وكمسألة سبق الاعراب الكلام أو سبق الكلام الاعراب، ومسألة دخول الاعراب في الكلام، ومسألة حقيقة الاعراب أهو حركة أم حرف، ومسألة المستحق للاعراب من أقسام الكلمة، ومسألة الأسبق من أقسامها في المرتبة، وغيرها. وكان الزجاجيّ يعرض حجج الفريقين، ويحتجُّ لها باحتجاج عقليّ لا تجد له صدى فيما قرأنا من أقوال الكسائيّ والفراء وثعلب، وكان ينتهي في كل مسألة الى ترجيح مذهب البصريين، وتضعيف مذهب الكوفيين فعل ابي البركات الانباري من بعده في كتابه (الانصاف).

---

(٩٦) الايضاح ٧٩، ٨٠.

(٩٧) المدارس النحوية ٢٥٢، ٢٥٣.

ولم يلتفت الدكتور ضيف الى التناقض الواضح في أقواله، في ذهابه الى أن الزجاجيّ من أعلام الجيل الاول من البغداديين الذين يحملون آراء المدرستين، وقوله: كان الزجاجيّ «يقف عند اختلاف البصريين والكوفيين في المصدر والفعل أيها مأخوذ من صاحبه، ويفيض في بيان احتجاجات كل فريق محاولا اضعاف الحجج الكوفية»[98]، وقوله: «كل مسألة يرى فيها جدالا أو حجاجا بين البصريين والكوفيين يوردها مفصّلا القول فيها، وقد يضيف من عنده وجوها من العلل والاقيسة، وهي جميعا تغمس في اصطلاحات المناطقة، والمتفلسفة، والمتكلمين، واصحاب الاصول، ونحسّ في وضوح انه يقف مع البصريين مناضلا مدافعا، مما يؤكد نزعة بصرية قوية في مباحثه»[99].

ولعل هذا يكفي في الاقتناع بما جاء في كلام الدكتور ضيف من تناقض لم يوفق معه الى التوفيق بين مكان الزجاجيّ في البغداديين، ونزعته البصرية القوية، او محاولته اضعاف الحجج الكوفية، أو غمس احتجاجاته في اصطلاحات المناطقة والمتفلسفة، والمتكلمين والأصوليين.

أمّا حديثه عن الجيل الثاني من أتباع مدرسة بغداد الذين حملوا آراء البصريين والكوفيين وتعمقوا في مصنفات الفريقين، كما قال، فلا يختلف عن حديثه عن ابن كيسان والزجاجيّ خلطا، فهو اذ يحاول فيه أن يقنع الدارسين ببغداديته يرى:

أن أبا عليّ الفارسيّ، وهو على رأس الجيل الثاني من البغداديين، كان يغلو في القياس، وكان ابن جني «يتعجب كثيرا من مهارته في القياس، حتى ليقول: ما كان أقوى قياسه، فكأنه مخلوق له. ويُروى عنه قوله: أخطىء في خمسين مسألة في اللغة ولا أخطىء في واحدة من القياس»[100].

---

(٩٨) المدارس النحوية ٢٥٣.
(٩٩) المدارس النحوية ٢٥٣، ٢٥٤.
(١٠٠) المدارس النحوية ٢٦٤.

وأنّ ابن جنّي في الخصائص « يردد حديثه عن البصريين باسم أصحابنا، كما مرّ في غير هذا الموضع، وكثيرا ما يضعهم مقابل البغداديين ». على أنه ما لبث أن قال: « انه يريد بالبغداديين أوائلهم ممن كانوا ينزعون الى الكوفة مثل ابن كيسان، وهم حقا من ذوق غير ذوقه، ومن هوى غير هواه، فهو بغدادي من طراز آخر، طراز أستاذه أبي عليّ الفارسيّ والزجاجيّ، طراز كان ينزع الى البصريين، وهو الطراز الذي عمّ وساد منذ النصف الثاني من القرن الرابع الهجري »[١٠١].

وهذا الكلام انما ينمّ على احساس قويّ بأن أبا الفتح بن جنّي وأستاذه أبو عليّ الفارسيّ وأبا القاسم الزجاجيّ كانوا بصريين مذهبا وكانوا يضعون انفسهم مقابل البغداديين الذين هم أوائل الدارسين في بغداد: الكسائيّ والفراء وثعلب.

ولكن هذا الاحساس القويّ ببصرية هؤلاء يقابله احساس قويّ بالتورط في القول بوجود المدرسة البغدادية التي كان أعلامها يحملون آراء البصريين والكوفيين، ويتعمقون في مصنفات الفريقين. ولذلك زعم أن ابن جني يريد بالبغداديين أوائلهم ممن كانوا ينزعون الى الكوفة مثل ابن كيسان، ولم يكن ليقول هذا لو لم يقف على زعم الزجاجيّ نفسه بأن ابن كيسان من علماء الكوفيين الذين كانوا قدوةً إعلاماً في علم الكوفيين.

لقد كان الدكتور ضيف في زعمه هذا يقف على منحدر من الرأي لم يستطع تثبيت أقدامه فيه، ولذلك لم تستو الحجة عنده، ولم يجد من منحدره منجاة فظل سادرا في وهمه لا يلوي على شيء.

وهذا الذي ذكره هنا هو الذي كان (گوتولدڤايل) يراه من قبل، فقد كان يرى أنّ « طريقة البغداديين جميعا كانت في أسسها بصرية، فهم لم يكونوا مدرسة ذات اتجاه خاص يسوغ تسميتها مدرسة مزج واختيار،

---

(١٠١) المدارس النحوية ٢٦٨.

بل يمثلون دراسة في دائرة النحو البصريّ يزيد من أهميتها وقيمتها أنها بدأت في ذلك الوقت بتجريد نظام القياس النحويّ على وجه دقيق، ولذلك سرعان ما فقد أيضا ذلك الاسم الخاص دلالته. واذا كان البغداديون في المواضع القليلة التي يرد أمرهم، لأنه انما يذكر رأيهم الخاص في الأحوال التي يخالفون فيها آراء البصريين العامة» [١٠٢]. غير أن (ڤايل) لم يناقض نفسه، ولم يتورط بادعاء أنهم بغداديون، وهم ينزعون الى البصرية.

ومن آثار التورط في موقف الدكتور ضيف ما وقع فيه من وهم وتخليط بجعل أبي البركات الأنباريّ المتعصب للبصريين على الكوفيين واحدا من اتباع المدرسة البغدادية، متشبثا في ذلك بأوهى الأسباب، فقد زعم أن أبا البركات بغداديّ «على شاكلة أبي علي، فهو يجري في جمهور آرائه مع البصريين، ويفتح الأبواب لاختيار بعض آراء الكوفيين» [١٠٣].

ذلك أنه وافق الكوفيين في سبع مسائل من احدى وعشرين ومئة مسألة ولم يثنه عن وهمه هذا معرفته بمصادر دراسته وأسلوبه في تناول موضوعات النحو ومسائله بالدرس، ونزعته النظرية العقيمة، واسرافه في التعصب للبصريين على الكوفيين.

وقد نسي الدكتور ضيف أو تناسى أن الدارس الذي ينتمي الى مذهب من المذاهب ربما كان له وجهة نظر خاصة يخالف بها أصحابه في المسائل، ولا يخرجه ذلك عن دائرة المذهب الذي ينتمي اليه، وأمثلة هذا أكثر من أن تحصى.

فقد خالف سيبويه أستاذه الخليل في بعض المسائل، وخالف الاخفش سيبويه، وخالف المبرد سيبويه أيضا، ونقض كثيرا من آرائه، ولم يخرج هؤلاء من مكانهم الذي احتلوه في الدائرة البصرية.

---

(١٠٢) مقدمة (ڤايل) لكتاب الانصاف ـ ترجمة الدكتور عبد الحليم النجار.
(١٠٣) المدارس النحوية ٢٧٨.

وخالف الفراء الكسائيّ في كثير من المسائل، وخالف هشام الكسائيّ والفراء في مسائل، وخالف ثعلب الكسائيّ والفراء، ولم يخْرج الفراء، ولا هشاما ولا ثعلبا عن المكان الذي شغلوه في الدائرة الكوفية أنهم خالفوا مَنْ خالفوه من أصحابهم.

ومن ثقافة الدارس والفروق العقلية بين الدارسين ما يسمح بمثل هذا الخلاف، بل ما يمهد الطريق إلى مثله، ولكنه لا يمس الخطوط العامة للمذهب الذي ينتسبون اليه.

كان أبو البركات قد رجّح رأي الكوفيين في سبع مسائل من إحدى وعشرين ومئة مسألة لا تمثل جميع مسائل الخلاف، حين أعوزته الحجة التي ينتصر بها لمذهبه، وقام الدليل القاطع على صحة مقالة الكوفيين فيها فلم يسعفه ذكاؤه ولا قدرته على التزييف في اخفاء وجه الصواب فيما ذهبوا اليه، ولا يعني هذا أنه كان يفتح الأبواب لاختيار بعض آراء الكوفيين، وينتخب من مزايا مذهبهم ما يوحده مع مزايا مذهب البصريين، واطلاق مثل هذا القول الذي لا يدل على عمق في تصوّر المذهب من التخليط الذي لا يقره منطق البحث.

ان تلاميذ ثعلب والمبرد الذين ذكرهم ابن النديم على أنهم خلطوا المذهبين لم يكونوا فريقا واحدا، ولم ينتسبوا الى مذهب واحد، فقد كان منهم من انحاز الى المذهب البصريّ انحيازا تاما، وانقطع عن المذهب الكوفي انقطاعا تاما، وكان أبو اسحاق الزجاج رأس هؤلاء، وكان ينبغي لابن النديم أن يعده فيمن خلط المذهبين، لأنه أخذ عن ممثلي المذهبين، بل كان اعتماده في الدرس النحوي أولا على ثعلب، وكان يلازمه ويستكثر عنه، ولم ينقطع عنه الّا بعد ورود المبرد بغداد، لكنه لم يُعَدّ فيمن خلط المذهبين، ولم يذكره احد مع البغداديين. وكان اصحاب الطبقات، اذا ترجموا له يتحدثون عن رئاسته في النحو البصريّ بعد المبرد، مَثَلُه كمثل أبي بكر بن السراج الذي لم يشك دارس في بصريته، ولا ملازمته مذهب

المبرد والزجاج، وكان ابن السراج من قبل قد تلمذ للمبرد حدثا، وكان المبرد يعنى به، ويقربه، ويختصه بعنايته[١٠٤]، والى ابن السراج انتهت الرئاسة في النحو البصريّ بعد أبي إسحاق الزجاج، ولكنه، مع ذلك، كان يكثر من نقوله عن الكوفيين، ولم يخرجه هذا عند ابن النديم الى الجماعة التي كانت تخلط المذهبين، ولا كان في نظر الدكتور ضيف معدودا من المتعمقين في مصنفات الفريقين، ولا تشبث بنقوله الكثيرة في (اصوله) عن الكوفيين في جعله من البغداديين، كما تشبث بموافقة الانباري الكوفيين في سبع مسائل فقط لعده من البغداديين.

وكان منهم [من تلاميذ ثعلب والمبرد] من لزم المذهب الكوفيّ، وغلبت عليه النزعة الكوفية، وانتصر للكوفيين، وثعلب على البصريين مثل ابن كيسان، وابن شقير وابن الخياط، وكانوا في رأي الزجاجيّ من علماء الكوفيين الذين كانوا قدوةً إعلاماً في علم الكوفيين، ولم يخرجهم عن الدائرة الكوفية أنهم تلمذوا لممثلي المذهبين، وجمعوا علم البصريين الى علم الكوفيين.

واذا كان الدكتور ضيف يعني ما يقول حقا حين قرر ان طراز أبي عليّ وأبي الفتح طراز كان ينزع الى البصرة، وهو الطراز الذي عم وساد منذ النصف الثاني من القرن الرابع، فكان ينبغي ان يتوقف قلمه عند هؤلاء، ولا يتجاوز هذا القرن، وان يكف عن التمادي في التحدث عن المدرسة البغدادية، وان يكبح جماح قلمه وذهنه فلا يطوي العصور، ويقطع المسافات، فيسم الدارسين هنا وهناك بميسم البغدادية المفتعلة، ويطوي بمزاعمه الاندلس والمغرب ومصر فاذا بالنحاة على اختلاف عصورهم وعلى تباعد مواطنهم ينضوون جميعا في ظل (البغدادية)، ثم يوغل في ارتكاب التناقضات، فاذا بهؤلاء الدارسين متقدمين ومتأخرين يُوَحَّدون، ويُسْلَكون في البغداديين، ثم يفرقون الى مدارس؛ مدرسة اندلسية ومدرسة مصرية،

(١٠٤) فهرست ابن النديم ٩٢.

حتى لم يعد في أذهان الدارسين مفهوم محدد للمذهب، ولم يبق فيها مدلول معين للمدرسة.

الأنصاريّ والمدرسة البغدادية المزعومة:

كانت فكرة المذهب البغـداديّ، أو المدرسـة البغـداديـة قـد راقـت لدارسين قبل الدكتور ضيف، لعل أبرزهم هو الدكتور احمد مكي الانصاريّ صاحب كتاب (أبو زكريا الفراء).

أقام الدكتور الانصاريّ رأيه على الاساس الذي استند اليه من قبل (فلوجل) و(بروكلمان) ثم أحمد أمين الذي اليه يرجع الدارسون المحدثون في تصورهم المذهب الثالث القائم على اساس الاختيار والمزج والتوحيد، اعني الاختيار من آراء البصريين والكوفيين، وخلط تلك الآراء، ثم توحيدها في مذهب ثالث ما هو بالبصريّ ولا بالكوفيّ.

غير أن الدكتور الأنصاري جاء في كتابه هذا برأي غريب أوقعه في خلط وتناقض لم يوفق الى الخروج منها، لأنّ هذا المذهب الثالث انما يقوم على تصوّر مذهب بصريّ، ومذهب كوفيّ. ولم يفت الدكتور الانصاري هذا التصوز، فقد عقد في كتابه فصلا عرض فيه لمقومات مذهب البصريين ومقومات مذهب الكوفيين، ليمهد به سبيله الى تصوير مذهب ثالث يقوم على اساس من الاختيار من المذهبين، ومزج هذا المختار، وتوحيده في مذهب ثالث جديد ليس بصريا ولا كوفيا.

كان الدكتور الانصاريّ قد سبق الدكتور ضيف في الوقوع في شبهة (البغدادية) الّا ان خطواته في تصويرها أقرب الى خطوات الباحث، لأنه قدّم بين أيدي الدارسين خصائص المذهب البصريّ، وخصائص المذهب الكوفيّ، ولم يتعسف فينكر أن يكون للمدرسة الكوفية وجود، ولم يستبح أصالتها فينسب مذهبها الى يونس بن حبيب كما فعل (ڤايل)، أو الى سعيد بن مسعدة الاخفش، كما فعل الدكتور ضيف مؤلف (المدارس

النحوية)، وذلك أنه قال: «ان الذي لا مناص منه أن المدرسة الكوفية حقيقة تاريخية كانت لها شخصيتها المستقلة في فترة من الزمن» [١٠٥].

الّا أنه لم يسلم من الوقوع في التخليط عند التطبيق، فقد بدأ المدرسة الكوفية بأبي جعفر الرواسيّ، وختمها بأبي جعفر الرواسيّ، وجعل الرواسي يبدو وكأنه استاذ المدرسة وتلميذها.

أما الكسائيّ فكان يمزج المذهبين، لأنه لم يخلص للكوفية، كما لم يخلص للبصرية.

وأما الفراء فقد تعهّد ما بناه الكسائي بالرعاية وأتمّه، واستوى الدرس النحوي الجديد الذي يقوم على الاختيار والمزج على يديه درسا حياً له شخصيته المتميزة، وطابعه الخاص. واذا كان الكسائيّ هو واضع رسوم المذهب، فقد جاء الفراء من بعده ليكسب المذهب ملامحه، وليبرز شخصيته.

ولم يرد الدكتور الانصاري لصاحبه أن يكون من الكوفيين، لأنه فيما كان يراه فيه لم يلتزم بما ألزم الكوفيون أنفسهم من خصائص المذهب، وكان يمزج الآراء الكوفية بالآراء البصرية، فهو اذن طراز جديد من الدارسين، فبينا هو كوفيّ باعتداده بالسماع، واحترامه القراءات اذ به بصريّ في تمسكه بالقياس، ووقوفه في وجه الشواذ، وطعنه على القراءات السبع على حد قوله فهو إذن يجمع في دراسته خصائص ما أخذه عن الكوفيين، وخصائص ما أخذه عن البصريين، وهو جدير بأن يكون مؤسس مدرسة بغداد التي تمخض منها تلاقي المدرستين وامتزاج مزاياهما في دراسته.

ولم يكتف الدكتور الأنصاريّ بأن يبعد عن المدرسة الكوفية أحذق رجالها ويقصرها على أبي جعفر الرواسيّ، فيجعل منه أستاذ المدرسة وتلميذها وراسم مذهبها، بل تجاوزه الى حدود أبعد والى مدى أوسع،

---

(١٠٥) أبو زكريا الفراء ٣٥٨.

فزعم أنه وضع يده على البذرة الاولى للمذهب البغداديّ عند عيسى بن عمر المتوفى سنة ١٤٩ للهجرة، فرآه «يمزج الى علمه البصريّ ظلالا من خصائص المدرسة الكوفية، فكان يقيس على الشاهد الواحد النادر شأنه في ذلك شأن الكوفيين»[١٠٦].

وكان يمكن للدكتور الانصاري ان يكون منطقياً لو انه عكس الامر فذهب الى تأثر الكوفيين بمذهب عيسى بن عمر في قياسهم على الشاهد الواحد النادر، ويكون عيسى بن عمر هو الموجه الحقيقي للدرس الكوفيّ الذي عُرف عند الكسائيّ والفراء وتلاميذهما، ويكون الدكتور الانصاريّ حينئذ ثالث اثنين كانا قد سلبا الدرس الكوفيّ أصالته، ونسباه الى مُوجّه بصريّ. وهما (ڤايل) والدكتور ضيف.

ولكنه جعل عيسى بن عمر هو ملهم البغداديين وموجههم الى الاختيار والمزج والتوحيد، وجعل الفراء هو المؤسس الحقيقي للمدرسة البغدادية، لان مذهبه يقوم «اساسا على التحرر من قيود العصبية المذهبية، فهو ينزع منازع اهل البصرة حينا، كما ينزع منازع اهل الكوفة احيانا، لهذا رأيناه يمزج بين المذهبين، ويختار أحسنهما في نظره، واقربهما الى منهجه الخاص، ذلك الذي رأينا فيه كل مقومات المذهب البغداديّ، فقلنا: انه المؤسس الحقيقي لهذا المذهب الجديد، وما المذهب البغداديّ الاّ تحررّ ومزج وتجديد»[١٠٧].

ولا يستطيع الدارس ان يتصور كيف كان الفراء هو المؤسس الحقيقي لهذا المذهب الجديد، وقد سبقه اليه اعلام الدارسين مثل عيسى بن عمر، ويونس بن حبيب، وابي زيد الانصاريّ، وسعيد بن مسعدة الاخفش، والكسائي، ولا كيف تكون البذرة الاولى للمذهب البغداديّ عند عيسى ابن عمر، ألم يكن عيسى هو استاذ ابي جعفر الرواسيّ الذي قدّر له ان

(١٠٦) ابو زكريا الفراء ٣٦٤.

(١٠٧) ابو زكريا الفراء ٣٩٥.

يكون وحده هو مدرسة الكوفة، لانه الاستاذ والتلميذ والمذهب، ولا أحد غيره يشاركه؟

اذا كان عيسى بن عمر يمزج المذهبين فينبغي انْ يرجع الدكتور الانصاري القهقرى ليُسّمي دارسين كوفيين عرف لهم مذهب تأثر به عيسى فراح يمزجه بمذهب البصريين، ولكنه لم يفعل، لانه انتهى الى أن أبا جعفر الرُواسيّ تلميذ عيسى هو رئيس مدرسة الكوفة.

الحقّ أن هذه المزايا الجديدة التي رآها الدكتور الانصاريّ في صاحبه بثالوثها، التحرر والمزج والتجديد انما هي مزايا الدرس النحوي الذي وقف بازاء المذهب البصريّ، وبسط نفوذه على بيئات الدرس في بغداد.

وان الدارسين الكوفيين البغداديين هم الذين تحرروا من ربقة تحكيم العقل في الدرس النحوي والدرس اللغوي، وهم الذين مزجوا ما تلقوه من نحو بصريّ الى ما اضافوا الى الدرس من اضافات لها قيمة كبيرة ردّت الى الدرس النحويّ اعتباره، ثم هم الذين جددوا في اسلوب الدرس، وحكّموا الاعتبارات اللغوية فيه، وبنوا نحوهم على الاصول التي ينبغي أن يُبنى عليها من اعتداد بالنقل، واحترام للقراءات، واتساع في الرواية، والنظر الى البيئات اللغوية الموثوق بفصاحتها، وسلامة عربيتها على انها المورد الذي يصدر عنه الدرس النحويّ

وان الدرس الذي بدأ بعمل الكسائيّ، وتعهده الفراء هو الدرس الذي وقف بازاء الدرس البصري، وسُميّ فيما بعد بالدرس الكوفيّ، وهو الدرس البغدادي الذي شهدته بيئات الدرس في بغداد بُعَيْد تمصيرها.

وان اسم البغداديين الذي جرت به اقلام النحاة هو اسم للنحاة الكوفيين.

وان فكرة (المذهب البغداديّ) التي اخترعها المحدثون، وتعهدها الدكتور الانصاريّ، ثم الدكتور شوقي ضيف فكرة لم تتجاوز حدود (النظرية) التي لم يوفق اصحابها الاولون، ولا دعاتها الآخرون الى اقامة الدليل عليها.

خاتمة البحث

رأينا، بعد استعراض الدارسين في بغداد، ان الدارس الاول فيها هو ابو الحسن علي بن حمزة الكسائي، ولم يعرف الكسائي في غير بغداد علما من اعلام الدرس النحوي، واذ كان في الكوفة كان من اعلام القراءة، وكانت القراءة أبرز جوانب الثقافة في الكوفة، وقد ظهر فيها من القـراء ثلاثة من أئمة القراءة الذين شهروا في الامصار الاسلامية، وهم: عاصم بن ابي النَّجود، وحمزة بن حبيب الزيات، وعليّ بن حمزة الكسائي، ولم يكن للدرس النحويّ في الكوفة مكان في اعتبار الدارسين الا بمقدار ما يحقق الحاجة الى تصحيح قراءة. ولم يشهر فيها دارس يقف بازاء الدارسين في البصرة.

اما ابو جعفر الرواسيّ ومعاذ الهرّاء فلا يعدوان ان يكونا مؤدّبين يقدمان لتلاميذهما شيئا من علم الاعراب وشيئا من اللغة وشيئا من الشعر وشيئا من الاخبار والانساب، ولعل معرفتهما بالنحو ترجع الى تلمذتهما او سماعهما من بعض اعلام الدرس في البصرة، وقد نسب بعض اصحاب الطبقات علم أبي جعفر بالنحو الى عيسى بن عمر، وبعضهم الى ابي عمرو ابن العلاء. اما معاذ الهراء فلم اقف على من ينسب اليه علمه بـالعـربيـة، او على مدى علمه بها، وكل ما هناك مزاعم مخلّطة تجعل ابا جعفر مؤسس مذهب، أو تنسب اليه كتابا لم يعرف منه الا اسمه وتزعم ان الخليل ابن احمد أفاد منه، ووضع كتابه عليه. ولا اظن ان هذه المزاعم كانـت تهتم

بتثبيت الرئاسة لابي جعفر بقدر اهتمامها بالتشكيك في رئاسة الخليل وعلمه، وقد اصطنعت هذه المزاعم هذا الاسلوب لتغضّ من شأن الخليل حتى يقرن اسمه باسم الدارس المغمور، المعروف بالرواسيّ، بل لتجعل منزلته دون منزلته، لانه لم يضع كتابه الا بعد ان وقف على كتاب الرواسيّ المسمى بالفيصل، وافاد منه.

وليست هذه هي الفرية الفريدة لمحاولة النيل من علوّ مكانة الخليل، وشموخ عبقريته، فقد تذاءب حوله حسّاده، وذهبوا للنيل منه مذاهب شتى.

فهذا سعيد بن مسعدة الاخفش يتطاول على الخليل فيزعم انه استدرك عليه بحرا لم يصل اليه ولم يعرفه، وأنه اول من نبّه على عوار الكتاب.

وهذا أبو حاتم السجستانيّ ومن تابعه يفتاتون فيزعمون ان كتاب العين انما هو لليث بن المظفر، ويشككون في نسبته الى الخليل، حتى اذا اطمأنّوا أنّ المزاعم جازت على الدارسين سطوا على ما في كتاب العين، وجعلوا من المنحول او المفتعل قوام مصنفاتهم في اللغة، فكان كتاب «تهذيب اللغة» للأزهريّ، «والكتاب البارع» للقالي.

وهذا الجاحظ الذي اضطربت آراؤه، واتخذ من التلعب بالألفاظ أسلوبا لأدبه وتأليفه، يحمل على الخليل، ويضطرب في رأيه فيه فهو من كبار النظار المتكلمين الذين كانوا يعرفون أقدار المعاني، ويشتقون لها الاسماء من كلام العرب[1] وهو في نظره، من جهة اخرى مغرور «غره إحسانه في النحو والعروض، فظن انه يحسن الكلام وتأليف اللحون، فكتب فيهما كتابين لا يشير بهما، ولا يدل عليهما الّا المرّة المحترقة، ولا يؤديّ الى مثل ذلك الا خذلان من الله تعالى»[2].

---

(١) البيان والتبيين ١/١٥٣.

(٢) الحيوان ١/٩١، ٩٣.

غير انهم رجعوا بخفي حنين، وآبوا بمثل ما آب به الوعل الذي سوّلت له نفسه ان ينطح صلد الصخور.

ولم يذكر اصحاب الطبقات دارسا آخر تنسب اليه الرئاسة في النحو الكوفيّ الاّ الكسائي -، والكسائي لم يشهر بالنحو قبل ذهابه الى البصرة ولقيّه الخليل بن احمد وارتحاله الى البوادي لمشافهة الفصحاء، واذ رجع من البادية بعد رحلة طويلة لم يكن له همّ الاّ البصرة والخليل، ولكن الخليل كان قد مات قبل وصوله الى البصرة، ولم يمكث في البصرة طويلا، فقد رجع الى الكوفة، ولكنه لم يلبث أن أُزعج الى بغداد ليؤدب ولد المهديّ وكان قد استجاب لامر الخليفة، واقام في بغداد.

اخذ الكسائي بعد اقامته في بغداد يتصدر حلقات الدرس، ويخطط لمذهب نحويّ جديد يبنيه على أسس جديدة مستفادة من منهج الدراسة التي ألفها يوم كان في الكوفة، وهي القراءة التي هي سُنّة متبعة، لا تصحح بالقياس، ولا تخضع للتعليل، وهو منهج جديد إذا قُرن بمنهج البصريين في تناولهم موضوعات النحو بالدرس.

فالكسائيّ اذن هو النحويّ الاول الذي شهدته الكوفة، وهو النحويّ - الاول الذي شهدته بغداد، واذا اريد ان يؤرخ للدرس النحويّ في الكوفة أو في بغداد فينبغي أنْ يؤرخ له بعمل الكسائيّ، وهو يتصدر مجالس الدرس في بغداد.

واخذ عنه جماعة من الدارسين كان أبو زكريا الفراء في مقدمتهم، فقد كان على جانب عظيم من الذكاء وحدة الذهن وقوة الحفظ، ودقة الضبط. وكان، ولم يكن من الدارسين المعاصرين في بغداد او البصرة من يقرن به، وكان من بُعْد الهمة أنْ اعاد النظر في الدرس النحويّ جملة، ورسم له الحدود التي اكسبته الشخصية المستقلة.

وسار الدرس في حدود ما رسم الفراء وخطّط ووضع حتى تولى الرئاسة

فيه ابو العباس احمد بن يحيي ثعلب، وكان اخذ اللغة عن محمد بن زياد الاعرابي، والنحو عن سلمة بن عاصم ومحمد بن قادم، ولم يبلغ الخامسة والعشرين حتى حفظ كتب الفراء كلها وتصدر للتدريس، وكان حافظا ثبتاً طلعة معروفا بصدق اللهجة والمعرفة بالعربية والشعر، وكان من سعة الحفظ أنْ كان ابن الاعرابي استاذه اذا شكّ في شيء سأله عنه، وكان نموذجا للدارس البغداديّ الذي يعتد بالسماع، وكان اذا سئل عن مسألة قال: قال الفراء وقال الكسائيّ، فاذا سئل عن العلة لم يعرف النظر، هكذا وصفوه، وربما كانوا يغمزونه بهذا اذا اريد الى الموازنة بينه وبين معاصره ابي العباس المبرد، ولكنهم كانوا على وهم كبير لانهم كانوا يظنون خطأ ان سبيل النحو هو القياس والتعليل والنظر.

واذ ورد المبرد بغداد كانت الحياة العقلية مهيأة لتقبّل الدرس البصريّ واسلوبه العقليّ في معالجة موضوعات النحو وتعليلاته واحتجاجاته والزاماته، ووجد الدارسون في النحو البصريّ ما يتلاءم مع الاتجاهات العقلية في الدرس فأخذوا يختلفون الى مجلسه، واخذ جماعة منهم ينقطعون عن مجلس ثعلب، ويلزمون المبرّد، وجماعة منهم يلزمون مجلس ثعلب، وجماعة ثالثة كانت تختلف الى المجلسين وتأخذ عن الشيخين.

وقد ادّى هذا الى ان ينقسم الدارسون على انفسهم، فمن مؤيّد لمذهب ثعلب، ومؤيد لمذهب المبرد، وادّى هذا الانقسام الى احياء التعصب المذهبيّ وادّى احتكاك التلاميذ بعضهم ببعض الى اشتداد هذا التعصب، وفي عهد هؤلاء راجت الافتعالات والمزاعم، وراح كل فريق يتعصب لشيخه ومذهبه، وفي عهد هؤلاء ظهرت التسمية بالكوفية ابتدعها تلاميذ المبرد ليميزوا انفسهم من تلاميذ ثعلب، لانهم جميعا بغداديون، ثم انسحبت التسمية على شيوخهم ثعلب والفراء والكسائي وغيرهم، وقبل هذا لم يكن الكسائيّ ولا الفراء ولا ثعلب ليسموا بالكوفيين، حتى المبرد نفسه لم يكن يعرف هذه التسمية، ولم تجر على لسانه ولا قلمه، بل كان اذا

تحدث عنهم او حكى عن أحدهم سماهم بالبغداديين، فقد حُكيَ عنه انه قال: « ما رأيت للبغداديين كتابا خيرا من كتاب يعقوب بن السّكيت في المنطق »[٣]، وهو انما عنى بالبغداديين من نسميهم اليوم بالكوفيين.

وظل البغداديون الكوفيون يمثلون خطّا واضحا، واتجاها على حدة، والبغداديون البصريون يمثلون اتجاها آخر على حدة ايضا، وسار الاتجاهان جنبا الى جنب وهما يتدفقان قوة وحيوية، ويقدمان للدرس النحوي واللغويّ مزيدا من القوة والحياة طوال القرن الرابع، لانهما كانا ما يزالان يصدران عن موارد ما تزال الحياة تتردد فيها، غير ان الاعتماد عليها كان محدودا، لأنّ منطقة الاحتجاج كانت محدودة، لا تعدو ان تكون بعض البيئات المحصورة التي كانت لا تزال تتعلق باسباب الحياة البدوية، وقد عاش الازهريّ بينهم دهرا طويلا بعد أن أمتحِن بالاسار فيهم، ورآهم « يتتبعون مساقط الغيث أيام النُّجَع، ويرجعون الى أعداد المياه، ويرعون النّعم، ويعيشون بألبانها ويتكلمون بطباعهم البدوية، وقرائحهم التي اعتادوها، ولا يكاد يقع في منطقهم لحن او خطأ فاحش »[٤].

ولكن هذه البقية ما لبثت أن اضمحلت حتى لم يعد لهؤلاء طباعهم البدوية ولاقرائحهم التي اعتادوها، ولم يعد للدراسين مورد يصدرون عنه، ولا للدرس شيء جديد يمدّه بالقوة والحياة.

وكان يمكن للدرس أن يحتفظ بأصالته وحيويته لو أن الدارسين كانوا يعون موضوع تخصصهم، ويعرفون طبيعة عملهم، ويدركون أنّ مصادر الدرس لم تنضب، لأنها ماثلة، ممثّلة بما كتبه الادباء وأنشئوه، وبما ابتدع الشعراء من أساليب وتعبيرات، علاوة على النصوص القرآنية، وما دوّن المحدّثون من صحاح الأحاديث، وما ترك الدارسون الاوائل من تراث ضخم يتمثل في النقول عن الفصحاء، والحكاية عنهم، والسماع منهم، ولكن

---

(٣) نزهة الالباء ٢٤٠.

(٤) تهذيب اللغة ١/٧.

الدارسين لم يمكّنوا الدرس من الافادة من تلك الموارد الثرة بالزام أنفسهم المتابعة والتقليد، وتحرّجهم من الاحتجاج بكلام المعاصرين من منشئين وشعراء ومؤلفين، وهي نظرة كانت ولا تزال موضع جدال وخصومة بين القديم والجديد، والمحافظة والتجديد.

كان الدارسون بعد القرن الرابع بمعزل عما يحيط بهم من موارد الدرس كانوا يتسقطون أبياتا لأعراب محكية او مكتوبة، ويتحامون الافادة من شعر أبي تمام وأبي الطيب وأبي العلاء ومن كان يعاصرهم ومن كان يتقدمهم، على أنّ الدارسين لم يقعوا على لكنة في أشعارهم تحول دون الأخذ بكلامهم، والاحتجاج به، ولا على انحراف عن سنن العربية واصولها العامة، ولم يجدوا في أشعارهم من المآخذ والمعايب ما أُخذ على من كان في مقدمة من يُحتج بشعره من شعراء الجاهلية وشعراء العصر الأمويّ كالنابغة والفرزدق، وكل ما كانوا يرونه عيبا في كلام هؤلاء أنهم كانوا متأخرين عن عصر الاحتجاج الذي حددوه هم وألزموا به أنفسهم، وأنهم كانوا مجددين فيما ابتدعوا من أساليب وتعبيرات وصور حضارية جديدة، وفيما أضافوا الى دلالات كثير من المفردات من دلالات جديدة أمدتها بها حضارة المرحلة التي عاشوا فيها.

كان الدارسون متابعين مقلدين، وجدوا أسلافهم على أُمة فاقتدوا على آثارهم، وتابعوهم حتى في الامثلة والشواهد، يعيدونها ويكررونها بدون أن يزيدوا عليها شيئا، أو ينقصوا منها شيئا.

كان هذا من أمر الدرس في بغداد، أما أمر الدرس في الآفاق، في الأندلس وفي مصر مثلا فلم يكن أحسن حالا، بل كان اعتماده على نتاج الدارسين المشارقة في البصرة وبغداد، ولم تبد فيه من سمات الأصالة ما يمكن معه أن نجعل منه درسا له طابع خاص، ولم يبد من الدارسين هناك أنهم أفادوا من الفصحاء الذين نزحوا بعد الفتح، وانتشروا في تلك الآفاق، أوعُنوا بمشافهتهم والأخذ عنهم، وجلّ ما جاء به اؤلئك شروح

لمصنفات المشارقة وفي مقدمتها : كتاب سيبويه ، وجمل الزجاجيّ ، وايضاح الفارسيّ ، او تعليقات على تلك المصنفات ، او شروح لابيات الشواهد فيها ، او مصنفات تستمد مادتها من تلك المصنفات ، وتنعقد أبوابها وفصولها على ابواب المصنفات وفصولها ، وتعرض فيها الآراء المختلفة عرضا لا يقوم على اساس مذهبي كارتشاف أبي حيان ، وهمع السيوطي وغيرهما .

لهذا كان من التصنّع أن يزعم زاعم أن الدرس النحويّ كان يواصل مسيرته بالقوة والحياة اللتين عهدناهما في نحو الأوائل ، لان من تتبّع مسيرة هذا الدرس على تعاقب العصور وامتداد المسافات يحسّ بأن الدرس النحويّ انتهى ولم يعد فيه من سمات الدرس الآ شكله .

كذلك من التصنّع أن يطيل الكلام دارس فيما يسمى بالمذهب البغدادي الذي يقف بازاء المذهب البصري والمذهب الكوفيّ ، او يزعم أن في تلك الآفاق درسا نحويا متميزا ، أو أن للاندلس مدرسة نحوية ، ولمصر مدرسة نحوية ، فقد تتبعنا مسيرة الدرس النحويّ في تلك الآفاق فرأينا أن النحو في الاندلس نشأ كوفيا على يد جوديّ بن عثمان ، ولم تعرف الاندلس نحو البصرة الا في عهد متأخر على يد الأفشنيق الذي أدخل كتاب سيبويه الاندلس أول مرة ، ثم محمد بن يحيي الرباحيّ أستاذ أبي بكر الزبيدي ، وبقي الدرسان يسيران جنباً الى جنب الى أن سرت في بيئات الدرس عدوى التعصب لمذهب البصريين نهض به دارسون متابعون مقلدون ، فانتصر بهم هذا المذهب ، وانكمش ظل الدرس الكوفي زمانا ، ثم قدّر له أن يسترد اعتباره بما كتبه ابن مضاء القرطبيّ وما دعا اليه ، ولم يكد الدارس المتتبع يجد شيئا جديدا فيما ألّف في نحو البصريين ، ولا ما ألّف في نحو الكوفيين ، ولم يجد في دعوة ابن مضاء الآ بعثا لنحو الكوفيين وآرائهم وطريقتهم في تناول موضوعات النحو بالدرس .

وتتبعنا مسيرة الدرس في مصر فرأينا ان النحو الذي عرفته مجالس

الدرس في مصر كان بصريا خالصا، ولم نجد دارسا مصريا كان قد أخذ النحو عن أحد من الكوفيين، ثم أصاب الدرس في مصر ما أصاب الدرس في بغداد من جموذ وجدب.

ولم يلحظ الدارس أن شيئا جديدا طرأ على الدرس النحويّ في تلك الآفاق، او أنّ ملامح شخصية متميزة لاحت على اعمال النحاة فيها، أمّا محاولة بعض الدارسين لاستخلاص مذهب خاص ينتسب الى البيئة الاندلسية، او البيئة المصرية الى حدّ أنْ يسمى بمدرسة فمحاولة اثبت الدرس انها محاولة تستند الى وهم لا يمتّ الى الواقع بسبب.

يؤيد هذا ان صاحب المحاولة نفسه كان قد انتهى في تتبعه مسيرة الدرس النحويّ في الاندلس ومصر الى:

١ ـ أن الاندلس انما عرفت النحو الكوفي أول عهدها بهذا الدرس، ثم عرفت الدرس البصريّ، ثم نشأت طبقة من الدارسين نهجت نهجا بغداديا بتعمقها في مصنفات البصريين والكوفيين، ثم كان المتأخرون الذين وضعهم صاحب هذه المحاولة في اتجاه المدرسة البغدادية، ولم يشر الى خصائص أندلسية تجعل من الدرس النحويّ في الاندلس نحوا جديدا.

٢ ـ وان الدرس النحوي في مصر نشأ بصريا أولا بأعمال ولاّد وبنيه، ثم كان بغداديا بأعمال أبي علي الدينوريّ اذ أخذ عن ثعلب والمبرّد، وأبي جعفر النحاس، اذ أخذ عن تلاميذ المبرد وتلاميذ ثعلب، ثم كان المتأخرون الذين جعلهم في اتجاه المدرسة البغدادية، ولم يشر أيضا الى ملامح شخصية مستقلة يمكن ان تنسب الدارسين في مصر الى مذهب خاص، أو مدرسة بعينها تسمى بالمدرسة المصرية.

ولا أرى هذه المحاولة الاّ ترفا وتأنقا لا يليق مثلها بجدّيّة البحث.

وانما عرضنا للدرس النحويّ في الآفاق لتتبّع مسيرة الدرس البغدادي الذي سمي ـ بعد ـ بالكوفيّ، ولتحديد (البغدادية) التي جرت على اقلام

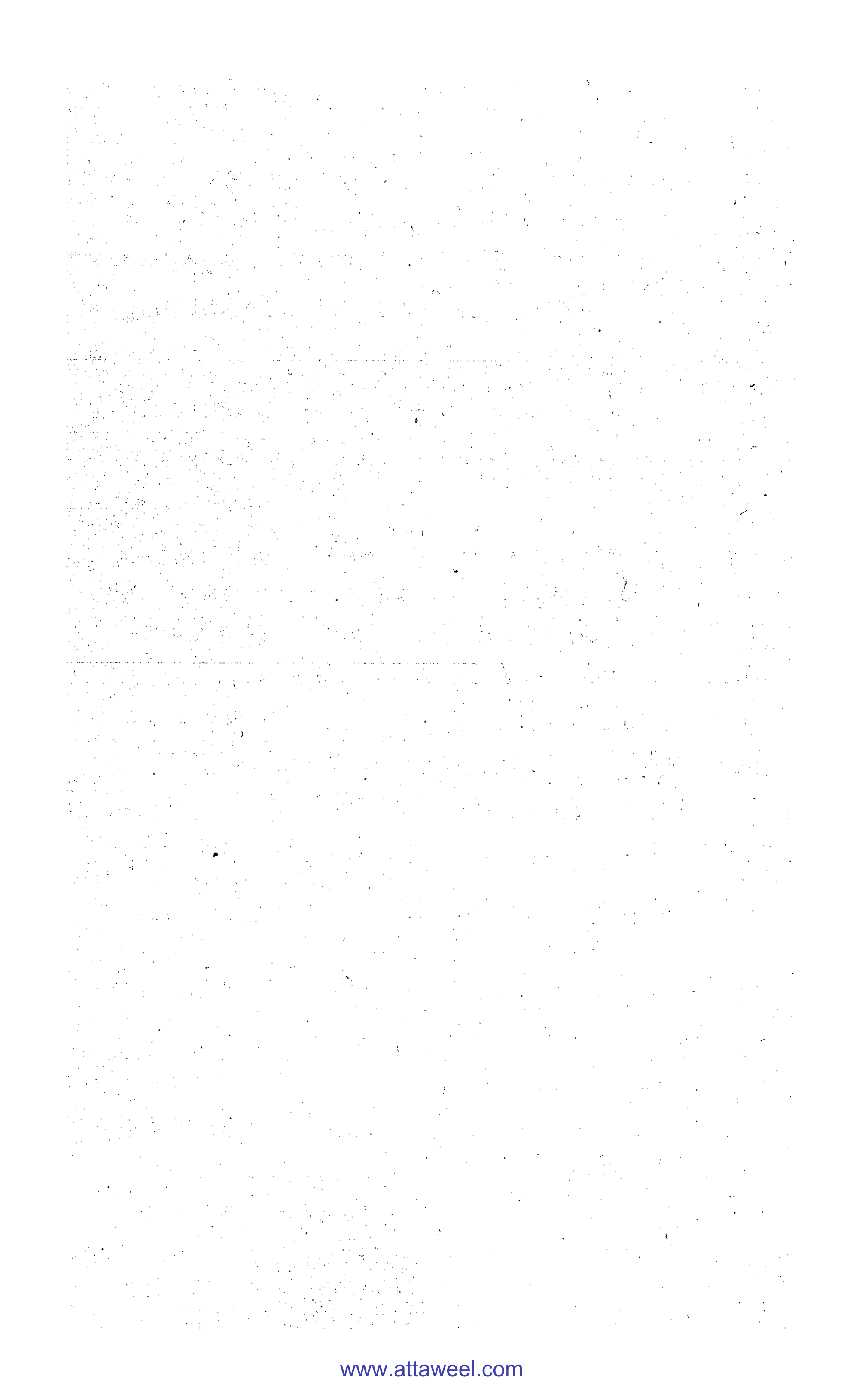
المؤلفين، وكانت تجري على ألسنة الدارسين، ولتبديد الوهم الذي علق بأذهان الدارسين المحدثين، حين تصوروا أنّ البغدادية تعني مذهباً آخر غير مذهب البصريين ومذهب الكوفيين.

ومردّ تعلقهم بهذا الوهم:

١ - ما جاء في فهرست ابن النديم من تصنيف النحويين ثلاثة أصناف؛ بصريين وكوفيين ودارسين كانوا يخلطون المذهبين.

٢ - وشيوع اسم البغداديين في مصنفات المتأخرين، وتردده بازاء البصريين والكوفيين.

وقد ظهر لنا في اثناء الفصول أنّ ابن النديم لم يرد بخلط المذهبين مذهبا ثالثا، وأنّ البغداديين في مصنفات المتأخرين هم الكوفيون، لانهم يقفون مع الكوفيين في اكثر مسائل الخلاف بين الكوفيين والبصريين، ولم يذكر لهم رأي يناقض رأي الكوفيين. غير ان هذه التسمية جازت على الدارسين الـمُحدثين فراحوا يفلسفون المسألة ويرسمون خطوطها، ثم يطبقونها في توسع لا يقره البحث، كما فعل الدكتور شوقي ضيف في كتابه (المدارس النحوية).



مصادر البحث ومراجعه

١ ـ أبو زكريا الفراء ـ أحمد مكي الانصاري ـ القاهرة ١٩٦٤.

٢ ـ أخبار النحويين البصريين ـ السيرافي ـ كرنكو بيروت.

٣ ـ أدب الكاتب ـ ابن قتيبة ـ ليدن ـ بريل ١٩٠٠.

٤ ـ أسرار العربية ـ أبو البركات الانباري ـ ليدن

٥ ـ الاضداد ـ أبو بكر بن الانباري ـ الكويت ١٩٦٠.

٦ ـ اعراب القرآن ـ المنسوب للزجاج ـ إبراهيم الأبياري ـ القاهرة ١٩٦٣.

٧ ـ اعراب ثلاثين سورة ـ ابن خالويه ـ دار الكتب المصرية ـ القاهرة.

٨ ـ الاغاني ـ أبو الفرج الاصفهاني ـ دار الكتب المصرية ـ القاهرة.

٩ ـ الإغراب في جدل الإعراب ـ أبو البركات الانباري ـ سعيد الافغاني ١٩٥٧.

١٠ ـ الامتاع والمؤانسة ـ أبو حيان التوحيدي ـ لجنة التأليف والترجمة والنشر القاهرة ١٩٥٣.

١١ ـ إنباه الرواة بأنباه النحاة ـ القفطي ـ تحـ محمد أبي الفضل إبراهيم ـ القاهرة.

١٢ ـ الانصاف في مسائل الخلاف ـ أبو البركات الانباري ـ مط السعادة ـ القاهرة.

١٣ ـ الايضاح في علل النحو ـ أبو القاسم الزجاجي ـ مازن المبارك. دار العروبة ـ القاهرة ١٩٥٩.
١٤ ـ البحر المحيط ـ أبو حيان التوحيدي ـ مط النصر الحديثة.
١٥ ـ البرهان في علوم القرآن ـ الزركشي ـ تحـ محمد أبي الفضل ابراهيم ـ دار أحياء الكتب العربية ـ القاهرة ١٩٥٧.
١٦ ـ بغية الوعاة ـ السيوطي ـ تحـ محمد ابي الفضل إبراهيم ـ البابي الحلبي ١٩٦٤.
١٧ ـ البيان والتبيين ـ الجاحظ ـ تحـ عبد السلام هارون ـ القاهرة.
١٨ ـ تاريخ الادب العربي ـ بروكلمان. الطبعة العربية.
١٩ ـ تاريخ الطبري ـ ابو جعفر محمد بن جرير ـ ليدن ١٨٨٥ ـ ١٨٨٩.
٢٠ ـ تاريخ بغداد ـ الخطيب البغدادي. مـط السعادة ـ القاهرة ١٣٤٩ هـ.
٢١ ـ التبيان في شرح الديوان ـ نشر مصطفى السقا واخرين ـ البابي الحلبي ـ القاهرة ١٩٥٦.
٢٢ ـ التسهيل ـ ابن مالك. تحـ محمد كامل بركات ـ دار الكاتب العربي ـ القاهرة ١٩٦٧.
٢٣ ـ تهذيب التهذيب ـ ابن حجر العسقلاني ـ حيدر آباد ١٣٢٥ هـ.
٢٤ ـ تهذيب اللغة ـ أبو منصور الأزهري، ج١ تحـ عبد السلام هارون ـ الدار المصرية ـ القاهرة ١٩٦٤.
٢٥ ـ الجامع لاحكام القرآن ـ أبو عبدالله محمد بن احمد القرطبي. دار الكاتب العربي ـ القاهرة.
٢٦ ـ جذوة المقتبس ـ الحميدي ـ الدار المصرية ـ القاهرة ١٩٦٦.
٢٧ ـ حاشية الصبان ـ دار احياء الكتب العربية ـ القاهرة.
٢٨ ـ الحجة في علل القراءات السبع ـ أبو علي الفارسي ـ تحـ علي النجدي ناصف وآخرين ـ دار الكاتب العربي ـ القاهرة ١٩٦٥.

٢٩ ـ الحجة في القراءات السبع ـ ابن خالويه تحـ عبد العال سالم مكرم ـ دار الشرق ـ بيروت ١٩٧١ .

٣٠ ـ حياة الشعر في الكوفة ـ يوسف خليف ـ دار الكاتب العربي ـ القاهرة ١٩٦٨ .

٣١ ـ الحيوان ـ الجاحظ تحـ عبد السلام هارون ـ القاهرة ١٩٣٨ .

٣٢ ـ خزانة الادب ولب لباب لسان العرب ـ البغدادي ـ بولاق ١٢٩٩ هـ .

٣٣ ـ الخصائص ـ ابن جني . تحـ محمد علي النجار . دار الكتب . القاهرة .

٣٤ ـ ذيل الامالي والنوادر ـ ابو علي القالي ـ دار الكتب ـ القاهرة ١٣٤٤ هـ .

٣٥ ـ الرد على النحاة ـ أبن مضاء القرطبي تحـ شوقي ضيف ـ دار الفكر العربي ـ القاهرة .

٣٥ ـ الزجاجي ـ حياته وآثاره ومذهبه النحوي ـ مازن المبارك ـ دمشق .

٣٦ ـ سر صناعة الاعراب ـ ابن جني تحـ مصطفى السقا وآخرين . البابي الحلبي ـ القاهرة .

٣٧ ـ شرح ابن عقيل ـ الهامش ـ محمد محيي الدين عبد الحميد .

٣٨ ـ شرح الاشموني ـ نشر محمد محيي الدين عبد الحميد . البابي الحلبي ـ القاهرة .

٣٩ ـ شرح التصريح على التوضيح ـ خالد الازهري ـ دار احياء الكتب العربية ـ القاهرة .

٤٠ ـ شرح الشافية ـ الرضي الاستراباذي ـ استانبول .

٤١ ـ شرح الكافية ـ الرضي الاستراباذي ـ الاستانة ١٢٧٥ هـ .

٤٢ ـ شرح المفصل ـ ابن يعيش ـ الطباعة المنيرية ـ القاهرة .

٤٣ ـ الصاحبي ـ أحمد بن فارس ـ نشر الشنقيطي ـ المطبعة السلفية القاهرة .

٤٤ ـ صبح الاعشى ـ القلقشندي ـ دار الكتب ـ القاهرة ١٩٦٣ .
٤٥ ـ صحيح البخاري ـ مط صبيح ـ القاهرة ١٣١١ هـ .
٤٦ ـ ضحى الاسلام ـ أحمد امين ـ مكتبة النهضة المصرية ـ القاهرة ١٩٥٦ .
٤٧ ـ طبقات النحويين واللغويين ـ أبو بكر الزبيدي ـ القاهرة .
٤٨ ـ غاية النهاية في طبقات القراء ـ ابن الجزري ـ نشر بركَشتراسر ـ القاهرة .
٤٩ ـ الفهرست ـ ابن النديم ـ الرحمانية ـ القاهرة ، لايبزك .
٥٠ ـ في اصول النحو ـ سعيد الافغاني ـ مط الجامعة السورية ١٩٥٧ .
٥١ ـ قصة الحضارة ـ ديورانت ـ ترجمة زكي نجيب محمود وآخرين ـ لجنة التأليف والترجمة والنشر ـ القاهرة .
٥٢ ـ الكتاب ـ سيبويه ـ بولاق ـ القاهرة .
٥٣ ـ لسان العرب ـ ابن منظور ـ دار بيروت ـ دار صادر ـ بيروت .
٥٤ ـ لمع الادلة ـ أبو البركات الانباري ـ تحـ سعيد الافغاني ـ مط الجامعة السورية ١٩٥٧ .
٥٥ ـ ما ينصرف وما لا ينصرف ـ الزجاج ـ تحـ هدى محمود قراعة ـ القاهرة ٩٧١ .
٥٦ ـ مجالس العلماء ـ الزجاجي تحـ عبد السلام هارون ـ الكويت ١٩٦٢ .
٥٧ ـ مجالس ثعلب ـ تحـ عبد السلام هارون ـ دار المعارف ـ القاهرة .
٥٨ ـ مختصر كتاب البلدان ـ ابن الفقيه ـ تحـ دي غويه ـ ليدن ـ بريل ١٣٠٢ هـ .
٥٩ ـ المدارس النحوية ـ شوقي ضيف ـ دار المعارف. مصر ٦٨ ، ١٩٦٨ .
٦٠ ـ مدرسة البصرة النحوية ـ عبد الرحمن السيد ـ دار المعارف ـ القاهرة ١٩٦٨ .

٦١ ـ مدرسة الكوفة ـ مهدي المخزومي. البابي الحلبي ـ القاهرة ١٩٥٨ .
٦٢ ـ مرآة الجنان وعبرة اليقظان ـ عفيف الدين اليافعي. حيدر آباد ١٣٣٧ هـ.
٦٣ ـ مراتب النحويين ـ ابو الطيب اللغوي ـ تحـ محمد ابي الفضل أبراهيم ـ مكتبة النهضة مصر ـ القاهرة ١٩٥٥ .
٦٤ ـ المزهر في علوم اللغة وانواعها ـ السيوطي ـ تحـ محمد احمد جاد المولي وآخرين ـ دار احياء الكتب العربية ـ القاهرة.
٦٥ ـ المعارف ـ ابن قتيبة ـ تحـ ثروة عكاشة ـ دار الكتب ـ القاهرة ١٩٦٠ .
٦٦ ـ معاني القرآن ـ الفراء ـ القاهرة ١٩٥٥ ـ ١٩٧٣ .
٦٧ ـ معجم الادباء ـ ياقوت ـ دار المأمون ـ القاهرة ١٩٣٦ .
٦٨ ـ مغني اللبيب ـ ابن هشام ـ تحـ مازن المبارك ومحمد علي حمدالله. دمشق ١٩٦٤ .
٦٩ ـ مفاتيح العلوم ـ الخوارزمي ـ ادارة الطباعة المنيرية ـ القاهرة.
٧٠ ـ المقتضب ـ المبرد ـ تحـ محمد عبد الخالق عضيمة ـ القاهرة ١٣٨٥ هـ.
٧١ ـ مقدمة الانصاف ـ كوتولدڤايل ـ ترجمة عبد الحليم النجار .
٧٢ ـ مقدمة البستاني لشرح ديوان المتنبي ـ بيروت .
٧٣ ـ المقدمة المحسبة ـ ابن بابشاذ . تحـ حسام النعيمي ـ بغداد .
٧٤ ـ مناهل العرفان ـ الزرقاني ـ دار احياء الكتب العربية ـ القاهرة ١٣٧٢ هـ.
٧٥ ـ الموجز في النحو ـ ابن السراج البغدادي ـ تحـ مصطفى الشويمي ـ بيروت.
٧٦ ـ نزهة الالباء ـ القاهرة ـ الطبعة الحجرية.
٧٧ ـ نشأة النحو وتاريخ أشهر النحاة ـ محمد الطنطاوي ـ ليبيا .

٧٨ ـ النشر في القراءات العشر ـ ابن الجزري. مط مصطفى محمد ـ القاهرة.
٧٩ ـ نظرات في اللغة والنحو ـ طه الراوي ـ المكتبة الاهلية ـ بيروت.
٨٠ ـ النوادر في اللغة ـ أبو زيد الانصاري ـ بيروت.
٨١ ـ نور القبس ـ الحافظ اليغموري ـ نشر زلهايم.
٨٢ ـ همع الهوامع ـ السيوطي ـ مط السعادة ـ مصر ١٣٢٧ هـ.
المجلات ـ مجلة المجمع العلمي العربي بدمشق م١٤ ج٩، م٤٧ ج٤.

الفهارس

1 ـ فهرس الموضوعات.
2 ـ فهرس الآيات.
3 ـ فهرس الأحاديث.
4 ـ فهرس الأشعار.
5 ـ فهرس الأعلام.

فهرس الموضوعات

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

فهرس الآيات

فهرس الأحاديث

فهرس الأشعار

الصفحة

أنصاف أبيات

فِهْرِس أعْلامِ الأَشْخاص

صُنِعَ هذا الفِهْرِس على وَفْقِ المَشْهورِ مِنَ العَلَم، إسْمه أو كُنْيَته أو لَقَبه، بإسْقاط (ال) وصَدْرِ الكُنْيَةِ، نَحْوَ (أ ب، إبن، أخ).

[الباء]

[التاء]

[الثاء]

[الجيم]

[الحاء]

[الخاء]

[الدال]

[الذال]

[الراء]

[الزاي]

[السين]

[الشين]

[الصاد]

[الضاد]

[الطاء]

[العين]

[الغين]

[الفاء]

[القاف]

[الكاف]

[اللام]

[الميم]

[النون]

[الهاء]

[الواو]

[الياء]

مطابع « دَار الرائد العربي »

ص.ب: ٦٥٨٥ ـ تلكس ٤٣٤٩٩ LE ، رائد